فيلسوف من الشرق

د. محمد ممدوح

فيلسوف من الشرق

د. محمد ممدوح



فيلسوف من الشرق
د. محمد ممدوح

يعيش المبدع د. محمد ممدوح في محراب قصة حياة فيلسوف الشرق والغرب أيضا الأستاذ الدكتور مصطفى النشار رئيس الجمعية الفلسفية المصرية والذي قدم للمكتبة المصرية والعربية أكثر من 84 كتابا في شتى المجالات العلمية والفكرية والفلسفية والإبداعية.

ونجح محمد ممدوح في أن يضع جسراً إبداعياً بين البصر والبصيرة من خلال قصة حياة فيلسوف الشرق،

روح إنسانية تتناول قصة حياة روح كونية من خلال هذا الكتاب الذي يصلح أن نطلق عليه رواية أو مجموعة قصصية من خلال فصول الكتاب المتصلة والمنفصلة معا، لذا هو خارج التصنيف.. وفي كل الحالات هو عمل إبداعي يفوق الجمال.

محو الأمية البصرية





التـــاج

سلسلة إبداعات محو الأمية البصرية

سلسلة كتب ألكترونية وورقية تعنى بابداعات المبدعيـن المصريـن والعـرب فـي كافـة مجـالات الفنـــون والثقافة والآداب لما تمثله من قيمة رفيعة فى نهضـة الأمـم خالص التمنيات لبلدنا ووطننا العربى الكبير بمزيد من الرفعة

نسعد بوجود قامات رفيعة فى الفن والإبداع وأسـاتـذه أكـاديميـين وفنانين كبار ونقاد فى الفـن والأدب ترعـى هـذا الكيان الحضارى الهام ونسعى في هذا الإطـار بتقـديم كـل ماهـو مفيـد وجديـد وهام في حياة المبدعين والمبدعات

للتواصل ت.01009983688 وتساب.01113321949
Elsadnyelsalamony@gmail. com

أكتوبر 2022

كتاب رقم (٣)

الطريق إلى

فيلسوف من الشرق



الشاعر والكاتب: سعدني السلاموني

حين حصل العبقري المصري الدكتور أحمد زويل على جائزة نوبل في أدق العلوم بنظرية الفيمتو ثانية انتفضت له الكرة الأرضية وراحت كل جرائد العالم ومجلات العالم وقنوات العالم تزف الخبر. لتضم عبقري علم جديد لعباقرة الكرة الأرضية وراحت عناوين صحف عالمية تتنافس مع عناوين صحف عالمية لتتفرد حول الجائزة وعلم الجائزة حتى كادت أن تكون حرب العناوين؟؟

تنافس عالمي وكل عنوان يحلم بأن يتفرد عن شقيقه حتى جاء العبقري المصري فيلسوف الشرق بطل هذا الكتاب وهو أستاذ دكتور مصطفى النشار وكتب مقالاً في جريدة الأهرام المصرية انتفضت له مصر والوطن العربي حتى أنه انتفض له زويل شخصيًا فترك مقالات العالم وشاشات العالم وراح يقرأ مقال فيلسوفنا مرة بعد مرة هذا المقال الذى تفرد بعنوان قد لا يقل أهمية عن اسم النظرية وهو (عصر زويل).

على الفور قبل أن ينتهى زويل من قراءة آخر سطر في المقال هاتف بطل هذا الكتاب وراح يقدم لـه سيلاً من الشكر والتقدير علـى تفرد العنوان والمقال أيضًا استمرت المكالمـة أكثر من نصف ساعة بين الدكتور أحمد زويل ملك العلم وفيلسوف الشرق الدكتور مصطفى النشار ملك الفلسفة وهذا يدل على أننا أمام كواكب مصرية علمية بكل ما تحمل الكلمة، وكواكب في الفلسفة.

والحق أقول أن هناك فوارق بين كواكب وأكوان بين العلم والفكر والإبداع والفلسفة:

فالعالم العلامة الذى يصدر علمه لعلماء البشرية هو تخصص في علمه فقط.

أما الفيلسوف شمولي. يقدم العلوم والفنون والمدارس الفكرية ومن هنا يكون أرقى بدرجات.

فحين تم بناء الكوكب الأرضي قام هذا البناء على الفلسفة البصرية وهى التي غذت الفنون والعلوم؛ فما بالكم بحوار دار بين قامة علمية وقامة فلسفية.

روحـان كونيتـان تتحـاوران؛ والسؤال هنـا مـن يستطيع أن يـدخل علـى هذه الأرواح الكونيـة بقلـم أو بكـاميرا إلا روح السـلامونى تتلمذت علـى روح كونيـة فكانـت روح صـاحب هذا الكتـاب مبدعنا د. محمـد ممـدوح التلميذ النجيب الفريد لفيلسوف الشرق.

وأنـا لـم أشرُف بمعرفـة فيلسوفنا بشكل شخصـي إلا حـين كتـب مقالـه الشهير عن مشروعي العلمي (محو الأميـة البصـرية) فـي جريـدة الوفد المصرية فصارت صداقة بيننا.

رحـت أتـابع بشـغف كـل مـا يكتـب، ومـن خـلال حـديثنا تطـرق لتلميـذه المتفرد النبيل حسب قوله؛ د. محمد ممدوح صاحب هذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن اقتربت منه حتى تصادقنا على طريق السوشيال ميديا دون أن نلتقى؛ فعرض على كتابة مقدمة هذا الكتاب الفارق.

على الفور أدركت أن الفلاسفة الكبار لا يقدمون إلا الكبار رحت أقرأ كتابنا (فيلسوف من الشرق) مرة بعد مرة فإذ أجدنى أمام عقل وعين ولسان روح متفردة تخط سطور هذا الكتاب من الفصل الواحد حتى نهاية الفصل المرقم برقم (٢١).

هذا لو آمنا بعلم علوم محو الأمية البصرية الذى يؤكد أن الإنسان يعيش

بعقل وعين ولسان الرأس

ثم عين وعقل ولسان الروح

ثم عين وعقل ولسان القلب

أي البصر والبصيرة وبصيرة البصيرة.

فهذا الكتاب جاء على عين وعقل ولسان روح مبدعنا محمد ممدوح. أي بصيرة وليس بصرى.

من هنا تفردت روح مبدعنا وراحت تحلق في حياة فيلسوف الشرق وكأنها ولدت مع جسد وروح بطل هذا الكتاب.

روح بطل الكتاب تلبست روح المبدع من هنا كانت الجرأة العملاقة التي انطلقت من رحم صورة الواقع إلى واقع صورة ما بعد الواقع في حياة بطل الكتاب أي انطلقت من الزمان إلى الزمكان فراح يلم بأهم الجوانب في حياته ويقدمها من خلال سطور الكتاب وكأنها لحمًا

ودمًا ونورًا فجاء كتاب (فيلسوف من الشرق) خارج التصنيف العلمي والنقدي.

فهذا الكتاب لا هو رواية ولا هو كتابة ذاتية بل وأستطيع بكل قوة من خلال قراءتي للكتاب أن أصنفه تحت اسم (نص)

لأن فضاء النص يحمل العلم والفكر والفلسفة والإبداع

وهذا ما نجده في هذا الكتاب من خلال واحد وعشرين فصلاً

كل فصل يحمل لقطات واللقطات تقدم المشهد والمشهد يتضافر مع المشهد وكأننا أمام سينما الروح وليس كتاب فيلسوف من الشرق والسؤال هنا للدولة المصرية..

كيف استعانت بفلسفة بطل الكتاب وقررتها على الطلبة في المدارس والكليات كما فعلت المدارس والكليات العربية؛ ثم نصبته لعمادة أكثر من كلية؛ ثم منحته رئاسة الجمعية الفلسفية المصرية وهى التي تعرف أن منتجه أكثر من أربعة وسبعين كتابًا أي إضافة للمكتبة المصرية ولا تقوم الدولة حتى وقتنا هذا بإنتاج مسلسل عن حياة هذا الرجل العظيم؟!

فيلسوف الشرق مصطفى النشار

والحق أقول كان الله في عون الدولة لأنها محاصره عالميًا وعربيًا ومصريًا ولكن كلى يقين حين يصدر هذا الكتاب الفارق عن هذا البطل الفارق سوف تنتبه الدولة لهذا الكتاب وتحول حياة فيلسوف الشرق إلى مسلسل تلفزيوني من ثلاثين حلقة، حتى تخرج الفلسفة المصرية والعربية والشرق أوسطية من عنق الزجاجة وتحتل روح كل بيت مصري وعربي وشرق أوسطى كما كانت في أزهى عصورها ونحن في أشد الحاجة إليها الآن.

هذا الكتاب كتاب (فيلسوف من الشرق) يُذاكر ولا يُقرأ لأنه كتاب فارق عن إنسان فارق وهو فيلسوف الشرق والغرب في عصرنا الحديث الدكتور مصطفى النشار.

الإهداء

إليك ياسيدي..

في عيد ميلادك الثامن والستين..

أقُص على أمتي طرفًا من نبأ سيرتك كما رأيتها وعايشتها؛ لعلهم في ضوء هذا القبس يهتدون..

ولعل شبابنا على هذا الدرب يسيرون، لعلهم يبتعثون فكرك.

ويعلمون أن عمر الأفراد كعمر الدول..

هبوطٌ فصعود.. انكسارٌ فانتصارٌ..

إلى فيلسوف الشرق.. مصطفى النشار.. أُهدي قلبًا عرِف قدره..

في كلماتٍ دون قدره.. وما بين القدر والقدر مالا يعلمه إلا الله.

محمد

إليكِ يا منيرفا

أبكـي حـين أذكـركِ.. أصـلي فـي محرابـك الأقـدس صـلاة البكّـائين.. المغلوبين.. الذين أضناهم الحَزَن وعلتهم هموم الأرض.. لقد ضلت رسالتك وضللت أنا وما كنت من المهتدين إذ صدّقتها.. كنت أهمس في أذن الزمان أنكِ ترعين السلام؛ تُقيمين العدل وتُنشدين للإنسانية نشيد الحياة؛ فإذا بالأرض يسكنها الأشرار؛ وإذا بالحرب تحُل وتدق طبولها فوق كل مكان.. وإذا بالظلم يرتدي ثياب العدل ويُلقَى بالبخور والأناشيد والترحاب، والعدل منعكفٌ في أحد الزوايا ؛ يُقذف بالحجارة؛ يبكي كيما النساء، والسلام بجواره يُعزيه، يُسليه، ليس لنا في الأرض وجودٌ.. فهنا يسكن الأشرار... مكاننا يا صديقي في السماء.. حين يرتقي ميزان العدل.. حين يسكن الجنةَ السلام.. حين تزغرد الملائك بالحق... حينها.. يخشع الكون للإله..

قبل البدء

تآزرت أحداث واقعنا العربي كلها على الخذلان.. خذلان الإنسان.. خذلان المبادئ.. خذلان القيم.. وانطوى العالم في مجمله على تطفيف الميزان.. ميزان الحق.. ميزان العدل.. ميزان القيم.. لم تعُد القوة للحق بقدر ما غدا الحق للقوة.. شبه إجماع عالمي وعربي على هتك عرض الضمير.. وأد المبادئ الإنسانية التي أسسها الإنسان الأول بفطرته النقية.. بغرس روحه الطاهر {لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ} (المائدة٢٨)

غابة من حيوانات متصارعة تعيشها البشرية المعذَّبة .. قتل وتدمير وإبادة لكل ما يثبت انتسابه للحياة.. سفكٌ للدم الحرام.. وأد للحياة التي قدسها الله، وهدمٌ لبنيان الله، وإهدار متعمد للكرامة التي وهبها الله للإنسان عبر حروف مقدسة أو كلماتٍ من نور {وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا} (الإسراء٧٠)

تلك الغاية البشرية تثبت بوجه أو بآخر وجهة نظر الملائكة، تلك التي شهدها عالم الغيب، حيث يسكن كل شيء لهيبة الله.. الأرض خالية ...خاوية.. وملائكة السماء يؤدون وظائفهم.. كلٌ منهم في ركوعه وسجوده ودعائه وتبتله.. والله الذى يعلم السر ومطويات سره ينبئهم بهذا النبأ {إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ} (البقرة ٣٠) وكان رد الملائكة بمثابة توصيف أبناء القرن الحادى والعشرين {أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ} وكان رد العليم الخبير {قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ}.

واستحرَّ القتل في وطني.. عجز المفكرون عن تعديل الواقع أو تصحيح المسار أو تعديل المصير.. عجزوا جميعًا.. فمنهم من يرعى مصالحه ويبحث عن منافعه مع السلطة، ومنهم من يسير في الظل حرصًا على حياته.. ومنهم من لم يُعر الوطن ولا الواقع اهتمامه.. وقليلٌ منهم حملوا الهمَّ بصدق، وحملوا الرسالة بشجاعة، وحاولوا النصح للوطن، دون بحثٍ عن غنيمة هنا أو منصبٍ هناك، بل كان الوطن وحده هو القبلة.. وحده هو الغاية.. وحده هو المصير.

هذا ما ربطنى بهذا المفكر الحر.. مصطفى النشار.. اسمٌ كبيرٌ في الفلسفة في ربوع الوطن العربى.. واسمٌ بارز بين دفتيَّ كتاب الإنسانية، تلك التى تُخلد من ينادى بقيمها، ويحفظ مبادئها، ويرعى لها حقوقها.

عاش الرجل في الظل طويلاً.. لم يسع يومًا إلى شهرة رغم فتحها أبوابها له مراتٍ عدة، لم يسع إلى منصبٍ وإن كان قاب قوسين أو أدنى من المناصب كافة.. لم يبحث عن باحثين يُخلدوا فلسفته في دراسات أو أبحاث تحمل اسمه، فما أكثر ما سعى أنصاف المفكرين إلى ذاك السبيل.. ما أكثر ما انشغل الخاوون بتخليد الاسم دون أن يقدموا نفعًا حقيقيًا للإنسانية أو للعروبة أو للوطن.. إذ كان الشغل الشاغل لهم تخليد الاسم لا أكثر، ماذا قدموا .. لا يهُم كثيرًا.. أيَّ شيء أسدوه لنهضة الوطن أو لاستبقاء المبادئ أو لاستعادة القيم.. هذا من مطويات النسيان وغياهب الذاكرة.

لم يطلب الرجل مني الكتابة عنه، ولا دار بيننا حديثٌ بهذا الشأن، لكنى وقفت على تراثه كله، في ذات الوقت الذى اطلْعت فيه على غالبية أحداث ومنحنيات حياته الأولى، فكثيرًا ما أخذنا النقاش لاستعادة الذكريات، لبحث سيرتها الأولى.. وحدثتنى نفسى ذات يوم أن أسجل تلك الحياة لا كحياة شخص ولكن كحياة وطن.. لذا لم أسجل كل شيء؛ لأنني لا أقدم سيرة ذاتية، فذاك مما يملكه هو؛ ولكني أقدم الفكرة بصحبة صاحبها، الأحداث الهامة التي أثرت في الشخصية التي أنتجت هذا الفكر؛ وذاك ما قصدته وعمدت إليه..

إن أحداث حياته بالصعود والهبوط أشبه بحياة وطننا العربى.. فضلاً عن أن مصير الوطن العربى ومستقبله هو شغله الشاغل منذ القدم.. فهى رواية لا تقدم حياة شخص بقدر ما تقدم حياة وطن، مستقبل وطن، مصير وطن.. في ذات الوقت الذى تقدم فيه دور المفكر الحقيقى في النصح لوطنه، وفى استنهاض وطنه.. وفى إدراك أمته.

ملمحٌ بعيدٌ قصدت من ورائه أيضًا هذا العمل، وهو تصحيح مسار القدوة لشبابنا العربى، لنقدم المفكرين والفلاسفة والعلماء، ولو طال بي الزمن لقدمت مزيدًا من هذه القدوات الطيبات..

فشبابنا يفتقدون القدوة الحقيقية، والإعلام يُغرد بعيدًا عن المسار الصحيح، والثقافة المجتمعية تسير بلا وعي يوجهها أو يُصحح مسارها، فكان لزامًا على المخلصين الذين يحملون همَّ الوطن بصدق أن يقدموا هذه النماذج لتقود المستقبل، فلو كانت قيادة الأمة في مستقبلها للعلماء والمفكرين فلنعم هذه الأمة، ولنعم هذه القيادة، وما ذلك على الله بعزيز.

(١)

في عالم الذّر

لا أذكر من هذا اليوم شيئًا، لا من معالمه، ولا من شواهده، ولا من أحداثه، بل ربما لا أذكر ذاك الحدث برمته، غير أن معلم الفلسفة فى مدرسة الشهيد عبد الرحمن عودة الثانوية ببلدتي الصغيرة قد سبّ الرجل وكفَّره على عمق إيمانه، وعلى دماثة خلقه، وعلى رقة روحه، ولم أمتلك من العقل أو الحجة يومها ما أدفع عن صاحبنا تهمة الكفر، غير أن يقيني قد ازداد بعد ردحٍ من الزمن، أن ذاك المعلم لو رآه ما فارقه بقية حياته، ولربما طلب إليه أن يقبله سكرتيرًا عنده، لا لشيء إلا لأجل أن يتمتع بجمال روحه وعبقرية فؤاده وحسن أخلاقه.

استدعت الذاكرة ذاك الحدث لتعود به إلى الوراء، إلى حيث عالم الذر، حيث وقف الخلق جميعهم ينتظرون على شوقٍ وخوف ذاك اللقاء الأول الذى يجمع الخالق بخلقه ليأخذ عليهم الميثاق، لا أذكر الزمان الغيبي ولا المكان، فقد كان ذلك كله فى ظلالٍ وأشباح..

ظلال الملكوت، وأشباح الأرواح، غير أن ما أذكره جيداً أننى رافقت صاحبنا حين ذاك العهد الأول، يقينًا رافقته، إذ دل الحس على ما كان من الحدس، إذ خرجت شبيهًا له فى كل شيء، في دأبه، وفي حنانه، وفي اجتهاده، ربما الشيء الوحيد الذى اختلفنا فيه هو تلك البسمة التى تكسو وجهه على الدوام، دون أن تفارقه ولو للحظة واحدة، فى حين يقابلها وجوم وعبوس دائمين على وجهي، حتى عُرفت بهما بمثل ما عُرف هو بابتسامته.

تدخل القدر الرحيم غير مرة ليربطني به فى رباط لا فكاك منه.. مرة مع معلم الفلسفة فى مرحلة الصبا.. ومرة مع كتبه إذ أدرس الفلسفة بالكلية، ومرة معه من خلال خصومه الذين لم يعدموا حظًا وافرًا من الحقد والنفث عليه، ثم في الأخير معه هو شخصيًا إذ كتب القدر الرحيم أن ينتقل اللقاء من الحدس إلى الحس، من الروح وحدها إلى الروح والبدن.. من الكتب إلى الكاتب، من الفكر إلى المفكر.

وبمثل ما نسيت أو أُنسيت أحداثًا كثيرة، لعلي لا أذكر من ذاك اللقاء الأول إذ دخلت عليه قاعة المحاضرات غير جملة واحدة ختم بها المحاضرة" إنهم يسرقون قوت الشعب، وفي الأخير لا نجد تطويرًا للتعليم ولا نهوضًا بالصحة"..

كان هذا أول عهد لي مع هذا الكلام، هو ذاته أول العهد بهذا الرجل حسًا وحدسًا، قلبًا وروحًا، عشقًا ونقمًا..

نعم، كنت ناقمًا عليه كثيرًا كخصومه أو أشد، إذ لا أفتح كتابًا للفلسفة إلا واسمه يعلوه، حتى الكتاب المدرسي الذى وضعته وزارة التربية، كان هو مؤلفه، وكأن ذاك العشق الكبير لم يخلُ من الحقد ومن النقم عليه، إلى أن أُضيف الحقد والنقم إلى رصيد الحب فأُحيل عشقًا لم تفلح الأيام والأحداث فى الفكاك منه، بل لم يزدد مع حقد الحاقدين وسعي الموشين إلا عمقًا وتآزرًا.

(٢)

الســـر

ربما لم أكن مميزًا بالقدر الكافى فى المرحلة الثانوية حتى أبنى حُبى للرجل على القناعات الوجدانية.. يقتنع العقل فيحب القلب فيعشق الفؤاد.. ربما لم يكن لديَّ من النضج ما يكفى لبلوغ تلك المرحلة.. ولكن يقيني يزداد فى ذاك اليوم بأن لله حكمة سارية، حكمة تختبئ خلفها الأقدار، يُنزلها الحكيم العليم بقدر، يعجز العقل عن استيعابها.. تحار فيها القلوب والأفهام، تتقلب فيها الأبصار..

لكن سرًا وراءها يُذهب تلك الحيرة لو كُشف عنه الغطاء، وما أقل ما يُكشف عنه، وما أكثر ما تعلوه الحُجُب.

أراد القوم إيقافى عن إتمام مسيرتي العلمية بعد حصولي على درجة الماجستير، ولم أذكر هذا الرجل النبيل، لا حبي له، ولا حقدي عليه، ولا نقمتي منه.. وكأن الذاكرة قد مُحيت عن بكرتها، ولم يعُد فيها سوى ألم الواقع وتربص العالين فى الأرض واستبداد أولئك الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعًا وهم يحاربون الله..

طُفت جامعات الأرض للخروج من المحنة، خطر ببالى كل أحد إلا صاحبنا.. أجريت اتصالات بالناس كافة إلا هذا الرجل، ليضعه القدر الرحيم فى طريقي من جديد، لتبدأ رحلة جديدة، رحلة كلها ألم، كلها شقاء، لعلي أنصف القول من نفسي إذا قلت ما أخفيته فى نفسي والله مبديه، لم أعرف للسعادة ولا للراحة طعمًا منذ رافقت صاحبنا.

حقيقة واقعة لا مبالغة فيها، لم يكن السبب في هذا الشقاء ولا ذاك العنت غير الحب، إذ ملك صاحبنا كياني كله.. سار هو الوجود، الحياة، الفؤاد، كوني كله يتلخص في محرابه الصغير، في شخصه الذى لا يزن في الكون الفسيح بضعة جرامات، في موطنه الذى يسكنه الذى لا يشغل حيزًا من الكون المترامي غير ذرةٍ فى فلاة، ارتباط عجيب وضعه الله، والله أعلم حيث يجعل حبه في قلوب عباده، والله يصطفي للقلوب ما يشاء، دون إرادةٍ من البشر.

مئات الأميال بيننا، يقطعها القلب في لحظة واحدة من عمر الزمن، قد تسبق الزمن، قد تفارق الوجود إذ لا زمن، قد يقطع المسافة القلب وحده دون ارتكانه إلى وسائل الحياة.

مرت المرحلة سريعة، اثنا عشر عامًا حسًا وحدسًا، سبقتها سبعة أعوام حدسًا، اختلط فيها الحب بالحسد، والعشق بالغيرة، والأمل بالألم.

ثم تقاربت الأرواح فزالت الآمال كلها ولم يتبق إلا الآلام.. زالت السعادة ولم يتبق إلا الحزن المقيم.. لعل السبب الأول فيه أني لم أستطع الفكاك منه روحيًا، فصار ألمه الصغير ألمًا مقيمًا لديَّ.. وصار حزنه الضئيل حزنًا دائمًا عندي.. وصار مرضه البسيط غصة من ورائها كمدٌ في قلبى، يسرى منه إلى سائر جسدي، حتى مرت بي الحياة، وتقدم بى العُمر، ولربما جالست نفسي وتمنيت بيني وبين ترددات أعماقها "يا ليتني ما عرفت هذا الرجل.. يا ليتني ما قابلته في حياتي".

ولكنه السر الذى يطويه القدر، السر في مكنون الغيب الذى تطويه الصحف وتنشره، ويتعاقب عليه الليل والنهار، وتسرى الحجُب من فوقه.

(٣)

فى رحم الأمل

تشرق الشمس على أرض الكنانة فى أواخر صيف ١٩٥٣م ومصر تكاد تغلى كالمرجل، فلست أدرى إن كانت هى بأرضها وأصلها وجمالها وطبيعتها النقية أم هى الحرب والشتات والمعدات العسكرية التى تأتى من الشرق تارة ومن الغرب أخرى، ربما تكون النقيضين معًا، الحرب والسلام فى آنٍ واحد، حرب يفرضه الواقع الأليم، حيث احتلال دام لقرونٍ طوال، ما أن تنفك قدم المحتل عن أرضنا الطيبة حتى يرثها محتل آخر، وما تنفك أرواح جيل من المقاومة حتى يرثها جيل آخر.. وكأن بلادى قد سُجلت فى طوايا القدر ألا تذق طعم الأمن قط، فليس سوى الصراع، وليس سوى الاقتتال؛ لكنه اقتتال مشرَّف فى ناحية.. حيث الثوار والأبطال والمدافعين عن الأرض، وزنيم فى ناحية أخرى؛ حيث المعتدين المتربصين الذين يعتدون على الأرض والعِرض ومقومات الطبيعة.

شتات يحياه الوطن.. يعيش النقيضين معًا.. ولكن الشيء الوحيد الذى يكاد محتفظاً بطبيعته هو الريف، إذ الطبيعة الخلابة، الصافية كسمائه، النقية كقلوب أبنائه، فكم طغى الإنسان على الأرض وأفسد فيها، وما منعت عنه خيرها يومًا قط.. كم أساء إليها، وما قابلت الإساءة إلا بالحسنة؛ لعله التناقض المحير أيضًا، أو لعله قبس من رحمات السماء على الأرض، تلك الرحمات التى ما انقطعت قط، وما ارتبطت قط بمقابل، بل هى الرحمات الحانيات على الأرض، تلك التى تتخلل قسوة الحياة ومشقة دروبها.

هناك، حيث القاهرة، حيث يغلي المرجل بالأحداث، أحداث ثورة لم يمر عليها سوى بضعة أشهُر، ثورة قضت على الملكية ونادت بالجمهورية والقيم العليا للإنسانية الراشدة؛ وحيث المتآمرون عليها وعلى رجالاتها، الباذلون كل ما طالته أيديهم لإجهاضها؛ وحيث الشعب اليقظ الذى يلتف حول الزعيم ويؤمن بمبادئه، تلك التى كانت فى يومٍ ماضٍ من الأيام، لا تتجاوز حدود أضغاث الأحلام!!

وهنا، حيث شوبر، تلك القرية التى تبعُد عن مدينة طنطا قدر ثمانية كيلو مترات، وحيث العائلات الكبرى التى يربطها الرحم والدم أكثر مما يرتبط جسد الإنسان بروحه، وما أدراك ما شوبر، ولا المدينة، ولا العائلة؟!

أما شوبر فهى القرية التى لم تتغير ملامحها فى ذاك القرن الماضى بعقوده المتعاقبة، قرية هادئة، وادعة، يأتيها رزقها رغدًا من كل مكانٍ فيها، أهلها متعارفون، متحابون، متعاونون..

حقولها بين السهول والمرتفعات، إذ لم تعدم كثيرًا من الصفات الجبلية رغم وقوعها فى قلب الدلتا النابض بالطمى والتربة الخصبة، ولكن ربما كانت طبيعتها أقرب إلى الجبال إذ لم تدخل مصر عصر السد العالى بعد، وإذ كانت مصر، قراها ومدنها، تُضاء بمصباح الوقود، وهو عبارة عن مصباح صغير له مخزن صغير يوضع فيه الوقود، فيشتعل الشريط الممتد إلى أسفل مخزن الوقود، فينبعث منه ضوء أحمر يحمل الدفء والنقاء ويرسل السرور إلى قلوب الملتفين حوله رغم اختلاف أعمارهم وإدراكهم،

إذ يمثل هذا المصباح شيئًا خاصًا لكل أحدٍ رآه، أو جلس فى ضوئه؛ فهو بالنسبة لي يمثل الدفء، دفء العائلة الذي لا أتحصل عليه إلا في تلك اللحظات؛ وبالنسبة لأمي ضياء المنزل خاصة وقت طعام العشاء ليرى الصبية ما يأكلون؛ وبالنسبة لأبي إيذانٌ بوقت الراحة؛ إذ جعل الله الليل لباسًا..

حياة بسيطة؛ بسيطة للغاية، وكل شيء فيها أصيل.. الحقل أصيل.. النخيل أصيل.. التربة أصيلة.. أهل الريف أصلاء.. وما يشذ عن تلك الميزة أحد.

أما المدينة فهي إحدى مدن الدلتا التي تهفو إليها القلوب، حيث يسكنها قطب ربانيَّ من أقطاب الصوفية، تُشد إليه الرحال من كل مكانٍ فى أرض الله وكونه.. إنها طنطا، وإنه سيد السادات؛ أحمد البدوي، الرجل الذى يشع من وجهه النور على آدميته، إنه نور النسب العظيم الذى ينتمى إليه، حيث آل بيت النبي الأكرم(ﷺ)، وحيث سيدا شباب أهل الجنة، وحيث الزهراء قرة عين سيدنا رسول الله (ﷺ).

وكم أقيمت الأمسيات الدينية والحفلات الصوفية فى رحاب سيدى أحمد البدوى، وكم كان سببًا فى هداية التائبين وتوبة العاصين؛ وكم أضاء حياة الغافلين والأبعدين، وكم نشر نور الحب وضيائه فى قلوب المحبين والعاشقين، وكم انكسرت على عتبة بيته شهوات وأهواء المغرضين والمفسدين، الذين غمرهم نوره فانقلبوا هداةً مهديين..

حتمًا تسكن النفس فى هذه الأماكن المقدسة.. يستقر في عقيدتنا أنهم لا يملكون لأحدٍ نفعًا ولا ضرًا فضلاً عن عجزهم عن نفع أنفسهم، بذات القدر من اليقين يستقر فى أعماقنا أن بيوتهم كأي بيوت، وقبورهم كأي قبور، ليس فيها مزية تزيد عن قبور الصالحين من المؤمنين الذين غمرهم الناس وغمرتهم الحياة، فلم يدر أحد عنهم شيئًا.. فعاشوا فى الظل، ولكنهم من سادة يوم القيامة، من أهل الله وخاصته، من أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون.

هذا كله مما لا مرية فيه.. لكن شيئًا ما يتملكك عند هؤلاء السادة،، الحسين السبط الشهيد.. السيدة زينب.. السيدة نفيسة.. أو أي من مقامات آل البيت، لماذا؟ لأنك تتذكر مسيرة صاحبها..

تتذكر ما عانوه من اضطهاد وظلم وبغيٍ، ولأنه يشابه إلى حدٍ بعيد جزءًا مما تعانيه فى حياتك، فلا غرابة أن يحن الشبيه إلى شبيهه، أن تُساق النفس إلى السكينة فى مكانٍ لا يعرف سوى السكينة، أن تكابد الروح الشوق فى مكان أحاط به الشوق من كل مكانٍ، يُرى أو لا يُرى.

أما العائلة، فهى عائلة كبرى تمتد لتشمل كافة مراكز وقرى محافظة الغربية، ففريق منها فى شوبر، وآخرون فى المحلة، وآخرون فى طنطا؛ وربما امتد آخرون إلى محافظاتٍ أخرى، وربما فرّق الزمان ذاك الأصل الكبير إلى فروعٍ شتى..

كان والد الصبي أحد أفرع تلك العائلة، وكان وحيًدا لأبيه، فى حين كان بنو أعمامه بالعشرات، فكان يعانى الوحدة، وربما قصَّر عليه قلبه النابض بالحب آثار تلك الوحدة.. تزوج من ابنة عمه.. هكذا كان الأغلبية.. إذ تسود الرحم كل شيء، من أخصه إلى أعمه، فإذا حضر ذكر الرحم، فلا رأى ولا حرية.

دام الزواج بضع سنين ولا إنجاب.. هكذا خط القدر قراره، وما غابت الرحمة عن قلب الزوجة النابض بالحنان، فطلبت إليه أن يتزوج، وبين عرضٍ منها وممانعة منه تم الأمر فى النهاية، وكات والدة الصبي هى السند الباقى، والركن الرشيد الذى نشأ منه هذا البيت، السيدة اعتماد محمد عبد المجيد.

كان الصبي يسمع هذه القصة ولا يعاين أحداثها، فما زال فى رحم الغيب حينها، كان يُقلب الأمور على وجوهها كافة، فلا يجد مبررًا غير الرحم.. ولا سندًا غير الرحمة.. فالرحم وحده هو السائد والركن الرشيد بين الأهل جميعًا.. والرحمة وحدها هى التى دفعت سيدة أن تطلب من زوجها الزواج عليها راضية مرضية لأجل ألا تحرمه الإنجاب.. سيدة تطلب هذا الطلب.. ثم تعيش عزيزة أبية كريمة معطاءة، تُرى، أى قلب ذاك الذى ينبض بالحياة.. ربما لم يكن يضخ دمًا إلى أعضاء الجسم ولكنه كان يضخ الرحمة والمودة، كان يضخ العطاء بأوسع معانيه، ذاك الذى لا تدركه الكلمات، ولا تُحصيه العبارات.

كان الصبي هو المولود الأول لهذه الأسرة، ففى الثلاثين من سبتمبر في العام الذي تلا الثورة وُلد، كانت أمه تقص عليه من ذاك النبأ، إذ اليوم هو الأربعاء، وقبل أن يلملم النهار ضياءه، والأب يجلس ممسكًا مسبحته، لا شغل له سوى الذكر والدعاء، والجدة تذهب يُمنة ويسرة تنتظر فرج الله الذى تأخر لسنوات عجاف طالت أيامها، فى حين كانت الأم تئن من ألم المخاض، وما طال الأنين كعهده، بل سبق الزمن لحظات أثيره، ونزل المولود هادئًا بلا بكاء، ظنوه ميتًا، ولكنهم قلَّبوه يُمنة ويُسرة حتى بكى من ألم التقليب وكثرة الأيادى، فعلموا أنه حيَّ، ربما كان يفكر فى شيء ما إذ يستقبل الحياة، وربما يكون الهدوء سمته، وربما يكون التأمل كهفه الذى لا يفارقه.. قصَّت عليه أمه من ذاك النبأ كله، وما فكرَّ فيه ولا أعاره اهتمامًا قط، فقط تتقلب الأيام، ويتعاقب الليل والنهار، ثم فى لحظة فارقة يدرك ما كان من سرٍ، وما أخفته الأقدار، وما طوته الصحف فى غياهب القدر، وستر القلم ما جرى على اللوح، وطُويت تلك الأسرار فى قدس السر الأعظم الذى لا يحيط به علم أحد إلا الله.

سبعة أولاد كانوا سر البهجة فى تلك الأسرة.. خمسة ذكور مات منهم اثنين، وابنتان.. يقص الصبي علينا من ذاك النبأ.. "لا أذكر من تلك الطفولة الكثير، غير الرحمة التى ساكنتنا بيتنا الصغير، وغير ماجدة، تلك الشقيقة الصغرى التى دومًا ما كنت ألاعبها وأطير بها فرحًا، غير أن شيئًا غريبًا كان يربطنى بها، إذ كنت أشعر أنها ابنة لى وليست أختًا، ربما كان فارق السن هو السبب، وربما كان حنانها هو السبب، وربما كانت الشفقة فى قلبي بحكم أنها الأصغر ومن ثمّ الأضعف، وربما اجتمعت هذه الأسباب كلها.

لا أطيق عليها تلك المؤامرات البريئة التى كان خيال الأطفال ينسجها، حتى ولو من إخوتها الذين يكبرونها بأعوامٍ قليلة، ولا أرضى سب أمى لها، نعم، كنت أقبل نهرها لأى أحدٍ من الصغار، إلا ماجدة، وربما طال ماهر شيء من ذاك الحب، وربما نضج هذا الحب بعد ردحٍ من الزمن.

أسمع صوت أبى ينشد الصلاة على رسول الله بكلمات ليست كالكلمات، وبألحان بلا أدواتٍ للحن، وبموسيقى لا تخطئها آذان المحبين؛ دون آلاتٍ..

فالصلاة على النبي وحدها تعطى هذا الانطباع.. الجمال واللحن والموسيقى فى ذات الآن.. حتى صرت أقلد أبي في ذات الأداء، أحفظ الكلمات وأجتهد فى أدائها، إلى أن ضجرت أمي مني ومن أبي، إذ كان الحقل كل ما يشغلها، وهي في غنى عن أية عراقيل فى مسيرة العمل الحقلي، وما أكثر ما كان يغيب أبى عن تلك الأعمال منشغلاً بالإنشاد فى موالد الصالحين، وأنا على دربه أسير.. ربما أسير الهوى، إذ تنفق روحي ساعات نهارها وغالبية ليلها فى الهيام بالنبي وآل بيته، وفى التفكر فى أولئك القوم الذين تركوا الدنيا وملذاتها وارتضوا لأنفسهم العيش فقط لأجل مدح النبي والصلاة عليه، طوافون من أرضٍ إلى أرض، ومن مكانٍ إلى مكان، لا دنيا تشغلهم، ولا مادة تجمعهم، ولا منفعة توحدهم، فقط يجمعهم الحب، ويوحدهم العشق.. عشق النبي وآل بيته".

(٤)

تنــاقضــان

مصر للتو تقضى على الملكيـة.. تعيش الثورة، أجواء الثورة، عنت الثورة.. المخاض العسير الذى يلازم الثورة.. مصر فى رحم المعاناة الاقتصادية والمعيشية، فى رحم المعاناة من كل شيء سوى شيئين اثنين، العقيدة والحب.

عقائد البشر صافية، لا زالت فى معينها الأطهر، وطُهرها الأقدس، القلوب متعلقة بالله، فالله هو السند، هو الركن الشديد، هو الظهر إذ لا ظهر.. هو فجر الأمل الباسم.. هو الوطن الأكبر الذى يلملم شتات الناس ويرمم جراحهم.. هو اللمسة الحانية التى تُذيب تجاعيد العناء وألم الدهر.. هو الفرحة التى تغمر القلب وتملأ الفؤاد بلا سبب، وبلا وقت معين، وتطرق الأبواب كافة فى كل حينٍ تقف فيه النفس على مشارف الهاوية أو تكاد..

وإذا ذُكرت مصر، منذ العهد القديم حتى اليوم ذُكر معها شيئان، الإيمان، وآل البيت..

وما عُرفت مصر في فجر عهدها وقديم تراثها بغير الإيمان.. وما اشتُهرت حضارتها وثقافتها بغير حب آل البيت، ومراقد آل البيت، وموالد آل البيت، وزيارة آل البيت..

فلمَّا دخل الإسلام مصر سارت مصر حامية للقرآن، منها الحفّاظ والقراء الذين يتلون كتاب الله حق تلاوته، وانطلقت أصواتهم لتغزو سماء العالم، ليدخل الناس على إثرها فى دين الله أفواجًا، حتى اشتهر بين العالمين أن القرآن نزل فى الحرمين، وطُبع فى دمشق، ولكنه قُرئ فى مصر، وحتى اشتُهرت مصر ببلد آل البيت، إذ قصدتها العقيلة، السيدة زينب بنت علىّ بعد واقعة كربلاء، إذ صدر المرسوم الملكى حينها من يزيد بن معاوية وواليه على المدينة بأن تختر لها بلدًا غير المدينة، ووقع اختيارها – ويا ليمن ما وقع– على مصر، فشرُفت مصر بآل بيت رسول الله، وذاب المصريون عشقًا في آل البيت الأطهار.

أمــا الحُــب فلــم ينعــدم وجــوده إبــان الثــورة، ثــورة الأبطــال فــى يوليو١٩٥٢م، ولعل الحب والعقيدة هما الحارسان الأمينان اللذان بفضلهما حفظ الله مصر عبر عهودها المتقلبة، وظروفها المتغيرة، فما تستقر إلا لتتغير.. وما يدخلها الأمان حتى يمزقه الخوف شيعًا، وحتى يتآمر المتآمرون فرقًا وطوائف.. كان الحب هو الميراث الأبديّ منذ الميثاق الأول فى تلك الأرض الطيبة، وكان هو السند للناس فى حياتهم البئيسة.. فتبادل البيوت للطعام لم يكن إلا ميراثًا للحب.. وترابط المجتمع الريفى المتعارف والمتعاون لم يكن سوى ثمرة من ثمار الحب.. واعتبار الكل فردًا واحدًا لم يكن سوى هبة من هبات الحب..

الحب هو الميراث الإلهي للأرض.. النعمة الكبرى التي تضفيها السماء حنانًا على الأرض.. فلولا الحب ما كانت الحياة، ولا كان الوجود، ولا كانت التضحيات.

وفى ظل الضيق المعيشي الذى فرضته الثورة كان لابد من العمل، لابُد من الاجتهاد فى العمل، فالعمل وحده لا يكفى لمتطلبات الحياة..

إنها لم تكن متطلبات عسيرة، ولا كثيرة، ولا صعبة المنال، لكنها على أقل تقدير كانت ضرورات الحياة، ولا مندوحة عن إشباعها، ولا بديل عن توفيرها.

كان الشيخ والد الصبي يطوف أرض الله، سواح في الملكوت الكبير.. يومًا في طنطا.. ويومًا في القاهرة حيث الحسين مرة، وحيث السيدة زينب مرة، وحيث السيدة نفيسة مرة، وأخرى في دسوق حيث سيدي إبراهيم الدسوقي..

وما يضع عصاه حتى يتأهب من جديد للرحيل.. يطوف بين البلدان منشدًا الصلاة على رسول الله.. أحسبه كان يحفظ شعر أمير شعراء آل البيت الكميت..

وكان الصبي يسمع منه صواعق الفرزدق في وجه هشام في قصيدته الشهيرة.

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحل والحرمُ

هذا ابن خير خلق الله كلهم

هذا التقي النقي الطاهر العلمُ

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله

بجده أنبياء الله قد خُتموا

وليس قولك من هذا بضائره

فالعُرب تعرف من أنكرت والعجمُ

إذا رأته قريشٌ قال قائلها

إلى مكارم هذا ينتهي الكرمُ

فصلاة وسلامًا عليكم آل بيتٍ

في حبكم منجى وفي قربكم معتصمُ

كان الصبي يسمع لأبيه هذا الإنشاد ويطرب له، ويتمنى لو يأخذه معه سواحًا في ملك الله الفسيح فيكن كأحد هؤلاء الرجال الذين تركوا الدنيا وقصروا الحياة، كل الحياة، على ذكر الله، والصلاة على نبيه الأكرم(ﷺ).. ولكن أم الصبي كانت تقف ضد هذه الرغبة دومًا، هي تريده في الحقل وقت فراغه.. أو أمام المصباح الوقودي منكبًا على دروسه حين لحق بالدراسة، وكان تهديدها الدائم له، إما المذاكرة والاجتهاد فالتفوق، وإما الحقل والزراعة ورعى الأغنام، وما كان أمامه من خيارٍ غير التفوق والاجتهاد، إذ كان العلم يمثل رغبةً دفينة فى أعماقه، يهتز لها كيانه كله، وتحيط بوجدانه كله.

ضاقت أم الصبي ذرعًا بأبيه، وما أحسب أنها أخطأت التوجه، فمسئولية بيت به سبعة أولاد وجدَّه مسئولية كبرى، يُضاف إليها عبء الثورة وما خلفته من أعباء اقتصادية وشبه انهيار طال كافة أركان الدولة وقطاعاتها.

واجتهدت الأم فى تعديل مسار الشيخ، لكن دون جدوى، قصارى ما استطاعته، أن تُلزمه بأعمال الحقل، وأن تُضيق عليه سعة سياحته، فبات لا يحضر سوى لدى سيدي أحمد البدوي..

مرة واحدة في العام.. أثناء الاحتفال بمولده لا غير.. ولست أدرى كيف استجاب الشيخ لهذا الأمر المجحف، لعل تلك الاستجابة تبرز طيب صفائه، وعمق نقائه.. لعلها تعكس ذاك القبس الصوفى الذى يسكن بداخله ويُغذى أعماقه.. أو لعلها تعكس نقاءً ليس كالنقاء، فطرة جُبلت على الطاعة والرضا.

عمل الفتى معه فى الحقل، كان يضحك فى أعماقه، ولست أدرى أهذا الضحك سخرية من القدر أم من الرجل، لكن أظنه ضحك السخرية من القدر، إذ يقع هذا الأب الرؤوم الرحيم، تحت هذه المرأة المتجبرة الشغوفة.. وما كان تجبرها عن تسلط أو استبداد رأي، ولكن كان عن مشقة العيش وعناء الحياة، وهكذا كل شغفها، كانت تكد وتتعب، ثم هى تنتظر الحصاد، تنتظر ثمار ذاك التعب وتلك المشقة، فهذا التجبر كان وليد المسئولية، وما تستقيم الحياة قط بين اثنين كلاهما سواح فى الملكوت الأعظم!! كلاهما لديه اللامبالاة بالحياة وتبعاتها، فكانت تلك المعادلة القاسية التي أوجدها القدر، أم شغوفة، وأب سواح في ملكوت الله، نقيضان تمام التناقض.

جدية الأم تُشعرك بأنها الرجلٍ، وقد كانت كذلك حقًا، كانت شدتها توحى إليك أنها فى معركة، وحقًا كانت، بل أقوى معركة، معركة الحياة.. كانت كبرى إخوتها، فعينَّها القاضى وصيةً عليهم.. جمعت لهم المال والأرض، واكتنزت لهم من لحم الزمان ودمه.. وأوصدت على ثرواتهم عشرات الأبواب، ومن فوق الأبواب عشرات الأقفال.. ومن فوق الأقفال عين لا تنام، وقلب لا يبلغ الحدود الدنيا من الطمأنينة؛ هكذا كانت، وهكذا عاشت.

طال شغفها كل شيء فى حياة أبنائها.. فهى المريضة مع المريض، والمؤانسة للمستوحش.. والصديقة للطالب الذى يذاكر دروسه .. هي رئيس وزراء البيت، بل والرئيس الأكبر فى حياة الصبية.. لا هزل.. لا مجال للعب.. لا وقت للهو..

لم تكن كلمات الراديو في الإذاعة: "الحياة لعب وجد وحب" سوى كذبة كبرى بالنسبة لأم الصبي، فالحياة كلها جد.. كلها عمل.. كلها فناء فى العمل وفناء فى الجد..

حتى بعد أن انتقل الصبي للقاهرة وصار أستاذًا لكرسي الفلسفة في الجامعة الأم؛ ظل هذا الشغف لديها، ولازمتها تلك الجدية، ففى كل تشكيل وزارى جديد تُسائل نفسها، يا تُرى هل يكون ولدي أحد الوزراء فى هذه الوزارة الجديدة، ثم إذا أُعلن التشكيل أمام الإعلام سئمت وضجرت وبدا عليها الحزن وهى تسأل ولدها: "لماذا لم يختاروك في هذه الوزارة".

والحق أن الصبي كان يشفق على شغفها كثيرًا، فهو يعلم ما لا تعلمه، ويدرك ما لا تدركه، ولكن ليس كل ما يُدرك يقال؛ إذ يتبقى للنفس جزءًا أسيرًا لا يمكن فكه من قيده قط.

قد تدرك الآن يا صديقى مدى معاناة أم الصبي.. أرجوك لا تظلمها، فدأبُها على أولادها وشغفها وخوفها عليهم لم يفتر قط حتى وفاتها.

أما الشيخ فكان على النقيض تمامًا بمثل ما أخبرتك قبل.. ولكنه مع ذلك كان وليًا، هكذا أحسبه.. وليًا من أولياء الله الصالحين، الذين رضىَّ الله عنهم ورضوا عنه. كانت تلك هي عقيدة الصبي، وحين تسأله عن مبرره لهذا الرأي تسمع صوته وقد غلبه البكاء:

أنا لا أصدر هذا الحكم بعاطفة البنوة.. ولا لأُسليَّ عن نفسى سلبيته تلك التى ما فارقته قط.. ولا لأنى أشعر بسحب البساط من تحت قدميه أمام أميَّ.. ولا لأنه كان سواحًا فى أرض الله.

بل تحضرنى الذاكرة، وتشهد المواقف وحدها على صدق هذا التوجه.. ذات مرة وأنا أرافقه صبيًا صغيرًا إلى مسجد سيدى أحمد البدوى، كنت أتنقل فى دروب ضيقة، تنبعث منها رائحة المسك المختلطة برائحة البخور فيصنعان معًا رائحة عبقرية لا يمكن لحاسة الشم أن تذوق مثلها إلا عند مقامات الأولياء والصالحين، وفى دروبهم وحدهم دون غيرهم.. كنت أرقب الباعة بعيني، إلى أن وقعت عينى على ساعة جوفيال بيضاء، كنت أدخل المسجد للصلاة وأنا أرقبها، وأخرج من المسجد وأنا أرقبها.. وأبى يُسر فى نفسه ذاك الترقب إلى أن توافر لديه ثمنها فذهب واشتراها لي ولم يتحدث بكلمة واحدة، ويكأنه أراد أن يوصل لي رسالة مؤداها "إنى أعلم فيما تفكر، وأعلم ماذا تريد؟".. هكذا امتلأت قناعتي بربانية هذا الرجل..

قصده ذات مرة ابن عمٍ له، فجلس جلسته ثم أراد أن ينصرف دون أن يُخبر أبى عن حاجته..

وحين همَّ بالانصراف طلب إليه أبى أن ينتظر لحظة واحدة، ثم هرع إلـى حجرتـه الصـغيرة، فرفـع وسـادته، واسـتخرج مـالاً، وعـاد بـه إلـى الرجـل مبتسمًا.. "هـذا الـذى جئـت لأجلـه".. وأخـذ الرجـل المـالٍ وعدَّه عدًا، وأخذ يُقلب كفيه.. إذ بلغت به الدهشة مبلغًا، وأبـى لا يزيـد عن أن يبتسم ويهز رأسـه، فـى حين لـم تفارق الرجل دهشته ولا تعجبـه، ويكأنه لا يصدق أن هناك أناسًا كشف الله لهم حُجب الغيب، فرأوا ما لم يره الناظرون.. وعلموا مكنون الصدور !!

هذه الواقعة مـلأت قلبـي يقينًا بـأن هـذا الرجـل ولـيَّ، لـه ولايـة خاصـة.. ولايــة تكــاد لا تخطــئ الشــهود، حيــث المشــاهدة فــالعروج فــدروب الســالكين فمســالك العاشـقين فعـودة الواصـلين.. ومـا أخطـأت مواقفـه معــي بعــد؛ هــذا اليقــين؛ ففــي الوقــت الــذى اشــتعلت فيــه مظــاهرات الطـلاب فـى العـام ١٩٧١م وكنـت أشـارك فـى تلـك التظـاهرات وأؤلـف لهـا الشـعارات والأغـاني؛ وكـان الأمـن يطاردنـا بـلا هـوادة، فوجئـت بـه أمــامي فــى المدينــة الجامعيــة بقــاهرة المعــز.. وجدتــه فجــأة، بــلا مقدمات.. ارتميت في حضنه بعمق.. كدت أنسى ذاتي داخل ذاته، ونفسى في قلب نفسه..

كان يرسلني بين يديه، ينظر إلىَّ، ثم يقذفني مرة أخرى بين ذراعيه، ودموعه تتهاوى فوق خديه.. حاولت أن أربط على قلبه كذبًا بطمأنه كاذبة، ولكنه كان يهز رأسه بأدب العارفين، فلا هو بالجزع من قضاءٍ ينزل، ولا هو بالمتشوق لغيبٍ يأتي.. إنه قبلة للقدر، يرتضى أحداثه حيث كانت، وعلى أي وجه وقعت.. وما تغيرت شخصيته قط..

فهو على ولايته تلك مُذ وُلدت.. وهو عليها إذ شارف الثمانين من عمره، إذ ترك الإخوة يزرعون ويفلحون الأرض فى حين عاد سواحًا فى الملكوت الفسيح بين مقامات الأولياء، عازفًا عن الدنيا برمتها.. متحررًا من قيود أمي إذ توفاها القدر..

عائدًا كالعصفور إلى موطنه الأول، موطن العارفين.

(٥)

إلى المدينة

لـم يكـن الصـبى يعـرف غيـر دروب الأرض. سـهولها ومرتفعاتهـا، وديانها ومساقى الماء منها.. دروب سلكت إلى قلبه دروبًا.. والتمست إلى نفسه ألف سبيلٍ، إنها طبيعة الصبىَّ ذاته.. طبيعة طينية، تحب كل ما يرجع إلـى الطبيعة، كل ما يمتد أصله وجذره إليها.. فالحقل عشقه الأول لأنـه ابـن الطبيعـة.. والأنعـام عشـقه الثـانى، لأنهـا أحـد منتجـات الطبيعـة.. والقلـوب النقيـة فـى الريـف عشـق لا نظيـر لـه.. عطـاءٌ غيـر مجـذوذ.. حـبٌ لا شـاطئ لـه، إنهـا أصـل الكـون.. مـداد النقاء.. روضة المخلصين الصادقين الذين يحبون الإنسانية أو أولئكم الأبرار الذين تطغى عليهم الإنسانية بأمواجها الصافية، فتذوب ذواتهم فـى ذات الطبيعـة، وهـى ذات مخلصـة لا يلجهـا إلا الأصـفياء والمخلصون.

إنهـا البيئـة المناسبة للصبى إذن .. البيئـة التـى تُشاكله، والتـى تُشكله فى ذات الوقت..

البيئة التى يجد فيها نفسه، أو توهب فيها نفسه الحياة.. يعود من مدرسته، تلك التى تحمل اسم" مدرسة شوبر الابتدائية".. وما كان فى القرية مدرسة سواها..

في لمح البصر يخلع ثيابه أو هو أقرب، يبحث عن أبيه فيجده أمام البيت، يجلس على تلك الأريكة الخشبية التى لم يكن فى البيت سواها، تلك التى أُعدت فى البيوتات الكبرى للضيوف، إذ كانت رفاهية لا يمتلكها عوام الريف..

في بيت حسن النشار وحده يوجد المذياع.. ذاك الذى لا يوجد فى بيت آخر.. وتلك الأريكة الخشبية التى تزين مدخل البيت وتلتف حولها أغصان شجرة العنب من ناحية، لتحضنها شجرة اللوف من ناحية أخرى، ويتسلق الاثنان معًا فوق سطح المنزل الذى يكاد يُقارب الأرض، إذ لا يزيد ارتفاعه عن مترين ونصف أو أقل قليلاً..

أمـا بقيـة الأثـاث فـالجميع متشـابهون فيـه، فقـط تتفـاوت بـين السـعة والضـيق بعض الأشياء البسيطة، كالحصـيرة والزيـر الـذى يُعد لشرب المـاء، ومـاؤه أعـذب مـن الكـوثر، وبعـض الحاجيـات الأخـرى، إلا أن أغلب البيوتـات يشـتركون فـى الفـرن البلـدى وبضـعة حصـائر، وبضـعة عنزات عـادةً مـا تجـرى وتلـهو أمـام البيـت، وربمـا فـوق أرجـل الجالسـين وبين أحضانهم.

كان هذا الجو المفعم بالبساطة يأسر الصبى أسرًا لا فكاك منـه، ربمـا لا أبالغ القول إذ حسبت أن الصبي ظل طيلة عمره يـذكر تلـك الأيـام، وربمـا أكون أكثـر صـدقًا إذ قصصـت عليك يا صـديقي طرفًا من نبـأ تـأثره بتلـك النشـأة، ذاك الأثـر الـذى لازمـه حتـى جـاوز السـبعين مـن عمره، ثم أُكمل لك طرفًا منها بعد حين.

ينـزع الصـبى أبـاه مـن يديـه نزعًـا، فيـه بـراءة الطفولـة.. وفيـه سـماحة الولايـة مـن الشـيخ، فيـذهبان معًـا إلـى الحقـل، يعمـل الأب فـى دروب الأرض، تلك التى عادة ما تُزرع بالذرة أو الأرز فى الصيف، وبالقمح أو البرسـيم فـى الشـتاء، فـى حـين يلعـب الصـبى ويلـهو تـارة إذا غـاب عن عين أمـه، ثم يكـون فـى عـون أبيـه وطـوع إرادتـه إذا أبصـرته أمـه،

غير أن هذا التقلب بين الأب والأم كان الصبي يدركه جيدًا، وكان يُعد له عُدته.

فإذا حضر أمام أمه فهو المنضبط فى كل شيء.. والمتفوق فى كل شيء.. فى الحقل، وفى الدراسة، وفى النظام، وفى النظافة؛ أما إذا حضر أمام أبيه دون أمه، وتيقن من أن عين أمه لا تبصره فلا حرج من أن يفعل أي شيء، وكان أقصى ما يفعله أن يلهو كما يلهو الأقران ويلعب كما يلعبون، فهذا اللعب وذاك اللهو المباحان فى كون الله الفسيح هما من المحرمات فقط عند الصبي، وفقط إذا حضرت أمه..

يمر اليوم على الصبي بين الحقل والمدرسة، فإذا أقبل الليل انكمش أمام المصباح الوقودي ليذاكر دروسه، وربما رفع صوته بالمذاكرة إذا علم أن عين أمه ترقبه، حتى حان موعد امتحان الشهادة الابتدائية، وكانت تلك هى الهجرة الأولى إلى المدينة، إذ لم يكن امتحان الشهادة الابتدائية متاحًا فى ذاك الحين فى القرية..

ذهب الصبي إلى المدينة، طنطا، يا لعظمة طنطا، أهنا يسكن السيد أحمد البدوى الذى يفد إليه الناس من الشرق والغرب؟!

أهنـا يسكن أهـل الحضـر.. أهنـا كانـت المقاومـة فـى الشـوارع تطـال الإنجليز؟ أهنا يخرج الناس ويحتشدون لتأييد عبد الناصر؟! كل هذه المعـانى تزاحمـت فـى رأس الصـبي، غيـر أنـه بعـد أول زيـارة للمدينـة أدرك ألا كبير فارق بين القرية والمدينة.

فقريته التى خرج منها ترعى الأغنام.. وهنا فى المدينة ينشغل البعض برعى الأغنام.. قريته تنشغل بالزراعة، وهنا فـى المدينـة أراضٍ زراعيـة مترامية عبر الحدود كلها.. قريته تمتاز بالود والمحبة بين أهلها، وهنا فى المدينة ذات الطيبة ونفس الصفاء.. ربما يكمن الفارق الوحيد فـى نفـس الصـبى هـو أن شـوبر بأكملهـا يعرفونـه فـى حـين أن أحـدًا فـى طنطا لا يعرفه.. ربما كان هذا هو الفارق الوحيد بين القريـة والمدينـة، فى حين تظل أوجه التلاقي أكثر من الحصر.

ثمانيـة كيلـو متـرات تفصـل القريـة عـن مدينـة طنطـا، والصـبي فـى الصـف السـادس الابتـدائي، لـه زميـل مـن إحـدى البيوتـات العريقـة فـى القريـة، وتواعـد الاثنـان أن يلتقيـا علـى مشـارف القريـة فـى السـابعة صـباحًا ليسـتقلا الأتـوبيس الـذى يحمـل العمـال مـن القريـة إلـى حيـث أعمالهم فى طنطا..

وانتظر الصبى صاحبه حتى جاوزت عقارب الساعة السابعة والربع دون أن يأتي، فقرر أن يذهب وحده إلى المدرسة، إذ المؤكد أن صاحبه قد تركه وذهب إلى المدينة، والمؤكد أيضًا أن الأتوبيس قد غادر القرية منذ ما يزيد عن الربع ساعة على الأقل، فقرر الخروج متوجهًا إلى المدينة حيث مدرسة سعد زغلول الابتدائية، تلك التى لا يعلم مكانها، ولا يمتلك أي معلومة عنها سوى أنها تحمل اسم الزعيم الخالد سعد زغلول؛ وسوى أنها لجنة الامتحان.

ثمانية كيلو مترات على الصبي أن يعدوهم مشيًا على القدمين، وليس أمامه من الوقت سوى نصف الساعة، فيحمل حقيبته الصغيرة فوق ظهره الضئيل ثم يجرى إلى أن يدركه التعب فيمشى، وظل بين المشي والجري حتى أشفق عليه أحد المارة من قريته وأردفه خلفه على دراجة، وأسرع الرجل الخطى حتى أوصل الصبى بعد بدء الامتحان بدقائق معدودة، وسط تهلل زملائه المخلصين الذين للتو كانوا يبكون ويتحسرون على غياب الصبي، ويتساءلون ألف سؤال، كيف له يغيب عن الامتحان وهو الأول على المدرسة، كيف لا

يحضر وتضيع هذه العبقرية، فلما رأوه انفرجت أساريرهم إلا صاحبه الذى عاهده على السير معًا، فأصبح وجهه قاتمًا حزينًا.

والحقيقة التى لا مرية فيها أن خط الصبى كان مبعثًا للغيرة.. إنه يكتب الخط العربى بالفطرة بإتقانٍ لا نظير له، عن غير دراسة لفن الخط العربى، وهذا كان السر فى لفت أنظار الجميع إليه.

وما كان الخط وحده مصدر لفت الأنظار إلى الصبى.. بل كان نظامه وأناته ونظافته أيضًا مدعاة للفت الانتباه.. كان ذكاؤه وحسن خلقه مدعاة للنظر إليه.. وفوق ذلك كله، كانت نشأته بين أبٍ صوفي ليست الدنيا له ببال وأمٍ تحمل همَّ الدنيا والحياة فى صدرها وفوق أكتافها هو العامل الحاسم فى اكتساب الصبى شيئًا من الجدية وكثيرًا من تحمل المسئولية.

كان امتحان الشهادة الابتدائية هو أول عهد الصبى بالمدينة، إلا أنه ما فارقها منذ ذاك الحين قط، إلا لفترات تطول وتقصُر بحسب طبيعة الدراسة، وطبيعة المرحلة، فبدأت شخصيته تكتسب خبراتٍ كثيرة ما كان لها أن تكتسبها لولا المدينة، وحياة المدينة، وضغائن المدينة، وصراعات المدينة..

كانت المدينة وجهته كل يومٍ فى المرحلة الإعدادية.. ثم يعود إلى القرية بعد إتمام اليوم الدراسي.. ثم هى وجهته كل يومٍ فى المرحلة الثانوية، ثم يعود إلى موطن رأسه وعشق فؤاده بعد اليوم الدراسي، إلا فى السنة النهائية للثانوية العامة، حين قرر أبوه أن يستأجر له حجرة بجوار مدرسته حتى لا يضيع الوقت سُدى، وحتى يتوافر على مذاكرته كل الوقت، ولكن صاحب المنزل الذى استأجر فيه حجرته كان يطفئ الكهرباء، تلك التى كانت حديثة العهد بمصر إثر بناء السد العالى، فيضطر إلى ترك هذا المنزل والاستئجار فى منزلٍ آخر، وسرعان ما يضيق ذرعًا إثر تصرفات صاحب المنزل أو استبداده؛ أو حيث تضيق نفسه بشركاء السكن، فالشقة مقسّمة إلى حجرات؛ كل حجرة بها سريرين، يسكنها شخصان في الغالب من جنسٍ واحد؛ قد تربطهما صلة من نوعٍ ما؛ ثم يُطل الجميع على حمّامٍ مشترك، وهو ما كان يستجلب سخط الصبي ويضيق به ذرعًا، حتى أدرك الخطورة على مستقبله فى الشهر الأخير من السنة النهائية، فقرر العودة إلى القرية، حيث دفء العائلة وسكون الريف.

وبعد إتمام المرحلة الثانوية كانت المدينة هى وجهته الدائمة، وكانت القرية هى النزهة التى لا تتجاوز بضعة أيام، وربما بضعة ساعات بعد مضىَّ وقت من الزمن ليس بالطويل.. إذ يلتحق الصبى بجامعة فؤاد الأول، القاهرة.. حيث تسكن نفسه هنا منذ أمدٍ بعيد..

تسكن في كل حيٍ من أحياء القاهرة، فى كل شبرٍ من جنباتها الواسعة.. القاهرة هى حُلم الصبا البعيد، هى المجد الذى يراه الصبى وتنتظره الأم، هى الكتابة فى الصحف الكبرى التى لن تتوافر فى مكانٍ آخر غير القاهرة، والحقيقة أن القاهرة لم يكن لها منافس آخر فى نفس الصبي.. بل كانت القبلة الأولى التى لا قبلة بعدها أبدًا.

فى حيٍ من الأحياء الجميلة، المنظمة، يسكن الصبي فى مدينة الطلاب، حجرة ذات سرير واحد حيث كان طلاب الكليات النظرية يسكنون بحجرات مفردة بينما طلاب الكليات العملية يسكنون حجرات ثنائية أو ثلاثية، ومع ذلك كان لا يفارقه صديقان يجاورانه في المسكن عبد الله لؤلؤ وسامى البلعوطى، كما كان لايفارقه يرافقه دوما صديقان من قاهرة المعز وما فرَّقهما الزمن قط، عطية ومدحت، الأول يرافقه فى قسم الفلسفة الذى وقع اختيار الصبي عليه، والثانى

يدرس علم النفس، إلا أن اختلاف الدراسة لم يغني شيئًا فى وحدة وقوة الصداقة، بل دامت تلك الصداقة بآلامها وآمالها؛ تلك التى شكَّلت جوهر الصبي عبر الأيام.

كانت القاهرة هى كل شيء فى حياة صاحبنا.. هى مقامات آل البيت التى يقطع لها أبوه المسافات.. هى شيء من استقرار القلب وراحة الوجدان عند آل البيت الذين يتملكون قلب الصبي وإن لم يجاهر بذا الحب يومًا ما..

لكنه كان شيئًا داخليًا يحرك وجدانه ويتربص بشجونه.. وهى فى ذات الآن موطن الوزراء والمشاهير حيث يرنو بصر الأم الشغوفة التى ما فرَّطت يومًا فى حقوق أبنائها، وسابقت الزمن فى التطلع إلى الغد المشرق، الغد الذى قد يحمل ابنها البكر إلى الوزارة، وربما أعلى من الوزارة، وكم فى هذه التطلعات من أوجه للحق لا مبالغة فيها.. إذ كان تفوق الصبى فى الدراسة، خاصة فى المرحلة الجامعية وتحقيقه المركز الأول على الجامعة بالحصول على ليسانس الفلسفة بتقدير ممتاز له صدى فى مصر كلها، وأي صدى!!

إنه تقدير لم يحدث فى تاريخ الجامعات المصرية منذ نشأتها وحتى اليوم وقد قارب العقد الثالث من القرن الحادي والعشرين على الانتهاء إلا مرة أو مرتين..

ونشرت الجرائد القومية الكبرى هذا الخبر مرفقًا بصورة صاحبنا.. وكم لتلك الصورة وذاك الخبر من وقعٍ على نفس الأم المتحفزة دومًا للمستقبل، وعلى نفس الأب الذى لا يفتُر لسانه عن الذكر والحمد والصلاة على خير البرية.. وعلى نفوس أهل القرية ومنهم المحبين، وكثير منهم الحاقدين، وعلى نفوس زملائه فى القسم، خاصة أولئك المتفوقين الأربعة عشر الذين لم يكن فيهم ذكرًا واحدًا.. إذ كانوا جميعًا من الإناث.

كان تطلُع الأم وطموحها طموحًا مشروعًا من هذه الناحية، ولكنه أكثر مشروعية إذ تعلم صفات ولدها من عمق التفكير والتأنى والسلام النفسي مع الآخرين؛ كان يحمل هذه الصفات وزيادة، وكان يُجمع على جمال شخصيته وحلاوة منطقه الكثيرون مما انتفت من قلوبهم الأحقاد والضغائن.

وفـى القـاهرة؛ غيـر الجامعـة ومقامـات الأوليـاء، هنـاك الصـحف، تلـك التـى يسيل لهـا لعـاب صـاحبنا منـذ الصـبا، بـل لعلـه مـا جـاء للقـاهرة بالأساس إلا لأجل الصحافة، إذ عشق الكتابة منذ صغره، ساعده فى ذلك خطه الجميل، وخياله الواسع، وذهنه المتقد، وعقله المنظم..

لقـد كـان مرتـب الأفكـار.. فكـره مُـنظم، يسـتطيع أن يكتـب فـى فكـرة واحـدة عشـرات الصـفحات، ويسـتطيع أن يُجـزئ الفكـرة إلـى عناصـر رئيسية تتبثق منها أخرى فرعية..

إنه يمتلك أوفر الحظ من موهبة الكتابة الحقيقية، تلك التى أثقلها لديه وعمقها بداخله لقاؤه بزكى نجيب محمود، ذاك الفيلسوف الأديب الذى لازمـه صـاحبنا طيلـة سنوات دراسته سواء مـن خـلال كتاباتـه أو مـن خلال محاضراته التى كان يحضرها معه لطلاب الدراساته العليا فى جامعـة القـاهرة، لقد لازمـه طالبًا، فمعيـدًا، فمدرسًـا، فأسـتاذًا مسـاعدًا، فأستاذًا.

يمكننـى أن أطـوى لـك تلـك الصـفحات يـا صـديقى طيًـا، يكفيـك أن تعـرف أن القـاهرة كانـت الحلـم الأكبـر لصـاحبنا، كمـا كانـت أيضًـا الاختيار الصحيح الذى لا بديل عنه..

كانت المستقبل القريـب والبعيد فـى آنٍ. كانـت الأمـل والألـم فـى آنٍ.. وفـى ذلـك جوانـب كثيـرة ربمـا سـرد لـىَّ صـاحبنا بعضـها، وربمـا أخفـى بعضـها فـى مطويـات نسيان الـزمن وذاكرتـه الاستيعابية المهملـة ذات الحجـم الضـخم، وربمـا يتهيـأ لـى بعضـها فيمكننـى منـه استنباط مـا أخفاه.

(٦)

وحدة ذات

كان الصبى منذ فجر عهده بالحياة يلزم الوحدة، فهو يأكل وحده، وربما يصيبه الحرج لو اطلَّع عليه أحد أثناء طعامه.. وهو يلعب وحده فى الحقل بين الأشجار والدروب.. بين الهضاب والسهول.. حتى فى عمل الحقل كان وحده من يساعد أباه، إذ لا يزال إخوته صغارًا لا يميزون..

ولمَّا التحق الصبى بالمدرسة كانت وحدته تلك عنوانًا رئيسًا له.. فهو يجلس وحده بين زملائه، ليس له علاقات اجتماعية كتلك التى تربط عادة بين الأقران؛ حتى بعد أن سار أستاذًا للفلسفة لم تتغير شخصيته تلك، ولم يقطع تلك الوحدة، بل هو العمل فالبيت، والبيت فالعمل.. ولا شيء ثالث في حياته.

يمكنني القول يا صديقي أن هذه الوحدة كانت بمثابة البنية النفسية لصاحبنا، الوعي البنذاتي، ذاك الذى يكون بين النفس وذاتها، ولا أحد بينهما..

ربما انتهج نهج نبي الله يوسف في كثير من الأحيان، إذ اتُهم بالسرقة من لصوص بارعي اللصوصية، بارعي الكذب، أولئك الذين سرقوا أخاهم من أبيه، ثم ألقوه في الجب، ثم باعوه بثمن بخس دراهم معدودة، ثم دخلوا على أبيهم يبكون ويفجرون وينسجون الكذب نسجًا {قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب} لقد اعترفوا ضمنًا بكذبهم، إذ قالوا {وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين} أي أنك لن تصدقنا حتى لو صدقناك القول!!

ثم هم يرمون يوسف بالسرقة {قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل} فما كان من يوسف إلا أن كتمها بداخله، لم يبُدها لهم {فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم} كان صاحبنا من ذاك الطراز القليل، دخل كهف وحدته منذ الصبا، منذ أن كان يقرأ دروسه خلف أشجار النخيل، أو بجوار نافورة المياه التي تصل بين دروب الأرض، إذ كان يمد قدميه الصغيرتين في الماء، ثم يُمسك بكتابه ليستذكر دروسه دون أن يجرى أو يلهو كما هي عادة الأطفال، وربما كانت تلك الوحدة هي التي قادته للتأمل والتفكر، وهي التي غذت لديه موهبة الكتابة، وهي التي أنشأت له كيانًا فكريًا مستقلاً منذ صباه.

وربما كانت هذه الوحدة هى سر شغف أمه بالمستقبل، تكاد أن تستقرئ السماء عن مطويات غيب هذا الصبى، عمَّا وراء الحجُب، عمَّا كتبه القلم وطواه اللوح المحفوظ فى مكنونات أقدار الله.

وما اختلفت وحدة صاحبنا صبيًا أو شابًا عن وحدته طفلاً صغيرًا، فأصدقاؤه اثنان لا أكثر فى مرحلة الجامعة، ثم صداقات العمل محدودة للغاية فى شخص أو اثنين أيضًا على الأكثر، فلم تكن حياته الجامعية تتجاوز مدحت وعطية.. ولم تكن حياته العملية تتجاوز محمد مهران ومحمد مدين.. ما السبب، لست أدرى؟!

الحقيقة أن شيئًا من الغموض يعتريني في تحليل هذه الصفة التي درج عليها صاحبنا، فكل شيء فيها متناقض، الأحداث التي تثبت جانب هذه الوحدة، وحدة الذات بين الذوات المغايرة، تتنافى مع طبيعة مفكر بهذه العقلية، مفكر لا همَّ له سوى القومية العربية، الوطن، بناء الوطن، قوة الوطن، استنهاض الوطن من كبوته.

تُرى.. أيكون المفكر وحدوياً الذات، ثم هو يُضفى فكره على المجتمع؟! هذا مثار العجب.

ربما تحدثت مع أحد المقربين ذات مرة فى صفة صاحبنا تلك فأردف لـى بعدٍ مبـررات طويلـة لـم تشـبع طمـوح عقلـي، أنـه كالشـمس فـى وحدتها، لكنها تسع الكون دفئًا وضياءً! وربما هذا التشبيه ذاته غير مقبول لديَّ.. بل ربما يبلغ بى الشطط إذ أخفى علىَّ كثيرًا من جوانب حياتـه، أن أشبهه بهيـراقليطس، إذ أنـه رجل غـامض إلـى حدٍ كبيـر، ربما أخفى وراء ابتسامته اللطيفة التي لا تفارق وجهه أبدًا الكثير من مطويـات الـنفس، تلـك التـي يخفيهـا ولا يبـديها، إذ ربمـا أراد ألا يُطلـع عليها أحدًا.

ولعلك يا صديقي لا تُصدق أن هذا الرجل الغامض يريد أن يستقل بذاته، يريد ألا يقتحم أحد ذاته.. ولكنه فى ذات الحين ودود للغاية مع محدثه.. لطيف إلى أبعد حد.. قريب إلى أقرب حدَّ.. أقصد بالقُرب هنا اللطف والصفاء اللذان لا يخطئهما عاقل، فإذا سألته عن شيء فى حياته ربما أخبرك وهو يضحك ضحكة صافية، ولكنـه فـى الغالـب قد يخبرك بجانـب واحـد مـن الواقعـة، ولكنـه أخفـى كثيـرًا مـن جوانبهـا الأخرى.

يُصدقني فى هذا التحليل أن خطابًا غراميًا من إحدى فتيات الكلية قد وقع في يدى بالقدر الإلهي البحت، قرأت الخطاب، وجدت فيه هيامًا من كاتبته، غرامًا صريحًا، تلعثمت كتابتها كما تلعثم نطقها، وكأنها تتحدث أمامه وجهًا لوجه، ثم هي تتصبب عرقًا وخجلاً، ثم هي تتوسل إليه بعد كل سطرٍ من خطابها ألا يسيء فهمها وألا يُسقطها من نظره لأنها تحبه حبًا شديدًا وتُقدر فيه الذكاء والحكمة..

قرأت هذا الخطاب الذى يزيد عن خمس ورقات من القطع الكبير حتى أعثر على أي معنى غير هذين المعنيين دون أن أهتدى إلى ذلك سبيلاً، حاولت جاهدًا أن أعرف تلك الشخصية التي صرَّحت بمشاعرها لهذا القلب المتجمد ولكن دون جدوى، فهي لم تزد في توقيعها عن الاسم الأول: هالة.

أذكر ذاك اليوم جيدًا، وأذكر هذا السؤال جيدًا.

أما اليوم فكان يوم إثنين، وغالبًا ما كنت أزوره فى الإثنين الأخير من كل شهر عربي في فيلاه بالسادس من أكتوبر.. هكذا وطنت نفسي، إذ أن طول المسافة بيني وبينه كان يمثل مشقة وعبئًا كبيرًا لم أكن لأتحملهما خاصة فى برد الشتاء القارص..

كنت أجالسه في حديقة منزله.. نتحدث حول مستقبل الوحدة العربية، رأيت على وجهه ندبات القلق، تلك التي أعرفها فيه جيدًا، فالحق أنه كله كان واضحًا لي.. أفهمه دون أن يتحدث، أستقرئ ما يجول بصدره قبل أن ينطق به، أتنبأ بردة فعله في أي موقف قبل وقوعها. هكذا كنت، بلا مبالغة.

لم تكن العلاقة بيني وبين صاحبنا مجرد علاقة تلميذ بأستاذه، كما لم تكن علاقته بي علاقة أستاذ بتلميذه.. كان الأمر أعمق من ذلك بكثير، فكنت في وقتٍ من الأوقات أقرب إليه من نفسه.. وكان فى ذاك الحين أقرب إلىَّ من حبل الوريد.. كان الصديق، والأستاذ، والأب، والأخ.. كان كل شيء في آنٍ واحد، نتحدث سويًا ثلاث مرات وربما أكثر.. كنت أبوح له بكل شيء، والحقيقة أنه كان يعلم كل شيء عنى قبل أن أحدثه.. ربما هو حدس الأب المشغول بابنه.. وربما هي فطرة المؤمن الذى يرى بنور الله، وربما الاثنين معًا..

كنت أنا الوحيد من بين تلاميذه المسموح له بالدخول إلى بيته، سواء حين كان يقطن مدينة نصر، أو حين انتقل إلى أكتوبر..

بل أحسب أنني أول إنسان دخلت فيلا أكتوبر، أول إنسان بصدق، قبله هو ذاته، إذ كنت أرافق من ينقلون الأثاث إلى الفيلا العتيقة، تلك التي سارت المكان الأحبَّ إلى قلبي..

كانت تمر بي الأزمات، فيضيق صدري، فأسافر إليه يومًا أو يومين، وربما بعض يومٍ، ثم أعود منشرح الصدر، فيضحك أبى، ويضحك أولادي، فإذا ما ضاق صدري مرة أخرى، ضحكوا جميعًا وقالوا لى: "يبدو أنك تريد السفر إلى أكتوبر".. لقد عرفوا أن هناك سعادتي.. وأن هناك راحة نفسى التي تساكنني، وأن هناك انشراح صدري فلا يضيق أبدًا.

أوضح لك ذلك كله يا صديقي لأبين لك كم درجة القرب بيننا، ومع ذلك حين سألته عن صاحبة الخطاب الذى يفيض عاطفة من تكون، تغيرَّ وجهه خجلاً، وقاطعني بابتسامته التي ما فارقته قط "وأنت مالك" يا الله.. أنا بحق الشخص الوحيد الذى يتحدث إليه صاحبنا.. أنا البئر الوحيد الذى يلقى فيه أسراره، لكن هنا، وهنا بالتحديد لن يتحدث.. إذ هناك مطويات فى أعماق النفس، لن يبح بها الرجل ولو همسًا بين نفسه وذاته.

كانت تلك من علائم الوحدة، وحدة الذات، انصرافه عن الجميع وائتناسه بذاته فقط.. وكم من دلائل وشواهد زاحمتني في هذه الناحية، ذكرها لن يقدم أو يؤخر فى نسج طبيعة هذه الشخصية، يكفيك يا صديقي أن تعلم أن صاحبنا كان يقضى وقته فى المكتبة، مكتبة الكلية، يقرأ لزكى نجيب محمود وليوتولستوى، ذكر لى أنه كان مشغولاً بقراءة مشروع الجابرى ومالك بن نبي.. ثم انحرف ناحية الاهتمامات الأدبية، فطه حسين هو معجزة الشرق فى نظره، والعقاد صاحب عبقرية فريدة، لقد كانت القراءة حياة، حتى كتب ذات مرة مقالاً لجريدة الأهرام يحمل عنوان "ولكم في القراءة حياة".. فهو وحيد فى مثاله، وحيد فى ذاته، ووحيد اجتماعيًا، إذ ليس له أصدقاء إلا القليلون.. الشيء الوحيد الذى لم ينأى عنه أو ينزوى هو القراءة، والصاحب الوحيد الذى لم يفارقه طيلة حياته هو الكتاب، فهو من هذه الناحية، ومن هذه الناحية وحدها لم يكن وحدويَّ الذات، بل كان ذاتًا فى ذواتٍ متعددة.

(٧)

تمرد صبىَّ

لم يكن صاحبنا على حبه للعزلة ووحدة ذاته بالشخص الطيَّع الذى يقبل الأوامر وينفذها بلا مناقشة، أو بلا تردد، بل كان على النقيض تمامًا من ذلك، كان عنيدًا إلى أقصى درجة، ليس العناد المرضىَّ أو عناد حب الظهور أو انفصام الشخصية أو العناد لأجل العناد ليس إلا.. ولكنه العناد الأقرب للتحدى، والأقرب للعقلانية، والأقرب لمخاطبة عقل الصبى..

ظل هذا النوع من العناد مرافقًا له منذ الصبا وحتى أرذل العمر.

لعلك عرفت يا صديقى أن مولد صاحبنا كان فى آخر سبتمبر للعام ١٩٥٣م أي بعد الثورة بعامٍ واحد أو يزيد قليلاً، وحين بلغ الصبي عامه السادس كانت الثورة قد شقت طريق النور بأن جعلت التعليم إلزاميًا.. وأراد الصبى أن يلتحق بالمدرسة، لماذا؟

هو لا يدرى، غير أن هاجسًا داخليًا يسوقه نحو المدرسة ويدفع به نحو التعليم دفعًا، فى ذات الوقت الذى كان هو السند الوحيد لأبيه فى الحقل، إذ هو الابن الأكبر.. ربما كان حرصه على التعليم للفرار من أعمال الحقل.. وربما كان تشرفًا للمستقبل الذى لم يكن سوى غيب الغيب فى مطويات القدر بعد. وربما كانت حماسة أمه وشغفها بابنها آنذاك هو الدافع للصبى نحو التعلُم، ومع حرص أمه على انتهاجه سُبُل التعليم إلا أنها كانت دائمة التهديد له: "إما التفوق في الدراسة، وإما الساقية والحمار".

وما أدراك ما الساقية وما الحمار فى نفوس الصبية من أبناء الفلاحين.. إنهما بمثابة التعذيب الإلزامي، فهما يكفيان لوأد الحركة بالجسم طيلة الليل، إذ هما يُضنيان الأقوياء وأصحاب الفتوة طيلة النهار، فكيف بالصبية الصغار.

كان هذا هو التحدي الأول فى حياة الصبي، التحدى الذى يُظهر شخصيته العنيدة تلك؛ إذ ليس أمامه من نافذة للنور سوى الدراسة، والدراسة وحدها.. بل ليس أمامه سوى التفوق، التفوق فقط..

قصَّ علىَّ من نبأ مدرس الرياضيات ومدرس اللغة الإنجليزية فى المرحلة الابتدائية.. كان الأول منهما لديه من عوامل النقص ما يكفى لهدم جيل بأكمله، إذ كان متسلطًا إلى أقصى حدود التسلُط، يسأل الطلاب، ثم يقوم بضرب الجميع بعصاه الغليظة التى قطعها خصيصًا من شجرة التوت التى تميل بأغصانها وأوراقها على سور المدرسة الذى يكاد أن ينقض، من أجاب أسئلته ومن لم يُجب، الكل سواء فى العقوبة وإن لم يكون سواءً فى التفاعل مع شخصه المريض داخل الفصل الدراسي.

عرف صاحبنا طبع هذا المعلم ونفسه التى تروم دومًا إلى تعذيب الآخرين، إنه يعانى السادية، وربما المازوخية، وربما يعانى منهما معًا، فصنع الصبي كهفًا يعزله عن العالم..

ولربما كان هذا المعلم وأقرانه فى السوء سببًا رئيسًا من أسباب وحدة الصبى وعزلته، تلك الوحدة التى ما فارقته منذ صغره، حتى وهو يتحدث للإذاعة أو أمام الكاميرات أو فى الندوات والمؤتمرات التى يحضرها مثقفون بالآلاف.

تجد هذا الكهف يُزال لمدة قصيرة، هى مدة ظهوره أمام الكاميرات أو حديثه للإذاعة أو مدة محاضرته التثقيفية، ثم سرعان ما يعود إلى كهفه مسرعًا، لا يريد أن يتحدث إلى أحد، ولا أن يُحدثه أحد.

كان الصبى يتوجس فى نفسه من هذا المعلم.. والحق أنه كان يتوجس من هذا النمط السيء عبر حياته كلها.. فهو رجل حنون يحب الحنونين العطوفين، ويبغض المتسلطين والمتغطرسين والمتكبرين.

يدخل الصبى كهفه الخاص به، والذى يكاد يعزله عن العالم، أثناء دخول هذا المعلم، وقبل أن يطلب من التلاميذ الوقوف لنيل حظهم من العقاب غير المستحق كان الصبى أول المبادرين بالقيام وفتح يديه.. دون أدنى مبالاة..

وكأنه يريد أن يوصل رسالة إلى هذا المتجبر مفادها: "اصنع ما شئت فلا أبالى بك ولا بعقابك".

معلم بهذه الشخصية التسلطية، الشخصية التى تُعانى نقصًا حادًا فى مبانى القيم وأسس الأخلاق المعاملاتية كفيل بهدم كل من يُدرس لهم، وقد يطال تدميره النفسي أولئك الطلاب الذين يسمعون عنه فضلاً عن أولئك الذين درَّس لهم، فالسيرة السيئة التى تحمل التسلط والتجبر كفيلة وحدها بهدم كل إبداع.. فضلاً عن هدم كل ذات، وكل نفس.

وكم امتلأت مؤسساتنا التعليمية منذ الثورة فى ١٩٥٢م وحتى اليوم بهذه النماذج القميئة، النماذج التى تهدم الأجيال بحجة تربيتها، تضيَّع الأجيال وتُزهق نفوسهم وتذهب بكل طموحاتهم أدراج الرياح بحجة أنهم يُعلمونهم..

وما يصلح العلم أبدًا بمثل هذه النماذج، ولا بأمثال تلك الشخصيات الهشة، غير المتزنة نفسيًا.. ولعل أثر هذا المعلم لازال راسخًا فى نفس صاحبنا إذ سار أستاذًا لكرسى الفلسفة بالجامعة الأم بعد ردحٍ من الزمن من تلك الأحداث والوقائع، وإذ سار ديموقراطيًا مع طلابه إلى الحد الذي يعتبره الكثيرون منهم صديقًا لهم لا أستاذًا..

أما الثانى فكان معلم اللغة الإنجليزية، كان يسأل الطلاب سؤالاً، فيتنافسون على رفع أيديهم للمشاركة بالجواب إلا صاحبنا، كان يعيش فى كهفه منعزلاً كما هو، فأراد هذا المعلم أن يضم صاحبنا إلى مجتمع زملائه ويشركه معهم، فطلب منه الإجابة فأجاب.. ومرة أخرى وثالثة وعاشرة، يتعمد هذا المعلم أن يوجه لصاحبنا الأسئلة فيجيب عليها أعظم ما تكون الإجابة، فانتبه الرجل إلى أن هذا الطالب متفوق لكنه يعانى شيئًا من الوحدة، من العزلة؛ ربما لا يعلم أسبابها، لكنه اقتنع تمام القناعة بأن هذا الطالب متفوق، لكن ربما لظروف معينة يؤثر ألا يُشرك نفسه مع القطيع.

فأصبح يعامله معاملة حسنة تليق بالمتفوقين، ثم هو ينبه بقية المعلمين إلى طبيعة هذا الصبى قائلاً: " هو متفوق جدًا لكنه فى حاله".

والمقارنة بين الرجلين مؤلمة، وفارقة أيضًا.. معلم الرياضيات المتسلط الذى بغَّض الرياضيات إلى قلوب طلابه بتصرفاته الطائشة، حتى المتفوقين منهم أبغضوها بُغضًا لمُعلمها..

ومعلم اللغة الإنجليزية الذى يهتم بطلابه ويحرص على الارتقاء بهم جميعًا، ويحاول جاهدًا إشراكهم جميعًا فى التفاعل معه.

هذا نموذج، وذاك نموذج مغاير تمامًا.

الأول يهدم أمة بأسرها.. والثانى يبنى أمة بأسرها.

الشيء الوحيد المشترك فى الموقفين هو الصبى ذاته.. إذ لازال محتفظًا بتمرده وعزة نفسه مع كلا الرجلين، رغم كونهما نقيضين..

فعزة نفسه وتمرده على كل شيء هو ما جعله يفتح يديه لمعلم الرياضيات دون أدنى مبالاة، وما يعبر هذا عن شيء غير التمرد.

وعدم انخراطه مع معلم اللغة الإنجليزية رغم معاملته الحسنة له، إذ آثر الصبى كهفه على جنة المعلم، لا يدل على شيء غير التمرد أيضًا.

هو إذن متمرد على كل شيء، على ما لا يعجبه.. ومحتفظ بكرامته وإباء نفسه وعزلته أمام ما يعجبه.. وفى هذا وذاك يكمن سر تلك الشخصية..

إنـه لا يـزال يـذكر تمـرده علـى مـدير المدرسـة الإعداديـة، ذاك التمـرد الذي لا يعطيك إلا صورة عن كمال الشخصية، عن غيب يحمل فى طياتـه كسوة المفكرين لهذا الصبى.. ولندعك وحدك ياصديقي تقدر الموقف..

السماء ترعد وتبرق فى شتاء ١٩٦٥م.. والصبى يقطع المسافة ذات الثمانية كيلو مترات من قريته إلى طنطا، حيث المدرسة الإعدادية.. وانهالت السماء على الأرض مطراً كأن غيث السنين كلها ينزل دفعةً واحدة، يمشى الصبى تارة، ثم تنزلق قدماه تارة أخرى، المطر يعلوه من فوقه، والطين يتربص به الدوائر من تحته، والوقت يُسرع الخطى، وموعد دخول المدرسة يتقلص شيئًا فشيئًا..

ويصل الصبى إلى المدرسة وقد علاه طين الأرض وأمسك بخفيه ولم تسلم ثيابه من أثر الطين والبلل.. فوقف أمام المدرسة لينظف خفيه وثيابه وحقيبته الصغيرة التى صنعتها له جارةٌ لهم تُدعى (طنط تفيدة) من قماش متبقى من أثواب الزبائن.. فتبدو الحقيبة متنوعة الشكل، تعطيك جمالاً فى اللون لا يخلو من يقين فى بساطة هذا الطالب، ورقة حال أسرته.

وفور انتهاء الطالب من أعمال التنظيف لثيابه وحقيبته يدلف مسرعًا إلى بوابة المدرسة، تلك التي يقف ناظرها الاستاذ خليفة الصعيدى على مقدمتها ليعاقب الطلاب المتأخرين، ويدخل الصبي مسرعًا ليجد عصا الناظر ترتفع فى الهواء لتسقط على قدميه، فأمسك بالعصا من يديه، وصرخ في وجهه بغضب "لا تضربنى".. فتعجب الناظر، وقال متسائلاً: "مالك يا بنى.. ألست متأخرًا .. إذن لابد أن تُضرب كبقية زملائك". ولكن الصبى فاجأه بالقول: "أنا سرت ثمانية كيلو على قدميَّ.. أنا من شوبر كنت أمشى والسماء تمطر، وقدماى تتزحلقان على الطين.. ثم وقفت أمام المدرسة لأنظف حقيبتي وخفىَّ وثيابي، فهل أنا مخطئ"..

لا أخفيك سرًا يا صديقي أنني بكيت مرتين في هذا المشهد.. مرة حين سمعته من فمه، ومرة حين أكتبه الآن إذ أقص عليك من أنباء ما قد جرى.. ربما لأنى أحمل عاطفة تجاه صاحبنا، ولكن المؤكد أن هذا الموقف ينبئ عن شخصية رفيعة المستوى الفكري.. تعانى اجتماعيًا وماديًا.

رفيعة المستوى الفكري إذ تسوق الحجة والدليل بالمنطق والبرهان غير المصحوبين بالعاطفة، وتعانى اجتماعيًا إذ يأتي من الريف ليتعلم في المدينة.. وإذ وضع نفسه في كهف من العزلة أجهدت نفسى كثيرًا في معرفة أسبابه دون أن أفلح السبيل.. وتعانى ماديًا إذ ليست أسرته من الأسر الميسورة بحال.. من أولئك الذين يملكون الأفدنة أو حتى العزوة.. بل كان أبوه وحيدًا لأبيه (جد الصبى).. ولم يكن يمتلك غير أرض قليلة للغاية لا تتجاوز الفدانين، ثم أحسنت إليهم الثورة فى حربها ضد الإقطاعيين فمنحتهم بضعة قراريط أخرى لا تبلغ النصف فدان.

وفوق هذا كله، فإن الصبى لا يعبأ بكل ذلك.. هو راضٍ على كل حال، وربما لو كان من طبقة الأثرياء لما تغيرَّت شخصيته.. ولما تغير هدفه منذ الصبا.. الكتابة، ولا شيء غير الكتابة.

ولعله اختار الكتابة لموهبته التي كان يعرفها في نفسه، وربما ليغير بها من حال مجتمعه البئيس، وربما لكلا السببين...

لعلك الآن تريد أن تعرف رد فعل الناظر إذ رفض الصبى أن يضربه، إذ أخذنا الحديث إلى حزنى على الصبى فى هذا الموقف!!

لقد احتضنه الناظر.. ثم دخل به إلى طابور المدرسة، ثم وقف ليخطب فى الطلاب عن نظافة هذا الطالب وقدر حرصه على النظام وقدر جديته وعنائه، فى حين أن الطلاب الذين يجاورن المدرسة لا يأتون بثياب نظيفة، ولا يستيقظون مبكرًا لدراستهم، وأوجعت مقارنته تلك وحديثه ذاك كثيرًا من الطلاب الذين فهموا ما قال.. أو أظهروا فهمهم لما قيل.. ليزداد الصبي أحقادًا إلى أحقاد، تلك التي ما فارقته أبدًا؛ طالبًا أو أستاذًا أو حتى فيلسوفًا..

وما نسي الصبى هذا الموقف للناظر.. إذ تمر أيام المرحلة الإعدادية، ثم يلتحق الصبى بالمرحلة الثانوية، وعليه أن يختر إحدى المدرستين، إما الأحمدية الثانوية أو طنطا الثانوية بنين، ولكن ناظر المدرسة الإعدادية الذى ترك أثره في أعماق الصبى كان قد انتُدب لمدرسة الأقباط الثانوية، فقرر الصبى أن يسير خلف أستاذه، فالتحق بالأقباط الثانوية، ليعطينا صورة جديدة من صور التمرد، وليزيد الحيرة في عقول الباحثين عن شخصيته...

وفى الجامعة تكتمل صورة التمرد تلك، لعلي أختصرها لك فى مشاهدٍ ثلاثة.

كـان الصـبى لـه حـدب ومثـابرة عجيبـة علـى الدراسـة وعلـى ممارسـة النشـاط الطـلابـي كعضـو دائم فـى لجنـة النشـاط السياسـي والثقافى فـي اتحـاد الطـلاب، ولـذلك لـم يكـن يفكـر فـى شـيء مـن أمـر الدراسـة إلا الحصول على تقدير جيد كى يضمن مقعده بالمدينة الجامعية فقط لا أكثر، لكنـه وجد نفسه فـى الفلسفة، ووجد الفلسفة فـى نفسـه، ثم تسلل حب التفوق إلـى أعماقـه، إذ وجـد أن كثيـرًا مـن الإنـاث يتفوقـون علـى دفعتـه، لـم يكـن مـا يشـغله وجـود متفـوقين، ولكـن القضـية الشـاغلة لـه بعمق أنهن كلهن إنـاث، فأين الذكور من هذا الأمر، إنـه يأخذها من بـاب العيب لا من بـاب المستقبل، فالعيب كل العيب في ذاكرة أبنـاء الريف أن تتفوق الأنثى على الذكر...

وازداد هـذا الهـاجس نمـوًا بداخلـه فـى الفرقـة الرابعـة، إذ أُعلنـت نتيجـة الفرقـة الثالثـة، وكـان هـو خـارج الترتيـب، إذ تنقصـه درجـة واحـدة عـن تقدير جيد جدًا، فى حين كـان هنـاك أربعـة عشر بنتًا من زميلاتـه قد حصلن على تقدير جيد جدًا..

وشاء القدر أن يدخل صاحبنا قاعة المحاضرات، إذ كانت المحاضرة للدكتور يحى هويدى وهو من هو فى هيبته وقوة تأثيره على طلابه، وقبل بدء المحاضرة، وجد هؤلاء المتفوقات فى وجهه، فالتفت خلفه، ثم أغلق باب المدرج، ثم صرخ فى وجوههن ووجوه كل زملائه متمردًا وناقمًا: "إن شاء الله لازم أطلع الأول عليكم هذا العام، أليس فى هذه الدفعة رجل؟!"..

أقسم لك يا عزيزى أننى كنت أنفجر ضحكًا وهو يقص علىَّ من هذا النبأ، ولا أخفيك سرًا أننى متشكك فى هذه الواقعة، شكًا لا ينفيها، ولكنه شك التعجب..

ولعل شكي له ما يبرره، فلعلك تعرف شدة خجل صاحبنا، وتعرف تلك الوحدة الضارية التى استبدت به والتى قد تتناقض مع كونه كان من أكثر المشاركين فى الأنشطة الطلابية بما فيها من اجتماعات للجان النوعية ولمجلس الاتحاد ومافيها من ندوات كان كثيرا مايكون هو منظمها باعتباره عضوا ثم أمينا للجنة الثقافية، ومن رحلات تنظمها لجنتى الرحلات والأسر الطلابية، ومايتم خلالها من

معسكرات تدريبية خارجية كان يشترك فيها الطلاب والطالبات من منتسبي عشيرة الجوالة والمرشدات!

هذا ما قصصت عليك طرفًا من نبئه، وبعد حين يسير سأقص عليك من نبأ غرامياته الفاشلة، وحياته العاطفية غير العاطفية بالمرة.. إنه يا صديقى فاشل بامتياز فى هذه الجوانب وما يرنو إليها، فكيف به يغلق الباب على طلاب أكثرهم إناث، ثم يصرخ في وجههم بهذه الطريقة، ربما كان دافع نقمته على الواقع أقوى من دافع تقوقعه فى ذاته.. ربما!!

وربما استيقظ فيه شيء من شغف أمه ودأبها على التفوق دائمًا، فمثّل له صراعًا داخليًا ترجمه صاحبنا فى تلك الصرخة، وهذه الكلمات.. وهذا هو الأقرب للصواب فى ظنى، لأنه ما كان ليصرخ من تلقاء نفسه وهو الهادئ بطبعه طيلة عمره، وما كان ليتحدث إلى إناث وهو الخجول بطبعه.. ثم ما كان ليدخل فى تحدٍ مع أحد وهو المسالم إلى أبعد حد.. لديه سلامٌ داخلى يعيش فى أعماقه، يفرض عليه سلامًا مع العالم.. وسلامًا مع الذات.. وسلاماً مع الطبيعة.. وسلامًا مع الحياة.

هذا المشهد لا يمكننى أن أفهمه إلا من خلال طبيعته المتمردة، تلك التى أعرفها جيدًا، والتى لا تنفصل أبدًا عن طبيعته الخجولة، ولا عن طبيعته الهادئة، ولا عن طبيعته وحدوية الذات.. بل تلك الطبائع كلها تُشكل نفسًا واحدة.

ولا يختلف الموقف الثانى في النوع ولا في درجة التمرد عن ذاك الموقف الأول، إذ بعد حصول صاحبنا على تقدير ممتاز فى الليسانس صدر قرارًا بتعيينه معيدًا بقسم الفلسفة جامعة القاهرة، فى ذات الوقت الذى لم يستطع استلام عمله بسبب التقرير الأمنى الذى تأخر كثيرًا، ولولا تدخل أساتذته يحيى هويدى ومحمد مهران لما استطاع الحصول على الموافقة الأمنية.

فى هذه الأثناء كان عليه أن يؤدى واجب الخدمة العسكرية، فقرر فى نفسه أن يلتحق بالسنة التمهيدية للماجستير فى ذات السنة التى يؤدى فيها الخدمة العسكرية حتى لا تضيع من عمره سنة يحسبها هباءً منثورًا ..

فكان يخدم في الجيش في سلاح الإشارة، فيجلس يتلقى الاتصالات من فرق الجيش وقادته، فى ذات الآن الذى يُمسك فيه بكتبه ليقرأ ويستذكر دروسه، حتى أتى موعد امتحان آخر العالم، فحصل على إجازة من قائد كتيبته مدة الامتحانات فقط، ونزل من معسكره إلى الكلية مباشرة فى أول أيام امتحانات السنة التمهيدية؛ وكان معه فى ذات السنة زميلٌ له يدعوه زملاؤه بعبقرى الدفعة، شعره طويل، لحيته كثة، يرتدى ثيابًا ممزقة، وحذاءً طويلاً ممتدة رقبته، بينه وبين الجنون خطوة واحدة، بل إن منظره يوحى بالجنون لدى من لا يعرفه.

استقبل هذا العبقري صاحبنا بتقليب البصر فيه، ثم السخرية منه، ثم وجه إليه السؤال فى تعجب، أو ربما التعجب في شكل سؤال "أتظن أنك إذ أتيت بالزي العسكري أنك ستنجح.. اذهب إلى بيتك أشرف لك، لأن إبراهيم بيومى مدكور يرّسب الجميع فى مادته". لم يُعره صاحبنا اهتمامًا، بل لعله يرثى فى داخله لمنظر هذا العبقرى الذى كاد أن يقترب من الجنون، ولكنه لم يهتم لهذا التهديد فقال بصوته الهادئ وابتسامته التى لا تفارقه "دعنا نُجرب"..

ولكن العبقريَّ المشوب بالجنون لم يتركه، بل ظل يرسل على صاحبنا سيلاً من التهكم والسخرية، محاولاً إرسال اليأس إلى روحه دون أن يعبأ الرجل لأي من ذلك..

كان شيئًا بداخله يُحركه نحو هدفه، يفرض عليه ألا يستمع إلى هذا وأشباهه، إنه التمرد وحده يا صديقى، التمرد الذى يحركه من الداخل، فيفرض عليه تحديًا صامتًا، تحديًا بداخله هو، ربما لا يراه أحد، ولا يعلم عنه أحد شيئًا، لكن آثاره تبقى، وآثاره وحدها تبدو للعيان.

يدل على ذلك أن صاحبنا دخل الامتحان وحصل على تقدير ممتاز أيضًا.. وما طاله من أذى إبراهيم بيومى مدكور شيئًا، فكيف لو استجاب لصاحب تلك العبقرية التى هي أقرب إلى الجنون أو تكاد..؟!

وما أن انتهت امتحانات السنة التمهيدية حتى انتهت على إثرها، أو ربما بعدها بقليل، سنة الخدمة العسكرية، واستلم صاحبنا عمله كمعيد بكلية الآداب بالجامعة الأم في الوطن العربي، وعندها انقطعت علاقته بالقرية انقطاعًا شبه تام، إذ لم تعُد القرية موطنًا له سوى في الأعياد والمناسبات فقط.

ولم تغير منه الوظيفة المرموقة شيئًا.. فلا يزال هو الباسم الهادئ، لا يزال هو المتمرد الثائر الذى حبس ثورته داخل نفسه فى أحيانٍ كثيرة، ثم فى أحيانٍ أقل تهزمه الثورة فتخرج للعلن، فلا يستطيع التحكم فيها، وتلك هى شخصيته التى لازمته منذ الطفولة وحتى اليوم، دون أن تتغير قدر مثقال الذرة.

كان رئيس قسم الفلسفة فى أول تعيين صاحبنا كمعيد شخصية كبيرة الاسم .. يكفى أن يقال اسم أميرة حلمى مطر.. فما من أحدٍ درس الفلسفة دون أن يقرأ كتابيها الأشهر، تاريخ الفلسفة اليونانية، والفلسفة السياسية، وهى شخصية أرستوقراطية إلى حدٍ بعيد، ليبرالية حتى النخاع، تعتز بأنها متحررة الفكر، وهذا له ميزات إلا أن مساوئه لا تخفى.

ووقع الاختيار على صاحبنا ليرافق هذه الأستاذة الكبيرة فى التخصص، إذ أنه سيتخصص فى الفلسفة اليونانية، ومن ثمَّ سار ملازمًا لها فى العمل، يعرض عليها أطروحاته واقتراحاته، ويبث لها شيئًا مما فى نفسه، من موضوعات العلم فقط، لأن ما يجول بنفسه

عن حياته لا يبثه لأحد ولو لذاته إلا فيما ندُر.. وكانت تقابل هذه الاقتراحات مرة بالشكر، وأخرى بالنقد، وثالثة بالتوبيخ.

وذات مرة دفع التمرد صاحبنا إلى الصدام مع أستاذته وكان حينئذ يقوم – رغم صغر سنه وقلة حيلته بين أساتذته الكبار – بعمل سكرتارية القسم، إذ أراد أن يُعدل لائحة القسم ليُدخل مادة الفكر الشرقي ضمن المواد الأساسية التي تُدرس في قسم الفلسفة.

ويا له من اقتراح.. ويا له من يوم..

لعله لم ينس أثر ذاك المقترح. إذ باتت مادة الفكر الشرقي مادة أساسية في لوائح أقسام الفلسفة عبر طول الجمهورية وعرضها.. وربما عبر شرق الوطن العربي وغربه..

ويا له من يوم، إذ قوبل بالسب والشتم والتوبيخ والطرد من مكتب رئيس القسم..

ويا له من موقف، إذ أنه تم وصاحبنا لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره!!

لك أن تتخيل يا صديقى أن قسمًا يضم بين جنباته عثمان أمين وأبا الوفا التفتازانى وزكى نجيب محمود وحسن حنفي ومحمد مهران وأميرة حلمي مطر، وهؤلاء كلهم أساتذة، ثم يأتي الفتى في مقتبل الشباب وأواخر الصبا يقدم مقترحًا لا برحلة ترفيهية كما هي اهتمامات المعيدين من زملائه دومًا، ولكن بتعديل اللائحة التدريسية ككل وإدخال مادة جديدة تمامًا تُدرَّس لأول مرة فى قسم الفلسفة بجامعة القاهرة.

هذا الموقف لا يعطيك سوى معنيين اثنين، الأول أن تمرد الصبى الصغير الذى بدا واضحًا فى المرحلة الابتدائية أمام معلم الرياضيات ثم فى المرحلة الإعدادية أمام ناظر المدرسة ثم فى المرحلة الثانوية على صاحب البيت الذى استأجر فيه حجرة يذاكر فيها، لا يزال هو بعينه بعد نضج فى العقل وتقدم فى السن دون أن يتغير قط، لا يزال تمرد الابتدائية هو بعينه التمرد أمام رئيس قسم الفلسفة، ليس بأي جامعة، ولكنها جامعة القاهرة، وليس أي أستاذ، ولكنها أميرة حلمي مطر..

وكأن هذا الصبى ألة مبرمجة لا لحم ودم من شأنه أن يتغير بتغير عوامل الزمن.. بل ظلت شخصيته ملازمة له دون أدنى تغيير، لدرجة يمكنك الحكم على أي المواقف تلك التى يفعلها وتلك التى لا يمكنه القيام بها، وأي الكلام ذاك الذى يمكن أن يقوله وذاك الذى ينتفى لديه قوله دون أدنى مشقة، ودون عناءٍ فى التفكير..

أما المعنى الثاني الذى يرسخ له هذا الموقف فهو عشقه للشرق، ورؤيته لريادة الشرق، وأن ريادة الغرب ليست إلا حينًا من الدهر لا أكثر، صيتًا لا غير، شكل خالي من كل مضمون، عرض لا جوهر فيه، بل الغرب لم يكن إلا متغطرسًا مستبدًا، والشرق لم يكن سوى صاحب حضارة خالدة..

الغرب لا يمتلك إلا المادة عبر التقدم العلمي.. في حين أن الشرق يمتلك كل المقومات مادية وروحية.. التقدم الغربي وهم.. ووهم الوهم، في حين أن التقدم الشرقي بات قاب قوسين أو أدنى، فقط إذا توافرت للتقدم دعائمه، وأول تلك الدعائم توافر الإرادة السياسية.

(٨)

مستر روبير

إبان حكم الرئيس السادات دخلت مصر في انفتاح اقتصادي شمل كل شيء، وبدأت البعثات التعليمية تزدهر من جديد، وبدا تطلُع القيادة السياسية إلى صناعة نهضة حقيقية، كان من أحد أبرز أوجهها سفر الطلاب إلى أوروبا ليكتسبوا الخبرات الاقتصادية والعلمية والحياتية، وقدمت الدولة تسهيلات كثيرة في هذا الشأن، وكان أصدقاء الفتى قد سافروا مرة واحدة وهم في الإجازة الصيفية التي تفصل بين إتمام الفرقة الثانية وبدء الثالثة..

وفاتحوا صاحبنا في هذا الأمر، ولست أدرى كيف أنه وافق بلا تردد، بل سعى كل سعيه لإقناع والده، وهو ما لا يثير لدىَّ أىَّ توجُس، فكفى بالظروف المادية التى نشأ فيها الفتى باعثًا للبحث عن مصدرٍ جديدٍ للدخل والمساعدة لأسرته، خاصة أن زملاءه من أصحاب التجربة ذاتها أقنعوه بأن السفر ميسور، وأن العمل فى أوروبا مضمون، وأن الأمر لن يتجاوز فى غربته الشهرين، ثم يعودون وقد

اكتسبوا مـالاً، واكتسبوا خبـرة حياتيـة، فـى ذات الآن الـذى يـرون فيـه أوروبـا المتطلعـة حينئذ إلـى قيـادة العـالم، بـل إن سيادة انجلترا وفرنسـا على العالم آنذاك لا يزال لها بقايا، ولا يزال لها آثار..

أوروبـا حلـم كبيـر لـدى الجميـع، أقصـد جميـع الشـباب العربـى، ولهـم الحق فى هذا التطلع وذاك الحلم، فما بالك بصاحبنا الذى يحمل فكرًا فيـه كثيـر مـن التمـرد، وقليـل مـن الرضـا عـن أحـوال وطننـا العربـى المكلوم.. إنها تجربة فريدة بحق، يريد الصبى أن يقتنصها، يريد أن يرى أوروبـا لا أن يسمع عنهـا، أن يُشبع غريزة المعرفـة بالمشاهدة لا بالسمع، فليس الخبر كالمعاينة..

بـذل كـل جهـده لإقنـاع أبيـه، ذاك الـولىَّ الـذى يصـعُب إقناعـه بطلـبٍ كهذا، إذ الصبى يمثل أنفاسه، روحه التي تمشى على الأرض.. كيان متحرك لا ينفصل عن فؤاد الأب ولو تباعدت بالصبى الديار.

وأفلـح الصـبى فـي الإقنـاع، فهـو فـي هذه الناحيـة مميـز كـل التمييـز، وموفق كل التوفيق، يسَّر الأمر على أبيه للغاية، ليس عليك يا أبتِ سـوى أن تـدفع لـي مائـة وعشـرين جنيهًـا، ثـم لا عليـك بعـدها، فأنـا

سأكفيك مؤنة نفسى فى السنة النهائية للكلية، حيث عام الليسانس، بداية البحث عن الذات، أو بداية الهروب من القاع.. أو هما معًا.

المرة الأولى فى حياة صاحبنا التى يجد فيها نفسه أمام الطائرة.. طائرة حقيقية، حيث مطار القاهرة، وحيث الصالات الكبرى، وحيث الإذاعات الداخلية التى تنطلق من هذه الصالات "على الإخوة المسافرين إلى كندا الولوج إلى الطائرة رقم كذا".. "على الإخوة المسافرين إلى سويسرا الاتجاه إلى صالة كذا"..

هكذا تنطلق الأصوات دون أن تفتُر ولو للحظات.. وصاحبنا يسمع ولا يكاد يُصدق، لقد وقع اختياره على سويسرا، أراد أن يستطلع معالمها، وهو إذ يقف فى المطار يُسائل نفسه بارتياب كبير، "أبعد ساعات سأكون فى سويسرا؟! هل حقًا سأترك القاهرة إلى أوروبا؟ هل سأزور تلك البلاد التى لم أزُرها قط سوى فى أحلام اليقظة؟"..

أسئلة تتخللها أمنيات تراود رأس الفتى، يقطعها فى لحظة الصوت الشجىّ المنطلق من السماعات الداخلية للمطار" المتجه إلى الطائرة رقم ١٤٢ مصر للطيران والمتجهة إلى جنيف يتفضل بوزن حقائبه".

كان يرافق صاحبنا فى تلك الرحلة صديقاه العتيقان، مدحت وعطية، ولكن ضابط الجوازات لم يقر جواز السفر الخاص بعطية، فطلبوا منه موقفه من التجنيد مما استدعى تأخره فى مصر لبعض الوقت، فى حين أن أوراق الفتى وصديقه مدحت مكتملة، وما هى إلا لحظات وكانت الطائرة تغرد فوق سماء القاهرة، معلنةً بدء الحُلم الكبير، ذاك الذى ظل أثره على صاحبنا حتى اليوم.

هبط الصديقان مطار جنيف.. راحا يسيران على أطراف قلوبهما، إنها التجربة الأولى لصاحبنا فى الأرض التى قرأ عنها أنها أم الحضارة، وفى الأرض التى رأى وعاين من أبنائها احتلال نصف العالم أو يزيد، وفى الأرض التى تغنى الجميع بحضارتها وانفتاحها وتقدمها.. إنها الأحلام فى رأس الفتى.. وإرادة التقييم على أرض الواقع فى مخيلته لا تفارقه.

بحث الصديقان عن فرصة للعمل.. فالعمل هو الأساس، هو الذى سيضمن لهم النفقات الضرورية من إقامة ومبيت ووجبتين للطعام يوميًا على الأقل.

كان صاحبنا يبحث عن عمل فى مكان، وصديقه مدحت يبحث فى مكانٍ آخر، ووُفق مدحت فى إيجاد فرصة عمل لنفسه فى مطعم يقدم الخنازير كطعام والكحوليات كشراب، يمتلكه رجل صهيونى اسمه مستر روبير، فى حين أن الفتى كاد أن يفقد قدميه من أثر السير بحثًا عن عمل ولا جدوى.

ضمن مدحت العمل عند مستر روبير، وهو ما يعنى ضمان المبيت والطعام والشراب له ولصاحبه، فى حين أن صاحبنا لا يفتر عن السير كل يوم منذ بزوغ الفجر حتى إقبال الليل وإدبار النهار دون أن يجد عملاً.. كان يتساءل فى نفسه تلك الأسئلة الوجودية التى ما فارقته منذ الصبى.. أين الله.. أهذا الوجود له موجد؟ أهناك تدبير وعناية إلهية كما يدَّعى المسلمون؟ كان يسمع الصدى فى ذاته يتردد من أعماقه، الله موجود، الله موجد العالم، الله هو السر الأكبر.. فى حين أنه كان يقابل ذاك الصدى الذى يعلم مصدره يقينًا بالشك من جديد، فيقول لنفسه أن الإنسان صانع نفسه، صانع ماهيته، يوجد حيث أراد، وحيث تقوم به مقوماته المادية والجسدية لا أكثر.

إذن دعنا لنرى، أي الصوتين سيغلب صاحبه، صوت الوجودية الذى يخرج من العقل، عقل الصبيَ؟! أم صوت الإيمان الذى يخرج من القلب والوجدان، قلب الصبي ووجدانه؟!

أضنى البحث الصبى ولا نتيجة، مزيد من التعب، مزيد من الوجودية، مزيد من الانهزامية، كثير من الاستسلام..

ثم في آخر اليوم يجد نفسه جثة هامدة فى حجرة صديقه مدحت، تلك التى أعطاها له مستر روبير للمبيت فيها مقابل عمله؛ وفى بعض الأوقات التى يكون فيها موسم للعمل كيوم الإجازة الرسمية مثلاً وهو يوم الأحد من كل أسبوع، كان مستر روبير يطلب من مدحت أن يأتى بصديقه ليعمل معه فى المطعم..

وكان الصبى يذهب للعمل، غير أنه يأبى أن يأكل الخنزير أو يشرب الكحول، مما كان يجعل مستر روبير مضطرًا إلى صناعة طعام له خصيصًا، ولا يقبل الفتى بأن يكون الطعام شيئًا سوى الفراخ، ولابد أن يراها قبل طبخها ويتأكد أنها فراخ وليست شيئًا آخر..

شهر كامل، يبحث صاحبنا عن عمل ولا يجد.. تحاصره الأسئلة الوجودية التى تمتلئ بها قناعاته، فى حين يدحضها بداخله إيمان عميق، لا يوجد عليه دليل أقوى من التزامه بالشريعة الإسلامية ورفضه أكل الخنزير وشرب الكحول.. فى حين أن صاحبه قد أضناه العمل، وقد ضاق بمستر روبير ذرعًا، فقرر العودة إلى مصر إذ قد اكتسب من المال ما يرضيه، فطلب من مستر روبير أن يقبل الفتى عاملاً عنده بدلاً منه، ولكن الصهيونى قابل الطلب بالرفض البات..

قرر الصاحبان العودة إلى مصر.. وكفى الله المؤمنين القتال.. فقاما بحجز تذاكر السفر، إلا أن الفتى طلب من مدحت أن يذهب للتنزه على شواطئ البحيرة الصناعية، تلك التى تتوسط العاصمة جنيف، والتى يقع على شاطئها البنوك الكبرى والمولات الضخمة والفنادق الكبرى تلك التى تستقبل دومًا الرؤساء والوزراء وعلية القوم، إنه يذهب حبًا للاستطلاع لا أكثر، سياحة لا غير، حتى إذا رجع إلى موطنه كانت تلك الزيارة في ذاكرته، وكانت ضمن حكايات كثيرة تمثل حكاياته إلى أحفاده من بعد.

إنها المرة الأولى التي يتحرر فيها الفتى من الرغبة فى العمل.. المرة الأولى التي يتنزه فيها بحق دون أن يدّر بخلده قط السؤال عن عمل أو البحث عنه، إنه سيكتشف المكان، ثم يعود للتو ليحزم حقائبه ثم يطير إلى المطار لتحمله الطائرة إلى مصر، دون أن ينوى العودة قط إلى أوروبا؛ وما يدور برأسه شيءٌ غير هذا.

ويدخل الفتى أحد الفنادق الكبرى.. قال في نفسه أنه سيجلس كسائح، ويطلب الشاي، ويضع قدمًا على قدم وهو يحتسى الشاي على ضفاف تلك البحيرة الخالدة التي تمثل المكان السياحي الأضخم فى جنيف..

يدخل الفتى إلى الفندق، تسأله مضيفة الفندق عما يريده، ارتبك صاحبنا وخشى أن يطلب شايًا فتسخر منه، وهو فى ذات الوقت غير مستعد ماديًا لطلب شيء آخر يكون أعلى كلفة من الشاى، فلم يجد أمامه حتى يتخلص من الحرج سوى أن يجيبها "أريد عملاً" .

بمحض القدر ينزل صاحب الفندق إلى حيث يقف الفتى مع المضيفة، ويسمع الكلمة فيتوجه بالسؤال إلى الفتى:

"حسنًا .. تريد عملاً، فكم تتقاضى أجرًا"، وكان أعلى أجر سمع به صاحبنا فى تلك البلاد لمن هم فى مثل ظروفه ١٥٠٠ فرانك، فنطق لسانه مسرعًا لصاحب الفندق "١٨٠٠ فرانك"، فأجابه الرجل بالقبول، ودخل الفتى العمل في المطبخ المقابل للفندق على أن يتقاضى ١٨٠٠ فرانك شهريًا.

لم تكن العبرة بإيجاد عمل بالنسبة للصبى.. إذ كان قد يئس من إيجاد فرصة، بل إنه كان قد قرر السفر إلى مصر والعودة من حيث أتى وحجز تذكرة السفر بالفعل، لكن العبرة كل العبرة باهتزاز ثقته في الوجودية، إذ لم يعُد الكون يسير عبثًا، والأحداث تجرى فطرة، والطبيعة تتحكم في العالم، بل سار كل شيء يجرى بقدر، يجرى بحكمة، هناك عناية إلهية تحكم الوجود، مدبر يُدبر الأمر، إله رحيم فوق العرش قد استوى، يُجرى كل شيء بقدر، بل لعلها المرة الأولى التى يؤمن فيها الصبى بالقدر، وربما المرة الأولى التى ترتسم فيها كلمات آي الذكر الحكيم أمام عينيه {إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ [٤٩] وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ} (القمر ٤٩-٥٠).

لم يُصدق الفتى نفسه، لم يُصدق أنه يرجع إلى حجرته الآن ليبشر مدحت بالعمل الجديد، وبالأجر الكبير.. وبعدوله عن قرار السفر، والبشرى الأجمل من تلكم البشرتين أن صاحب العمل رجل مهذب، متفاهم إلى حدٍ بعيد، سويسري الأصل، وليس صهيونيًا كمستر روبير.

تغيرت قناعات الفتى من اللاأدرية إلى اليقين.. من الإلحاد إلى الإيمان، من العدمية إلى الإله المدبر لكونه.. الإله العظيم، حقًا إله عظيم، كم أنت عظيم يا إلهى، تدبر الأمر، تفصل الآيات، تخلق بقدر، وترزق بقدر، وتمنع بقدر، فى حكمة بالغة، لا تدركها العقول، وأنىَّ لها بإدراك تلك الحكمة البالغة وقد عجزت أحيانًا كثيرة عن حل مسألة رياضية؟!

يكاد الكون لا يسع الصبى تلك الليلة، إذ للتو أصبح مؤمنًا.. للتو دخل الدين عن يقين، عن حب، عن إيمان حقيقي، إذ كانت العلاقة بينه وبين الإسلام من قبل أنه مجرد ديانة كُتبت في هويته الشخصية، ومجرد طقوس يؤديها إرضاءً لأبيه، ذاك الولىَّ السواح في أرض الله.. دون أن يتجاوز الأمر تلكم الصورتين.

عاد الصبى من عمل أول يوم بالفندق وقدماه تكادان تطيران به إلى حيث مدحت ليزف إليه البشرى، وليخبره عن عودته في عزمه السفر ومغادرة جنيف، إذ عليه أن يعمل لحاجة في نفس يعقوب.. أبرز ما في تلك النفس من حاجة أن يشترى لوالديه هدايا ثمينة، ثم يستغنى بالمال حتى لا يرهق والده بالنفقة عليه فى السنة الأخيرة من الدراسة، يريد أن يحقق نجاحًا على الأرض، يكسبه الثقة فى نظر والديه، ويمنحه الرفعة القوية لتحقيق مكاسب أخرى فى الكتابة، وربما فى الجامعة، وهذا وذاك من مطويات علم الله، تلك التى اختبأها القدر فى طوايا أسراره.

ويدخل الفتى إلى تلك الحجرة التى يسكنها مع صديقه، جلس ينتظر ولوجه، يُعد الدقائق بالساعات، يكاد لا يحتمل الصبر، حتى دخل عليه مدحت، ولكنه في تلك الليلة لم يدخل وحيدًا كما كان الحال ذى قبل، بل دخل وفى يده عطية، الصديق الثالث الذى مُنع من السفر في مطار القاهرة حتى يستكمل ورقة الموقف من الخدمة العسكرية، فما أن رآه صاحبنا حتى طار مسرورًا مرددًا آي الذكر الحكيم {لقد رأى برهان ربه} فرد عليه مدحت، "انتظر قليلاً، لم يأت البرهان بعد

ولكن البرهان أن عطية اشتغل عند مستر روبير".. فرد الفتى "لا، بل البرهان أننى عملت فى فندق كبير بمقابل ١٨٠٠ فرانك شهريًا، وسأمضى شهرى هناك"..

غمرت السعادة الأصدقاء الثلاثة، مدحت سعيد بعمل الصبى، سعيد بعمل عطية، والصبى سعيد بلقاء عطية.. سعيد بعمله في الفندق بمقابل كان بالنسبة له أضغاث أحلام.. السعادة تكسو الحجرة الصغيرة، تلك التى لم يسكنها عبر شهر كامل غير التعب والأرق والتفكير ليل نهار فى المصير، وفى المستقبل المجهول، وفى الوجود، وفى الخسارة الكبرى التى من المنتظر أن يتكبدها الصبى.. أصبح الصباح وكل واحد من الثلاثة له وجهته.. مدحت إلى المطار حيث القاهرة، حيث العشق الذى لا ينتهى.

وعطية إلى مستر روبير طالبًا العون من السماء على تحمل هذا الرجل الذى أجمع الثلاثة على أنه لا يُطاق.

والفتى إلى فندق لم يكن يحلُم بمجرد المرور من أمامه، فضلاً عن العمل بداخله.. وتقاضى هذا الأجر الكبير.

وما هى إلا أيام قليلة ويضيق عطية بمستر روبير ذرعًا، يتشاجر معه، ويترك العمل، ويطلب من صاحبنا أن يسافرا معًا إلى فرنسا حيث يحل موسم جني العنب، ليعملا هناك هذه الأيام القليلة المتبقية، ولكن صاحبنا آثر ألا يترك جنيف، وظلا معًا حتى غادراها سويًا إلى القاهرة بعد تمام شهر العمل، ليشترى الفتى ما راق له من هدايا، وليحجز له ولصديقه تذكرتيَّ سفر إلى القاهرة، ثم يطير مع صاحبه إلى القاهرة بغير طائرة ولا أجنحة، فقد كانت الطائرة هى الشوق، والأجنحة هى الحب، ذاك الشوق الذى يضنيه إلى الوطن الذى أقسم ألا يفارقه بعد اليوم، وذاك الحب الذى يكوى أضلُعه إلى أبيه، ذاك الولىَّ الذى امتلأ قلب الصبى بحبه، وباليقين من أنه كان على الصواب دومًا، وأن الله موجود، وأنه سبحانه يستحق العبادة، جدير بالثناء.. كل الثناء، جدير بالحمد.. كل الحمد، ثم الحب لوالدته ولإخوته الصغار، الحب لتراب الوطن، ذاك الذى لم يفارق خياله لحظة.

وكم لهذه الرحلة من أثر فى عقل الفتى..

ذهب بلا إيمان وعاد بالإيمان كله.. غادر الوطن بالوجودية، وعاد إلى الوطن بالإسلام، الإسلام الحق، اليقين الذى لا تعتريه الشكوك، ولا تنازعه الأباطيل..

ثم إنه غادر الوطن وفى خلده أن أوروبا بلد الحضارة فيرجع وهو يبحث عن قضية التقدم والتخلف، لماذا تقدمت أوروبا فى حين تخلفنا نحن خلف الزمن..

أوروبا بلا مقومات حقيقية للنهضة ورغم ذلك نهضت، فى حين أننا نمتلك كل مقومات الحضارة وكل دعائم النهضة ورغم ذلك تخلفنا..

ثمة سر في هذا الأمر يستوجب الدراسة ويتطلب البحث، وإنه لبحث تحفه الملائكة، ويباركه الله، ويؤيد السائرين على طريقه بحبل مداده، وبقدسية وصاله..

وظلت تلكّم الفكرتان، القدر والنهضة هما محط حياة الصبى ومحور اهتماماته.

(٩)

أقدار رحيمة

لله أقدارٌ رحيمة، تغمر الخلق في طيف سماوي لا يُقدره إلا الله، فما تحسبه منعًا قد يكون هو عين العطاء وأنت لا تدرى، وما تحسبه خيرًا قد يكمن وراءه الشر، والإنسان بين هذا وذاك لا يمتلك من أمر نفسه شيئًا، فحكمة كل شيء مردها إلى الله، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وكم لله من لطفٍ خفى، تدارك بنوره هذا الصبى، منذ طفولته فى شوبر، وحتى مراحل متأخرة من حياته، أدرك فيها كلها حين استرجاعها أن الله ملك كل شيء، المهيمن على كل شيء، القادر على كل شيء، ففوض إليه أمر كل شيء، وأصبح من المستسلمين والراضين تمامًا بكل عاديات القدر..

لم يكن صاحبنا الذى عُرف بين الجميع بصاحب البسمة الصافية إلا رجلاً رواقيًا، بل أحسبه لو تقدم به الزمن لأسس مدرسة تنافس مدرسة زينون وتتفوق عليها، فهو المستسلم دومًا للقدر، المتصالح مع السماء

على طول الخط.. لا نقم، لا حيرة، لا صخب، لا غضب.. بالغت في نفسي ذات مرة وحدثتها بأنه ولىٌ من أولئك المصطفين الذين جرى القلم باصطفائهم وطوى سره فى لوح الله المحفوظ.. وبالغت أكثر فقلت ولعله في مصاف النبيين علمًا وخلقًا وتواضعًا، وليس في ذلك شطط إذ القرآن يؤيد هذا المسلك في نصه القاطع (الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس)..

لم يستقر في يقيني سوى أن القدر يقف له بعباءة العناية، يقذف عليه من نسائم الولاية وعين الرعاية مالا تدركه الأبصار، ومالا يستطيع استساغته غير بصائر أولي النهى.. إذ تسري حياته كلها مذ عرفته ولازمته بين العفوية البشرية والمعية الإلهية التي يوليها الله من يشاء من عباده..

لا أريد أن أفرض رؤيتي على القارئ العزيز، بل لندعه يصل إلى تلك القناعات ويستخلصها بنفسه إذ أقص عليه طرفًا من ذاك النبأ.

تفوق صاحبنا بين أقرانه، لا على مستوى جامعته الكبرى، فؤاد الأول، وما أدراك ما الاسم، سواءً الحاكم أو الجامعة، بل كان تفوقه على اتساع ضفاف الوطن المترامية، إذ حصل على ليسانس الفلسفة

بتقدير ممتاز، وصدر على الفور قرارًا بتعيينه معيدًا بالجامعة العريقة، لكن عفويته وصراحته وصدقه حال بين القرار وبين الاستلام.

كانت مصر كلها في وادٍ غير الوادي.. كانت تدفع ضريبة كبرى لم يفرضها عليها أحد سوى القدر، وكم للقدر من سرٍ في ذاك الكون الفسيح، فلعل الحياة ذاتها والوجود ذاته فيضًا من عطايا ذاك القدر.

ساق الله على مصر ذاك العدو الذي حاز رجس البشرية كلها، إذ لا عدو للدين ولا للوطن غيرهم.. أرجاس الأرض وأعطابها.. قردة الأرض وخنازيرها.. فقد احتلوا جزءًا من الأرض، هو الجزء الأغلى على القلوب، أرض النبوات، خطى الأنبياء فوق رمالها.. جبل الطور حيث يتجلى الإله.. وحيث يتكلم موسى.. وحيث يخشع الجبل ويسكن لخشوعه الكون كله.. وعيون موسى التى ضربها بعصاه فانبجست اثنتا عشرة عينًا، قد علم كل أناسٍ مشربهم.. والتين والزيتون، وقسَم السماء، ومسيرة العائلة المقدسة، وأرض الرباط.. لعل القرآن اختصر تلك المزايا كلها فى آية أو بضع آية (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآَكِلِينَ).

لم يكن الاحتلال للأرض فقط، بل كان الاحتلال للكرامة.. للأخلاق.. للمروءة، وكان صاحبنا أحد هؤلاء المحتلين الممتلئين عن آخرهم بالنقمة على ذاك العدو، كان مع رفاقه النبلاء يريدون الحسم.. حسم المصير، حسم المعركة.. يستردوا بها الأرض، ويبنوا بها عنوانًا للكرامة.

خرجت الحركات الطلابية التى كان صاحبنا في القلب منها، كان دوره تنظيم المسيرات وإخراجها وتأليف الشعارات التى يرفعها الأحرار، والحق أنه كان صاحب تقدير عجيب في تلك المسائل كلها، لعل تلك الإمكانات اللدنية كانت سببًا رئيسًا في تفوقه بعد حين في علوم الإدارة، إذ كان قائدًا ناجحًا، بدءًا من الشباب، وصولاً إلى المناصب الرسمية في وطنه الذى امتزج بشرايينه، وخالط دمه وروحه.

من مدرجٍ إلى مدرج يُسرع صاحبنا الخطى وكأنه يبحث عن مفقود قرُب لقاؤه، أو بعيد صعُب مناله..ربما يجتمع النقيضان في فكره، إذ تختلط الأمور كلها حينما يخص الأمر الوطن.

هداية عجيبة من القدر الرحيم يجمع بها صاحبنا الطلاب.. يؤلف لهم الشعارات "سببان وجيهان سبب عدم دخولنا المعركة حتى الآن"..

"الحسم الحسم أو الشهادة".. هكذا دوت الأصوات لا في رحاب جامعة فؤاد وحدها، بل فوق أسطح قلوب المصريين كافة، فوق شغاف أفئدتهم، فوق أحلامهم التى لا تستقر على الأرض بقدر ما تعيش فى السماء..

وكان لهذا النشاط الأثر الأكبر في وضع صاحبنا تحت مجهر الأمن، ليقف حائلاً دون تعيينه بالجامعة، إلى أن يتدخل الراحل محمد مهران، الذى كان يعمل مدرسًا بقسم الفلسفة بالجامعة العريقة حينها، ليبحث عن أشخاص ذوي نفوذ، ويهديه القدر إلى خيارات ناجحة، تنجح تحت عناية السماء في رفع الحصار الأمني عن صاحبنا واستلامه لعمله في أول نوفمبر من العام ١٩٧٥م.

استلم الرجل العمل في الجامعة.. يا لقدر الله الرحيم.. لعلها دعوة الوالد، الرجل القطب الصوفي الذى تخشع لنوره الأنوار، وتذوب لهيبته كل هيبة، ولعلها دعوة والدته التى كانت تحمل كثيرًا من الجد والنشاط، وقليلاً من الزهد والسكينة، ثم ما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى يذهب صاحبنا لأداء الخدمة العسكرية، إذ يتدخل القدر للمرة اللامعدودة ويُلقى به في سلاح الإشارة..

وهناك، حيث الانضباط كله، والصرامة المشوبة بكثيرٍ من القسوة، والأوامر التى لا يملك إزاءها صاحبنا أدنى اعتراض، وهو ما لا يتفق مع شخصيته قط.

لم أنس أنه صاحب البسمة الهادئة، ولكنها لا تحمل الهدوء في كل الأحوال، فلعلها حينًا تُخفى سخطًا، ولعلها تخفى حزنًا، ولعلها في الغالب تخفى ثورة من واقع لا يرتضيه.

وذات مرة طلب إليه صديقه المسيحي الذى يخدم إلى جواره في سلاح الإشارة شربة ماء إذ أدركه العطش.. ونزل صاحبنا أسفل الكتيبة العسكرية ليأتي بالماء، وهو يُدل على الماء إذ يسأل أحد أصحابه بذاك السلاح، وينزل ليأتي به على عجل، ثم يرفعه ليرتشف منه رشفة أو رشفتين، لينزل الماء على أمعائه فيُقطعها تقطيعًا، فيتألم، ثم يُصرخه الألم، ثم ينقلب المعسكر رأسًا على عقب إثر صراخه.. قائد الكتيبة يهرول مسرعًا.. ضباط الصف يُسرع أحدهم خلف الآخر.. زملاؤه الجنود يبكون ويتباكون، وهو عن هؤلاء وأولئك فى شُغل بألمه، لقد حسبه ماءً باردًا فإذا به ماء النار الذي لا يُبقى ولا يذر.

حملت الأحداث الشواهد على الموت المحقق.. مدير المشفى يؤكد وقوع الموت.. بكاء الجنود والضباط يسوق إليه الشعور بدنو الأجل.. تقطيع أمعائه يسوق إليه هذا الشعور على عجل.. لكن يد القدر الرحيم تمتد للمرة التى لا أعلم لها رقمًا لتنتشله من الألم، ومن الوجع، وتفتح له أبوابًا جديدة إلى الحياة من رحم الموت.. وإلى الوجود من عنق الفناء..

لماذا شرب الماء أولاً ولم يكن به عطش، إذ أن صاحبه المسيحي هو من طلب الماء؟ لست أدرى!! لماذا وقع ماء النار فى يده بدلاً من الماء البارد؟ لست أدرى!!

كل ما أعلمه أن يد القدر هى التى تُحرك الحياة كلها من وراء ستار، من وراء حجُب الغيب، وأبعاد الحكمة التى تخفى على كل أحد، وتنأى عن كل عقلٍ.. وتبعُد عن كل سبيل للتفكير.

ولا أجد دلالة فى الموقفين على شيء غير عفوية صادقة مشوبة بالطيبة الزائدة عند صاحبنا.. وأقدار رحيمة تتدخل في الوقت المناسب لتعيد الأمور إلى نصابها، أو ربما لتُرمم ما أتلفته من آثار.

فى قضية تعيينه بالجامعة حال نشاطه السياسي دون استلام عمله، ولكن القدر يُسخر له من الألطاف الخفية من يسعى فى إزالة هذا الظلم ورفع ذاك العنت.. وما بين عشية وضحاها يستلم الرجل عمله، ويبدأ مشواره الفكري الذى لم يتوقف لحظة حتى اليوم..

وفى قضية شربه لماء النار لا تعثر سوى على تلك العفوية التى لازمته، ولعل الحادث ذاته كان يدًا من أيادي القدر البيضاء على صاحبنا، إذ ربما لو أعطى الماء لصاحبه المسيحي لاتُهم بإحداث فتنة طائفية وبالتمويل من جماعات إرهابية، ولرُبما اتُهم حينها بأنه زعيم لداعش التي لم تكن ظهرت إلى الوجود بعد، ولن يجدوا أدنى مشقة في توفير الدلائل، فكفى بنشاطه السياسي وحرية نفسه دليلاً، إذ لا أدل على الإثم واقتراف الذنب الكبير من الحرية، فما قتل الحسين إلا الحرية.. وما قتل سقراط من قبل إلا الحرية.. وما قتل الحلاج من بعد إلا ذات الحرية.

وبمثلما تدخل القدر أولاً تدخل ثانيًا فى برئه، لتُطوى صفحة من صفحات الألم فى حياة صاحبنا، تلك التى لم تخلُ حتى ذاك الحين من العنت والمشقة والكبد، ولم تظفر ولو بأدنى حظوظ الراحة وأقل

السكينة.. لتكون تلك الحياة كلها بين عفوية بشرية تامة، وعناية إلهية تُضفي على الرجل كثيرًا من المعية وقليلاً من الجزع.

ولنعُد إلى العمر الباكر؛ إنه يتذكر حين الصبا.. إذ يرفعه أبوه فوق الحمار أثناء تشوين تبن القمح، ثم ينقلب الحمار والتبن فوقه، وهو لا يعي من أمر نفسه شيئًا.. ولكنه فجأة يجد يد العناية الإلهية تنتشله من تحت ذاك الحمل الثقيل لتعيده إلى الحياة مرة أخرى؛ أو لتُعيد إليه الحياة..

وما كانت تلك المرة الأخيرة من هذا النوع من الحوادث، بل إن النورج[1] قد أصابه ذات مرة وهو لم يتجاوز التاسعة من عمره، فما ترك منه مكانًا إلا أصابته الجروح وانفجرت منه الدماء، وعاد مسرعًا إلى أمه كى تأتى من توها بالبُن وتُضمد تلك الجروح إلى أن يصل عم فتحى، حلاق القرية، وهو بدرجة طبيب ممارس، إذ أنه من يختن الصبية، ومن يخيط الجروح، ومن يطهر الجروح للنساء بعد أن يضعن مولودهن..

---

[1] آلة لدرس القمح استُعملت حتى نهاية ثمانينيات القرن الماضى.

هو طبيب متنقل على أميته وجهله، إلا أن ريف مصر كله وليس شوبر وحدها، لم يكن يمتلك أفضل منه، ولا أسرع حضورًا.

يحمل عم فتحى حقيبة دبلوماسية اشتُهرت كثيرًا فى عهد الإنجليز، أقصد أيام الاحتلال الغابرة، ثم ينطلق من منزلٍ إلى منزل، فهو يعرف كل الناس وكلهم يعرفونه، وله صداقات مع الجميع، وله مزاح وفكاهة مع الجميع، تراه وهو يتدلى فى جلبابه الطويل والمتسخ من أثر التراب مضافًا إليه بقع من الدم أو ربما من المطهر ذى اللون الأحمر الذى يستعمله فكأنما يلخص لك هذا المشهد حال الريف المصرى كله فى ذاك الآن..

وما توقفت أقدار الله تحمل الخير للصبى.. إذ شقت الثورة طريقها إلى النور، أراد قادتها بناء وطن، بناء الإنسان أولاً كى يبنى الوطن، فبدأوا بفرض إلزامية التعليم، وقادوا حملات لتوعية الناس لأجل انتشال أبنائهم من الفقر والحقل وإرسالهم إلى المدرسة، كى يبددوا تلك الظلمات الحالكات، كى يُخرجوا البلاد من الظلمات إلى النور، حتى يتسنى لهم بناء دولة عمادها العلم، وقوامها الأول هو الإنسان.

وحمل سعاة البريد عبر أرجاء الوطن خطابات الثورة التى تحث الناس على إرسال أبنائهم إلى المدارس، وكان عم حسن، والد الصبى يعمل فى حقله.. والصبى يساعده تارة، ثم يجلس أخرى فى ظل شجرة التوت التى تزين ساقية المياه، ثم يلهو مع أقرانه تارة، فوجد ساعى البريد ينادى والده، فانتفض قائمًا بجواره، ليرى ما عساه أن يحمل إليه، فسلَّمه خطابًا عليه النسر، وهو رمز الثورة، رمز الكرامة التى فرضتها تلك الثورة، وسأله الشيخ الولىَّ عما عساه أن يكون هذا الخطاب، فقال له: "أمر بضرورة أن يذهب ولدك إلى المدرسة فى أول الأسبوع القادم".

يا لفرحة الصبي.. تلك التى ما استطاع أن يُخفيها، إذ كان يبغض العمل فى الأرض.. كان يذهب إلى الحقل خوفًا من أمه، وإشفاقًا على أبيه، ليس إلا، لكن الحقيقة أنه لم يحب الحقل يومًا ولا العمل به، ثم لمَّا تقدم به العُمر أخذ يحكى لى عن جمال الطبيعة وجمال الخضرة والمنظر البهيج الذى تُحدثه الزراعة فى النفس، فضحكت وأومأت له بما قد مضى، فقال لى: "أحب الأرض وجمالها، لكن أبغض العمل فيها"..

وضحكت من رده وضحك، إذ لا شك أنـه الآن يمتلك القدرة الكاملـة على الحكم على الأشياء بموضوعية لا يُداخلها الهوى.

اتفقت إرادة الصبى مع إرادة الثورة.. التعليم ولا شيء غير التعليم ولكن الشيخ يريد منه البقاء معه فى الأرض.. فإن لم يساعده فلا أقل من أن يحمل إليه ماء الشرب والغداء والزاد وقت أن يحتاج إلى أيٍ من هذا الدعم، ولكن شاءت الأقدار أن يتشجع هذا الطفل الصغير فيذهب إلى المدرسة فى يومها الأول بصحبة أحد أقرانه دون علم أبيه ودون أن يعرف أن للمدرسة زيا خاصا عليه أن يرتديه، وكانت المفاجأة التى كشفت عن رعاية الله لهذا الصبى أن يكون عمَّ الصبىَّ هو الذي كان يقوم بعمل ناظر المدرسة الابتدائية في هذا اليوم، فيذهب للتشفع للصبى لدى الشيخ، وقد حاول جاهدًا إقناعه بأن المدرسة خير من الأرض، وبأن التعليم مفتاح للرزق، وفوق هذا وذاك فالعلم نور، فى حين أن الجهل ظلام.

نجح عم الصبى فى إقناع أبيه، وحمل الصبى حقيبته الصغيرة فوق ظهره، وارتدى بيجامة من قماش (الكستور) قريبة من شكل الزى المدرسي وخفين باليتين أو هما أقرب للبلاء، ثم ذهب إلى المدرسة فما انقطع عنها حتى حصل على درجة العالمية فى الفلسفة.

هذه المواقف كلها صنعها القدر، يحكيها صاحبنا وهو يبتسم، ثم تشعر كأنك تجالس أحد أقطاب الصوفية، إذ تجده يفيض فى القول بأن الإنسان مسيَّر حتى فيما خُيِّر فيه..

إنه يسير وفق أقدار الله الحكيمة، ذات الحكمة البالغة، فلا يملك من أمر نفسه شيئًا، فإن سلَّم لله أراح نفسه وبدنه، واستراح فؤاده وفكره، وإن أبى التسليم فلن يكون سوى مراد السماء، ولن يجنى سوى الضيق والحزن والهلع، ولن تمضى حياته أبدًا على غير مرادات السماء.

الله لم يظلم الإنسان، ولكن الإنسان هو من ظلم نفسه، وهو من ظلم الله.. الله لم يخلق الشر، ولم يأمر به، ولكن النفس الأمَّارة بالسوء هى التى تسوق صاحبها إلى الشر وتبدع فى ابتكار دروبه وصنوفه..

ثم هو من بالغ في عداء الله، إذ أعرض عن منهجه وعن طريقه فأكثر الفساد في الأرض، حالها خرابًا وبوارًا، أشعل فيها الحروب، سفك فيها الدماء، قتل فيها الحياة، وأد فيها الوجود، كل مقومات الوجود، ثم هو يصرخ ويتبجح بأن الله تخلى عن الأرض، أو أنه أفسد الكون، وصدق الله العظيم {وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ} {ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ} (الروم٤١)

الإنسان هو سر كل فساد، والله سر كل صلاح وإصلاح.. الإنسان شر، والله خير.. الإنسان ظالم والله عدل.. الإنسان سر تدمير الوجود، والله سر الوجود ذاته.

أقدار الله تجيء بالخير، ولكن حكمة الله أكبر من محيط إدراك عقولنا القاصرة، فالله يعلم كل شيء، ونحن نجهل كل شيء، قانون العلم الإلهى أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا، أما قانون العلم البشرى {وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا} (الإسراء٨٥)..

أحيانًا نسمع من صاحبنا كلامًا فأظننى أخطأت الطريق وجلست مع أحد المجاذيب بسيدنا الحسين، إذ كثيرًا ما أجالسهم في الرحاب الطاهر، ثم أتفقد المكان فأجدنى في الفيلا التى أعرفها.. والمكان الذى أحفظ معالمه جيدًا.. والمكتبة الكبرى التى تذهب فيها عينى وتجيء، فأتذكر أننى في رحاب الفيلسوف، ثم ألوم نفسى على تلك النظرة، فما الفلسفة إن لم تكن التفكر في رحاب الله، إن لم تكن محاولة للخلاص من الجاذبية الأرضية والعلائق البشرية والسمو في الملكوت الأعظم؟! ما قيمة الفلسفة إن لم تفكر في المصير، في قضايا العالم المصيرية، في مستقبله عند الله، حيث الدار الآخرة، إذ الثواب والعقاب؟!

تسمع من صاحبنا هذه الوقفات مع القدر، ثم تجد ابتسامة أوسع مما عهدتها ترتسم فوق وجهه فتكاد تُنضِّر وجهه كثيرًا، ثم يقص علىَّ من ذاك النبأ.

موقفان رسمهما القدر، عدَّلا مصيرى إلى الأبد.. ما فارقا عقلى الباطن ولا وعيي الشعورى قط، وما باعد الزمان بينهما إلا قليلاً.

الأول حين أتممت الشهادة الإعدادية، وأبصرت حال والديَّ وأسرتى، ستة صغار يريدون الحياة الكريمة، ولا مجال لأدنى كرامة في تلك الظروف، فبضعة قراريط تأخذ منهم الدولة التموين اللازم لها من الحبوب، ثم ما يتبقى منها من فتات تتركه للفلاحين، لا يمكن أن توفر حياة كريمة، والقرية التى لا يتوافر فيها أية فرصة للعمل لا يمكن أن يتوافر في ظلها حياة كريمة، وأفواه الصغار الضارية ستلتقط أي عمل، وأي دخل، فلا شيء يكفى أسرتى الكبيرة.

آن الأوان لمساعدة بيتى الكبير، بيتى الأول في هذا الحين، فاتفقت مع زملائى أن نلتحق بالمدارس الصناعية، وأن نختر قسم الكهرباء للدراسة به، إذ أن الكهرباء قد دخلت القرية للتو، إثر بناء السد العالى، فكانت مجالاً جديدًا للعمل، ومجالاً مربحًا يُدر من الدخل ما يساهم في توفير الحياة التى أصبو إليها لأسرتى، وحين عرضت الأمر على والدى قابله بالرفض القاطع، إذ لا بديل لديه عن التعليم.

لقد كـان يسـمع مـن المعلمـين عـن المسـتوى العلمـى للصـبى.. فكـان يدور في خلده أن هذا الغلام سيكون صاحب مستقبل كبير، هكذا قال لـه المعلمـون، خطـه جميـل، ورقتـه الامتحانيـة منظمـة، أفكـاره مرتبـة، يفهم بسرعة شديدة.. لديه كل المؤهلات التى ترسم لـه طريق النجـاح، والتـى تبشـر بمسـتقبل كبيـر، خاصـة أنـه يمتلـك موهبـة حقيقيـة فـي الكتابـة، يمتلـك كـل أسسـها ومقوماتهـا.. الأسـلوب.. الخيـال.. الفكـرة وخصوبتها.. التنظيم وترتيب الأفكار.. إنها مقومات كبرى في طريق بناء مشروع إنساني كبير..

أراد الشيخ الـوليّ أن يصـرف الصـبي عـن تلـك الفكـرة قـائلاً لـه: " إن مكانـك فـي المـدارس الثانويـة العامـة أمـا هـؤلاء الـذين سيذهبون إلـى المـدارس الصـناعية فهم بـلا مستقبل".. وتعجـب الصـبىّ وبـدا تعجبـه في رده على الشيخ: "أنا من طلبت منهم اللحاق بالمدارس الصناعية وهم ساروا ورائى".

إنـه فكّر وقدّر، ولم يجد نفسـه حيث قدّر، بل وجد القدر يطوي سره من جديد، وعليه أن يسير في الطريق ليس إلا..

وبعد بدء الموسم الدراسى وجد الطلاب صاحبهم في المدارس الثانوية، فظنوا أنه تلاعب بهم ومكر لهم، دون أن يعلموا أن الشيخ هو من رفض رفضًا قاطعًا، وأبى إلا أن يتم ابنه البكر تعليمه لعل وعسى، فازدادت لعنات القلوب ونمت أحقادها، وما للصبى من جُرم في هذا ولا ذاك.

هكذا خط القدر خطه الأكبر في رسم مستقبل الصبى.. فتحول مصيره تمامًا من مجرد عامل أو حتى خبير بالكهرباء إلى فيلسوف، ليصبح في مقتبل الألفية الثالثة فيلسوف الشرق.

أليس القدر رحيمًا إذن.. أليست هى تدابير السماء.. أليست هى الحكمة البالغة التى لا يسبر أغوارها العقل البشرى؟!

ويُتم القدر قفزاته التى تفوق استيعاب العقل البشرى في المرحلة الجامعية، إذ يلتحق الفتى بكلية الآداب، وفى السنة العامة، وهى أول سنة يدرس فيها الطلاب في كلية الآداب، حيث يدرسون كل التخصصات، ثم يبدأ التخصص الذى يريده الطالب من الفرقة

الثانيـة، وهـو نظـام رائـع إذ يتـيح الفرصـة للطـلاب للاختيـار عـن ممارسة، عن قناعات، ومن اختبار حقيقى لقدراته، ووازن الصبى بين الأقسام كافة، ثم وقع اختياره على قسم الفلسفة عبر القدر البحت، إذ لم يكن يُعد نفسه منذ زمن لهذا القسم، ولم يكن يرتب أولويات في رأسه سوى الصحافة، بل جاء القسم ضد رغبته بالأساس إذ ما دخل الآداب إلا لأجل اللحاق بقسم الصحافة، وإلا لأجل الكتابة، فقد كان يُعد نفسه ليكون كاتبًا لا ليكون فيلسوفًا..

ليعمل بالصحف لا ليعمل بالجامعة، ولكن الجامعة كانت في تلك السنة الدراسية قد أصدرت قرارًا يفيد بأن على الراغبين في دراسة الصحافة اللحاق بمعهد الإعلام (هذا الذى سار اسمه فيما بعد كلية الإعلام)، ولكن الفتى آثر ألا يُضيّع عامًا من عمره، ذاك العام الذى قضاه في السنة العامة للآداب، فقرر اللحاق بقسم الفلسفة، ومنه بدأ القدر يرسم مستقبلاً غير الذى رسمه الصبى، وطريقًا غير الذى خطط له خياله..

في الفلسفة مدارك أخرى للصبى تتسع، مفاتح لأبواب لم يتخيل يومًا ولوجها.. موهبة الفكر تُضاف إلى موهبة الكتابة فيصنعا معًا فيلسوفًا تتجاوز فلسفته قدر الزمان وحدود المكان، لا أن يكون مجرد كاتب؛ ولعله مما أرضى نفس صاحبنا باختيار الفلسفة أنه رأى نموذجين كبيرين تربعا على عرش الكتابة في مصر والوطن العربى قد تخرجا من قسم الفلسفة.. بل إن أحد هذين العلمين قد حاز جائزة نوبل في الأدب.. أما الآخر فاحتفظ بريادته في الكتابة وسار من أبرز كتَّاب مصر عبر العصور.. هكذا نمت في نفس صاحبنا الفكرة، وزادها رسوخًا هذان الكاتبان، نجيب محفوظ، وأنيس منصور.

لا تثريب على الفتى إذن إذ يختار الفلسفة، فقد تكون هى قبلة الكتابة الأولى، وما يدريك، لعل الله أن يحدث بعد ذلك أمرًا.

هكذا خط القدر؛ وهكذا رسم للصبي حياته؛ دون تخطيط؛ ودون تدبير..

(١٠)

نفس أبية

حاولت جاهدًا إذ أُقلب في صفحات صاحبنا أن أجد الخيوط الرئيسة، تلك التى تخبرنى شيئًا عن طبيعته، ثم لفت نظرى طبيعة ذاته تلك، طبيعة تعيش الوحدة، تؤثر العزلة، ثم هى شخصية مفكرة، منفتحة على الواقع والأحداث، متأثرة ومؤثرة، فجأة تجده في صومعة ذاته، تلك التى لا يلجها أحد سواه..

وفى أقل من ارتداد طرفك تجده في قلب الأحداث، إما صانعًا، وإما ناقدًا، وإما ناصحًا.. لعلها صورة عبثية تعطيك معنى التناقض، ولعلها مع تعدد أشكالها وصورها تصيب الباحثين عن الحقيقة باليأس، مع أن الحقيقة أبسط من هذا كله، أبسط من هذه التفسيرات كافة، أبسط من إثارة التعقيدات، أو الإكثار من التكهنات.

حين تقرأ سير العباقرة، أولئك الذين تركوا بصمات واضحة على الجنس البشرى، تجدهم مروا بنفس المراحل تقريبًا، وكأنها صورة مكررة، وكأنها إرادة ماضية للسماء، أو سنة سنتها السماء تجرى على

الأرض بقدر، إنها العزلة، الوحدة، ثم المشاركة فتغيير الواقع، فصنع الحدث.

لا جديد إذن لدى صاحبنا.. ولا مبرر لإثارة العجب.

ربما يضاف إلى ما قصصته عليك يا صديقى من نبأ صاحبنا وشخصيته أنه كان يحمل نفسًا أبية، كريمة، عزيزة، لا يقبل أبدًا إحسانًا من أحد، حتى لو كان هذا الإحسان فى المشاعر، ربما مجرد مجاملة فى ظرفٍ ما، حتى تلك المجاملة المشوبة بالعطف ينأى عنها نأي ما بين المشرقين، لأن ذاته تأبى كل الإباء أن توضع موضع الشفقة، أو موضع الضعف، على الرغم من أن الضعف والشفقة من متطلبات الحياة الإنسانية، إذ أن الإنسان حيوان اجتماعى بتعبير رائد علم الاجتماع ابن خلدون، هو اجتماعى كونه يفتقد إلى الآخرين، كونه لا يُكمل ذاته بذاته، ولا يمكنه الاستغناء عن الناس، ومن هنا رفع القرآن من شأن الأخوة.. ومن شأن التعاون، ولا يكون التعاون إلا تحت مظلة المجتمع.

ربما يدرك صاحبنا هذا كله، ولكنه يعتز بذاته من ناحية أخرى تمامًا، لعلها لا تتضح إلا حين نُصغى إليه ذاته، نسمع ما دار بخلده، فتلك بحق نقطة مصيرية فى حياة صاحبنا.

كنا طلابًا فى المرحلة الثانوية والجامعية، وكنا نفاجأ جميعًا ببعض الأثرياء يطرقون علينا الأبواب فى شهر رمضان ليتركوا لنا وجبات السحور والإفطار، وكان زملائى ينتظرونها بفارغ الصبر، غير أنىَّ كنت أذوب فى نفسى من تلك اللحظة التى يطرق فيها هؤلاء الأخيار بابنا، ظهرت لهم أول مرة واعتذرت عن قبول الوجبة، ولكن الرجُل دُهش وقال لى " كل سنة وأنت طيب يا بنى، رمضان كريم، لا تردنا يا ولدى، فجبر الخواطر على الله".

سمعت منه هذا الكلام وأنا لا أود سماعه.. لا أود الوقوف معه، لا أود أخذ ما تمتد به يداه، لا أود شيئًا غير أن أترك الموقف كله وأرحل.. أود حذفه من ذاكرتى، من مخيلتى، من مجرد ذكره.

لقد قاطعته وهو يقص علىَّ هذا الحدث ضجرًا.. وما المشكلة فى أخذ وجبات من هؤلاء الأخيار، إنهم يتنافسون على الخير، والقرآن يحث على الخير، وطالب العلم المغترب أولى بهذا كله.

ولكن لا أخفيك سرًا يا صديقى أنه ضجر منى ومن سؤالى ومن تعقيباتى، إنه على ابتسامته التى لا تفارقه، وهدوئه الحذر، إلا أن بداخله إنسان ثائر، تعلو أمواجه بداخله.. دون أن ترى منه غير الهدوء والابتسامة.. ولست أدرى سببًا واضحًا يمكننى به تفسير رفضه فى مثل هذا الموقف، غير أنى تذكرت أنه حدَّثنى عن صباه كثيرًا، وعن إخوته الستة، وعن والده الذى كان يخرج إلى الحقل سعيًا على عياله، وعن أمه التى لا تدخر جهدًا فى خدمة البيت والأولاد، ربما كان جسده يساكن الفقر فى بيت واحد، ولكن عقله فى مكانٍ يتجاوز الزمان والمكان.. يكاد يقطع بعقله المسافات، فلا يريد شوبر، ولا يريد الحمار يحمل أسفارًا إلى الأرض، ثم إلى البيت.. ولا يريد النورج الذى قد يُفنى أعمار الصبية الصغار إذا عدموا خبرة التعامل معه، ولا يريد السهول والهضاب تلك التى تعب فوقها صعودًا وهبوطًا.

إن أصوات تضوع الصغار جوعًا تؤلمه، ربما لم تصل أسرته إلى الفقر المدقع الذى يتضوع فيه الصبية، ولكنه لا شك قد عاين تلك المشاهد فى بيوتاتٍ مجاورة..

ربما لم تكن أسرته تعانى من الفقر إلى حد فقدهم ثمن الدواء، ولكنه لم يعدم المشهد عند جيرانه.. ربما أثرَّ فى أعماقه مشاهد الريف من الفقر المدقع والفاقة المؤلمة والحاجة المُذلة.. ربما أراد أن يستقوى على تلك الظروف كلها، وربما فرّق الهواء بكلتا يديه مقسمًا ألا يترك الفقر يستبد بأسرته، وألا يجعلها تحتاج إلى أحد..

ربما كان هذا ما يملأ قلب الصبى منذ الصغر.. وربما كانت جدية أمه قد خلفت شيئًا منها فى وعيه وفؤده.. وربما كانت رقة حال الشيخ مما يعصف بالصبى عصفًا.

لكن النفس التى تأبى المساعدة من أحدٍ نفس أبية لاشك.. عظيمة بكل مقاييس العظمة، تستحق الثناء كل الثناء، والتقدير، كل التقدير.. وما كان هذا الإباء فى مرحلة الصغر حتى إذا وجد من الدنيا بابًا للرحمة استغنت نفسه عن شممها وإبائها.. بل ما ازداد إلا شممًا وإباءً، لقد انتهى من كتابة رسالته للدكتوراه، أظنها كانت تحمل عنوان " نظرية العلم عند آرسطو"..

ثم أودعها يد المشرف عليه، وكان صاحبنا وقتها منتدبًا للتدريس بجامعة القاهرة فرع الخرطوم بدولة السودان، ورئيس القسم بالسودان وعميد الكلية يتعجل حصوله على الدكتوراه كى يستفيد من تدريسه للمواد الأساسية وإدراج اسمه بالجدول والقيام بأعباء الكنترول والجودة وما شابه ذلك؛ فيسأله عن رسالته للدكتوراه، فيخبره أنه أودعها بين يدي المشرف منذ قرابة العام، فيتعجب الأساتذة، ثم يطلبون إليه أن يُحدث المشرف فى هذا الأمر ولا جدوى.. عامٌ كامل يمر من عمر صاحبنا، قد انتهى من إعداد رسالته، دون أن يقبل بمفاتحة المشرف أو تعجله.. أراد أن يترك له حرية الأمر كيف يشاء، فليقرأ وقتما يريد، وليُفرج عن الرسالة للمناقشة حسبما تشاء أهواؤه، وليتوقف راتب صاحبنا عند درجة مدرس مساعد، كل هذا مما لا يشغله، فإباء نفسه يمنعه من طلب شيء، أى شيء، ولو كان حقًا أصيلاً له.

وكم جرت عليه من صنوف تلك العزة، ومشاهد ذاك الإباء ما لا أحصيه لك، فكم من اتصالات تأتى وتروح لأجل حجب حق أحد أو منح أحدٍ شيئًا لا يستحقه، ولا تجد ردًا فى هذا ولا ذاك، بل كان

يوصى المقربين من تلامذته بأن يتجنبوا الظلم، لأن الظلم ظلمات يوم القيامة، قال لأحدهم ذات مرة " يمكننى أن أعطى طالبًا تقدير جيد وهو لا يستحق سوى مقبول، أو جيد جدًا وهو لا يستحق سوى جيد، لكن لا يمكننى أبدًا أن أعطيه مقبول وهو يستحق جيد، أو جيد وهو يستحق جيد جدًا، لا يمكننى أبدًا أن أقف فى وجه مستقبل أحد، فمصائر الناس ليست للأهواء، ليست لأحب وأكره، ولكنها للعدل والموضوعية".

كلمات من نور، تحمل سرًا من أسرار صاحبنا، تبين بذاتها، دون حاجة إلى توضيح.

وكم من مساومات أطلعنى عليها القدر البحت؛ وما وجدت إلى صاحبنا سبيلاً.

ولعلى لا أنسى أبدًا هذا الموقف الذى خلُد بذاكرتى، فما نساه صاحبه، ولا نسيته أنا، ولا طوته الأيام.

لقد ذهب إليه طالب من الأقاليم فى مرحلة الدكتوراه، هكذا قصَّ علىَّ هذا الطالب بنفسه ذات مرة، إذ جمعنا القدر فى رحاب مولانا الإمام الحسين.

حصلت على درجة الماجستير، وكنت فقيرًا لا أجد ما أبلغ به ضرورات الحياة على بساطتها.. لم أستطع أن أُعد غداءً للجنة المناقشة، تلك العادة القميئة التى ابتكرها جائعو الأصول لا البطون، فسخط علىَّ المشرفان، وأبيا علىَّ التسجيل لدرجة الدكتوراه، ويا ليتهم كفوا أذاهم إذ منعوا خيرهم، ولكنهم ما كفوا عنى الأذى، إذ أجروا اتصالاتٍ بأقسام الفلسفة فى أنحاء مصر" إياكم وأن تسجلوا لفلان، إنه درويش، يصلح للقرآن والخطابة ولكنه لا يصلح للفلسفة".

هكذا جرت المكالمات عبر الخطوط الهوائية واللاسلكية فى أرجاء مصر، وكان صاحبنا أحد أولئك الذين نالهم هذا الاتصال أيضًا، إذ علموا أن هذا الطالب ذهب إليه، ليقُص عليه حاجته، ويشكو إليه مظلمته.. ولكن الرد كان فى ذات الاتصال، فى ذات الوقت :" أنا لا علاقة لى بهذا الكلام، أنا سأرى الطالب وأحكم عليه بنفسى إن كان يصلح للفلسفة أم لا".

وذهبت إليه فى مكتبه وكان عميدًا لكلية رياض الأطفال بالجامعة الأم، فاستقبلنى بابتسامة لأول مرة أراها على وجه أحد أساتذة الفلسفة.. ابتسامة أحسستها صادقة، لا كذب فيها ولا خداع. طلب لى مشروبًا، ثم قال لى: " أعطنى رسالتك للماجستير لأراها أولاً، ثم لا تقلق"

ناولته رسالتى للماجستير وأنا أقرأ عليها أواخر سورة إبراهيم، إذ هى تتوعد الظالمين، ثم تزف البشرى للمعسرين والمكروبين، ثم انصرفت؛ وما مرَّ سوى يومين ووجدته هو من يتصل بى ويقول: " تقدر تشرفنى فى مكتبى فى أىَّ وقت تحب يا بنى"

لم أكد أصدق كل ما حدث.. فليس تسجيلى للدكتوراه بعد أن تمكَّن منى اليأس بالشيء الذى يُصدق.. وليس اتصاله هو بى بالشيء الذى يُصدق، إذ كان عهدى بالأساتذة أنه يُمنع عنهم الاقتراب أو التصوير كالأماكن العسكرية.. وليس قبوله الإشراف علىَّ بالشيء الذى يُصدق.

قمت للتو أبكى وليس للبكاء سبب، ثم أضحك وما للضحك من سبب، ارتابت أمى فى أمرى، فأخبرتها كى أذهب ما ارتابها من شك، فربتت على قلبى وقالت: " إن شاء الله الخير كله يا بنى"

لم أنس كلمة أمى قط.. كما لم أنس اتصال الفيلسوف قط.. الموقفان حُفرا فى أعماقى، وكأنهما وحيٌ من ألطاف السماء.. أو نسائم من رحمات الأقدار.

دخلت على الفيلسوف فى مكتبه، قابلنى فى منتصف الطرقة المفضية إلى مكتبه، سلَّم علىَّ بحرارة، أحسست أن دفء العالم أحاط بى، ابتسم إلىَّ ابتسامة أدخلت الأمان إلى قلبى الذى لم يسكن منذ زمن.. قال لى " رسالتك للماجستير كويسة، ابحث عن موضوع للدكتوراه". . ولم يزد.. تركته من فوره، وذهبت هائمًا على وجهى إلى مولانا الإمام الحسين، أذكر أننى بكيت بكاء من انهالت عليه مصائب السنين، أو من داهمته أفراح الدنيا فجأة.. بكاء بغزارة، كنت أشعُر أن الأعين كلها ترقبنى، كانت الكلمات تخرج مبعثرة من فمى..

متقطعة كتقطع قلبى: "أحبك يا حسين.. يا عشقًا أضنى فؤادي.. يا روحًا ذهبت بروحي.. يا همًا جثم فوق صدرى لا يزول.. يا نبضًا به أحيا.. يا عشقًا عليه أموت".. قص عليّ من ذاك النبأ ثم أخذه البكاء كأن الموقف لا يزال حيًا...

قاطعت صاحبى إذ يبكى.. حاولت الربت على كتفه وصدره، قلت له ممازحًا: أتعلم أن الفيلسوف يحب الإمام الحسين.. قال وهو يحاول كفكفة دمعه: نعم أعلم.. فقلت له ممازحًا" لعل السبب الذى جعله يقبلك أنكما مهاويس بالحسين، بعضكم من بعض" فضحك وضحكت.

لست أدرى لماذا شغلتني هذه الحكاية، إذ لم أنسها قط، بل صرت أذكرها كأنني صاحبها.. أو كأنني هو.. إذ ربما تتشابه الأقدار في ملتقيات الطرق ومنحنياتها.

ذات مرة كنت أجلس مع صاحبنا، فسردت له هذه الحكاية وهو يُنصت باهتمام، لدرجة خُيل إلىَّ فيها أنه يتصنَّع عدم الدراية بها.. أو أن زميلي الذى قصَّ علىَّ من نبئها قد نسجها من خياله نسجًا..

ولكنى وجدت صاحبنا يضحك عند بعض وقفاتها، أو عند ذكر بعض أحداثها، فدل ذلك على أنه يذكرها جيدًا، فسألته عن ذاك الطالب، فضحك ضحكة عالية وقال لى: " تخيل.. هذا الطالب من أنجب الطلاب الذين حصلوا على درجة الدكتوراه ثم أخلصوا للبحث العلمي فأنتج عشرات الكتب ولا يزال مثارًا لحقد أنصاف المتعلمين"..

كنت أود ساعتها أن أسأله عن شعوره إذ نجح هذا الطالب، أو لماذا قبله من البداية وقد أحاطت به شبهة الدروشة وعدم صلاحيته للفلسفة، أو لماذا لم يرضخ لمطالب زملائه الذين أوصوه بعدم التسجيل لهذا الطالب الذى وصفه للتو بأنه نجيب ومخلص.. وجدت فى نفسى الغنى عن كل هذه الأسئلة، إذ أن في عزة نفسه وإبائها الإجابة، وأكثر من الإجابة.

نفسه الأبية هي التي أبت الرضوخ.. هي التي أبت أن يظلم أحدًا لمجرد أهواء لدى نفوس أكلها الحقد وبعثر رفاتها.. هي التي أبت أن يقبض يداه عمن يطلب العون.. هي التي أبت المساهمة ولو بالسكوت في ظلم مظلوم.

يجتمع الموقفان في محراب النفس الأبية.. فرفضه أخذ أي صورة من صور المعونة من أحد وهو طالب لم تكن إلا قبسًا من قبسات عزة النفس.. ورفضه الرضوخ لتوصيات من اليمين أو اتصالات من اليسار لم تكن سوى ذات القبس ونفس العزة وذات الإباء، إباء النفوس الكبيرة، تلك التى لا تتوقف عند الصغائر، ولا تلتفت إلى هنات الواهنين، ولا أحقاد المتربصين.

وماذا يعنى أن تعين الناس لا أن تُعين عليهم غير عزة النفس وصونها من ارتياد موارد الكلاب، ثم فى الأخير، بأي شيء تُغنى المادة عن الروح؟ بأي ميزات توزن المنفعة فى مقابل راحة الضمير؟ وبأى وسيلة تثبت المنافع العاجلة أمام القيم السامية، تلك التى لا تعلوها قيمة، ولا يبلغ بها ثمن!! ومرت الأيام تترى، ثم جمعني القدر بزميلى هذا في المرة الثانية بمثل ما جمعنا في المرة الأولى، كان الداعى لنا ثانية هو ذات الداعى أولاً، حيث رحاب مولانا الإمام الحسين (رضى الله عنه)، وجدته يقف عند المقام مصغيًا رأسه، منتحبًا في بكائه، يتمتم بكلمات لم أستطع استيضاحها.. وقفت بجواره، كأنه لم يرنى، كأنه مقطوع عن الحضور والمشهود.. كأنه في عالم آخر وحده.

انتظرتـه، وطـال الانتظـار، حتـى أقام المؤذن لصـلاة العصـر، فصلـى وصليت معه، ثم عاد لمقامه الأول دون أن أستطع التحدث إليه، إذ أن الزحـام وحده يكفى للحيلولـة بين أي اثنـين، ثـم إن قدسية المكـان تُنسى المحبين أنفسهم، فهذا يبكـى، وهذا يدعو، وهذا عاشق أضناه العشق، وهذا محب لم يأت به سوى الحب.. وأحسب زميلى هذا من أصحاب الحب والعشق، لقد لمحنـى ببصـره، فختم دعـاءه، ثـم أقبل علـىَّ مسلّما ومعتذرًا عن انشغاله عنـى، فقابلتـه بابتسامة، ثم سألته، هل لديه همُ يشغله، فوجدت الدمع يسيل على خديه، ثم دخل في نوبة بكـاء حـاد.. حاولت أن أهدئ من روعه ولا جدوى، لست أدرى لماذا تعلقت بـه فـي هذه الأثنـاء، إنهـا المرة الأولـى التـى أشعُر فيها بطهر بنـى آدم، أقصـد بعض بنـى آدم.. إنـه القلـب يا صـديقى، إذا أخلص خلُص من أدران الدنيا، واستبق الملائكة نحو السماوات العلا، حيث العـرش فالشـهود فالمشـاهدة فـأنوار الله التـى لا يوليهـا إلا للمصـطفين الذين عناهم بقوله {ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِير} (الحج٧٥)

جلست أنظر إليه، أهدئ من روعه، أُذكره بأنه الآن في رحاب الحسين.. المظلوم الأكبر في تاريخ البشرية، الذى ذُبح أمامه أبناؤه ولم يبك كما يبكى الآن.. ذكرته فصلى على الحسين وآله.. ثم نظر إلىَّ، فأعدت السؤال من جديد، ما الذى يشغلك ويحزنك إلى هذا الحد؟ فأسقط وجهه بين يديه وكأنه يريد أن يتماسك عن البكاء، ثم قال لى بصوت قطعَّة الحزن ومزَّقه " مصطفى النشار عنده كورونا، وجئت لأطلب له الشفاء من الله، وأحسبه سبحانه لا يرد سائلاً يسأله عند سيد الشباب، الحسين بن رسول الله"... دخلت في دوامة أخرجتنى شعوريًا خارج الزمان والمكان، فهي المرة الأولى التي أعلم فيها هذا الخبر، فأخذت أدعو الله معه، ثم انصرفنا إلى خارج الرحاب الأطهر. تاقت نفسي إلى سؤله فقلت له: تأتي إلى الحسين سفرًا طويلاً في ظروفك الصحية التي أعلمها عنك لأجل دعوة".. ففاجأني برده الذي لم يرد ببالي ولو للحظة" ومستعد أن أذهب لأدعو له عند رسول الله"..

ساءلت نفسي كثيرًا، هذا الصديق الوفي، ما الذى يأتي به من مجاهيل الدلتا إلى هنا، حيث الحسين، كي يدعو دعوة، مجرد دعوة، ثم ينصرف؟! إنه ذات السؤال، وما الذى جعل صاحبنا يقبل الإشراف عليه من قبل وقد نال من التوصيات والتوسلات ألا يفعل؟

والإجابة على السؤالين واحدة.. إنه الحب يا سيدى.. الحب الذى أضنى قلب التلميذ فأطبق قلبه على أستاذه.. وحب الحق الذى امتلأ به شعور الأستاذ فلا يقبل فيه لومة لائم.. إنه الأصل.. هذا الذى يتملك التلميذ فيجعله أسير إحسان أستاذه.. وهذا الذى يتملك الأستاذ فيجعل منه سندًا للضعفاء وملاذًا للحائرين.

ظل يحدثنى عن أستاذه كأنه يعرفه منذ آلاف السنين.. صرت معه متعجبًا من حديثه، ممتلأة نفسى به، إلى أن افترقنا في محطة المترو، والحق أنى ألعن هذا الفراق، ذاك الذى ينقّض على كل ما هو جميل.

(١١)

رجولة مطبوعة

لست أدرى لماذا ترك بداخلى صديقى الذى قصَّ علىَّ من نبأ اضطهاده بإحدى الجامعات الإقليمية شغلاً به وبحكايته، وساءلت نفسى غير مرة، كم من مضطهد في جامعات مصر.. كم من مقهور في رحاب العلم، والظالمون هم العلماء أنفسهم، أقصد أشباه العلماء، ثم كم واحد من هؤلاء المظلومين ينصفه القدر على يد رجل كصاحبنا؟! شغلتنى هذه الحكاية فرأيت فيها رجولة مشرفة من صاحبنا.. ودناءة وخسة من أشباه العلماء..

أخذت أسترجع معه الذكريات، أقلب في صفحات الماضى لأقف على هذا الجانب من تلك الشخصية الآثرة في نفسى.. فوجدت في مذكراته قصة قصيرة تحمل عنوان" ذات الحجاب".. قرأتها، ثم توجهت إليه بالسؤال عن سر كتابتها، فقال لى: " كان اليساريون والشيوعيون إبان حكم السادات يسخرون من زميلاتنا المحجبات، فكتبت هذه القصة دفاعًا عنهم" لكنى وجدت نفسى أقاطعه:

"وما شأنك أنت والحجاب، إنك كنت وقتها مؤمن بالوجودية، لا يشغلك دين، ولا تهمك شرعة؟" فضحك ضحكة هادئة قائلاً: " أنا أدافع عن مبدأ لا عن شخص أو شريعة، ومبدئى هو نصر المظلوم أيًا كان توجهه، وأيًا كانت عقيدته" لم أجدنى في حاجة إلى طرح أسئلة جديدة، ولا إلى شرح الموقف، فهو يشرح ذاته.

ولكنه أخذنى إلى ناحية أخرى، يوضح لى انحيازه للمبدأ لا للأشخاص، إيثاره للصالح العام لا للفئة أو الجماعة أو الذات.. لقد كان عضوًا باتحاد الطلاب بالكلية في الفرقة الأولى، ثم أصدر مجلة حائطية للكلية وساهم فى رحلات وأنشطة طلابية جعلت الطلاب يلتفون حوله مما أوغر صدور بعض من زملائه الذين كانوا يشاركونه ذات الطريق، فتآمروا عليه أكثر من مرة، لدرجة أنهم حذفوا اسمه وهو لايزال فى الفرقة الأولى من قوائم المرشحين بمؤامرة عجيبه حيث كتبوا طلبا باسمه للتحويل إلى كلية التجارة لما أحسوا بمدى شعبيته بين الطلاب لأنه رفض إما عن طيبة زائدة أو عن عدم وعى أن يدخل القائمة التى أعدوها لخوض الانتخابات، غير أن إرادة طلاب الكلية جاءت به عضوا للجنة فى الأعوام التالية ثم أمينًا للجنة الثقافية

والسياسية باتحاد الطلاب أثناء دراسته بالفرقة الرابعة، وكم حملت تلك السنة وسابقاتها من ذكريات، وكم حملت من مطالب حوتها كراساته المهلهلة من أثر الزمن، ذات الخط الجميل، إذ تقرأ فيها بخط يده: " كما يعلن اتحاد طلاب كلية الآداب إيمانًا منه بالمطالب العادلة التى ينادى بها الطلاب المتظاهرون وتأييده لها ومطالبته بالآتى:

أولاً: فى المجال السياسى:

(١) المطالبة بإلغاء كل المرتبات والبدلات التى يأخذها النواب السياسيون فى الاتحاد الاشتراكى ومجلس الشعب وجعل العمل السياسى عملاً تطوعيًا دون مقابل.

(٢) المطالبة بوضع تعريفات دقيقة وواضحة لمن هو العامل والفلاح الحقيقيين فليس العامل هو العضو في إدارة الشركة، وليس الفلاح هو من يملك أكثر من عشرة أفدنة، في حين أن هناك عمال وفلاحين لا يجدون لقمة العيش الشريفة.

(٣) ضرورة التمثيل الصحيح لكل فئات الشعب، ومراعاة نسبة الـ ٥٠٪ للعمال والفلاحين الحقيقيين في المجالس النيابية.

لـك أن تتخيـل أن هـذه مطالـب اتحـاد طـلاب كليـة وليسـت مطالـب مجلس نيابى.. هذا يدلك على مدى القوة الفكرية والتنظيمية التى تمتع بها جيل الستينيات والسبعينيات، إذ يمتلكون من الشجاعة والفكر ما لم تبلغه الديموقراطيات الحديثة فى مقدم الألفية الثالثة.

لم تكن هذه المطالب السياسية وحدها هى مطالب صاحبنا، بل وضع رؤيـة اجتماعيـة تضـمن تحقيـق العدالـة الاجتماعيـة، تلـك التـى قامـت لأجلها ثورات الربيع العربـى، فوضـع مطلبين يضمنان تحقيـق العدالـة أثناء رئاسته لاتحاد طلاب الكلية تمثلت فيما يلـى:

(١) المطالبـة بضـرورة دفـع مرتبـات العمـال والمـوظفين بمـا يكفُل لهم الحياة الكريمة.

(٢) ضـرورة النظـر فـي المرتبـات الخياليـة التـى تتقاضـاها بعض فئات المجتمع.

تُرى، لـو أن الدولـة أخـذت بتلـك الرؤيـة منـذ ذاك الـزمن مـن شـبابها الذين هم عنوان نهضتها ورمز حضـارتها وآلات بنائها، فـى أي مكـانٍ ستكون اليوم؟!

أحسب أن عمرًا من الزمن أهدرته العنجهية والتسلطية والاستبداد، وأحسب أن أيادٍ خفية تمتد بين الحين والحين لوأد هذه الأفكار فى مهدها.

مثل هذه الأفكار لا تنبت إلا فى نفوس حرة، نفوس تمتلك من الرجولة حظًا كبيرًا، ومن الشجاعة ميراثًا وافرًا، فبهذه الأفكار تُبنى الدول، وبأمثال هؤلاء الشباب وتلك الطلائع، بل وبهم وحدهم تُبنى أي نهضة، وتُصنع الحضارات ولو من العدم.

لقد شارك صاحبنا فى المظاهرات المطالبة بالحسم وهو طالب فى الكلية فيما سبق عام ثلاثة وسبعين من أحداث.. كان هو منظم الفعاليات، ومؤلف الشعارات، وآلة حشد الطلاب.. كان دينامو فى هذه المظاهرات كلها، وقد مر بك يا صديقى أنها كانت سببًا فى تأخر استلامه لعمله كمعيد بكلية الآداب جامعة القاهرة، وكان قاب قوسين أو أدنى من تدمير مستقبله الوظيفى كليةً دون مبالغة، إلا أنه رغم ذلك ندم على عدائه للسادات، ندم على ذاك الشعار الذى لولاه ما خرج من حناجر الطلاب "سببان وجيهان سبب عدم دخولنا المعركة حتى الآن"..

راجع نفسه كثيرًا، وندم بقدر ما راجع، لم يكن الندم حزنًا على تأخير استلامه للعمل، أو تعرض مستقبله للخطر، ولكنه كان الندم على الموقف ذاته، فالسادات عنده هو أعظم من حكم مصر، قائد وطني كبير، لم يكن يحق له أن يأخذ منه موقفًا عدائيًا، إذ كان الرجل يُقدر كل الأمور بقدرها، وكان يخطط لكل صغيرة وكبيرة.

ربما يعطينا الاعتراف بالخطأ لونًا من ألوان الرجولة.. فالرجال وحدهم هم من يعتذرون إذا أخطأوا، هم من يرجعون من قريب.. أما المتغطرسون فهم الذين يكابرون ويعاندون، وتأخذهم العزة بالإثم.

(١٢)

مصر فى الشارع

لم تخلُ مصر يومًا من الطامعين، فما تطرد معتديًا إلا ليحل معتدٍ آخر، وما تطرد محتلاً إلا ومحتلٌ جديد يُعد عُدته للنيل منها، ولطالما انتصرت على المعتدين، ولطالما أذلتهم وجعلت لهم من باطنها مقبرة لهم، ولكن الشيء الوحيد الذى لم تستطع مصر أن تقضى عليه أبدًا هو الطمع والحقد الذى يأكل القلوب ويغزوها غزوًا أشد من غزو السلاح والطيران.. فعيون الطامعين تسهر دومًا على مصر.. قلوب الحاقدين تعيش فى مصر وإن سكنت أبدانها أوطانًا غير مصر.. فمصر صاحبة حضارة السبعة آلاف سنة، هذه حقيقة أثبتها عدول الأرض كلهم، ليست من قبيل المبالغة أو تزيين الصورة كتلك الحماقات التى يرتكبها رعاة الإبل والبقر الذين لم تتجاوز عمر دولهم عشرات السنين ثم هم ينسبون لأنفسهم تاريخًا مزيفًا من حضارة وهمية لم تجد النور إلا فى أخيلتهم هم وأحلامهم، ثم يتطاولون على أصحاب الحضارة الأصليين.

لـك الله يـا وطـن.. كانـت تلـك هـى الكلمـة التـى تنطـلق علـى لسـان صـاحبنا منـذ صـباه.. لـم يتجـاوز عمـره أربعـة عشـر عامًـا إذ يجـد مطـارات مصـر قـد ضُـربت، طيرانهـا ضُـرب علـى الأرض.. ترسـانات الأسلحة تم تدميرها.. أصبح الجيش شبه أعزل من السلاح، ليدخل الصهاينة أرض الفيروز في بضع دقائق أو يكادون.. في ذات الوقت الذى تبكـى فيـه مصـر وتنـزف يخـرج صـوت أحمـد سـعيد مـن الإذاعـة معلنًـا انتصـارًا كاذبًـا لقواتنـا ومعلنًـا أن إسـرائيل لـم تعُـد موجـودة علـى الأرض.. هكذا نطق.. وهكذا سال لُعاب البسطاء من الشعب، أولئك الطيبين الذين لم يعلموا شيئًا عن المأساة.

مئات الجنود من أبطالنا استُشهدوا.. الهزيمة على الأرض.. والنصـر فـي الراديـو وحـده.. لتخـرج مصـر كلهـا إلـى الشـارع.. مصـر الباكيـة، الحزينة.. المظلومة.. المقهورة.

إنه يوم من أيام الحزن.. سجله التاريخ في الذاكرة، ٥ يونيو ١٩٦٧م، ليخرج على الإثر الراحل الخالد جمال عبد الناصر متحملاً كالأبطال مسئوليته، معلنًا التنحي، وخرجت كلماته بصدق من قلبه الصادق، تلك التي جرت على القلوب فتركتها ذبيحة، وعلى العيون فأسالت

منها الدمع أدمعًا: "لقد قررت أن أتنحى تمامًا ونهائيًا عن أي منصب رسمي، وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير أؤدى واجبى معها كأي مواطنٍ آخر".

استأذن جمال ولم يأذن الشعب، قدم استقالته ولم يقبلها الشعب، لتخرج مصر عن بكرة أبيها للمرة الثانية في الشارع، لن ترحل يا جمال، ابق فالله معك.. وخرجت أم كلثوم لتشدو بصوتها" ابق فأنت حبيب الشعب".. خرجت الكلمات لتغازل الزعيم، ولتربط على قلب الشعب المكلوم:" قم واسمعها من أعماقى فأنا الشعب.. ابق فأنت السد الواقى لمنى الشعب.. ابق فأنت الأمل الباقى لغد الشعب.. أنت الخير وأنت النور، أنت الصبر على المقدور، أنت الناصر والمنصور، ابق فأنت حبيب الشعب"..

سنوات عاشتها مصر تحت الضغط، بين اقتصادٍ منهار، وشباب ثائر يريد الحرب، وزعيم لا يهدأ صوته ولا يرتاح فؤاده، بل يكاد لا ينام حزنًا وقهرًا.. هكذا سمت الرجال الأمناء المخلصين.. كان إيمان عبد الناصر بمصر إيمانًا لا يتزعزع، لعله يشبه إيمان جبريل بالوحى الذى يحمله، أو إيمان النبى محمد (ﷺ) حين أبى ترك الرسالة ولو

خاطبته الشمس وكلَّمه القمر.. هكذا أحسب عبد الناصر، ذاك الذى صدع ليل نهار " ما أُخذ بالقوة لابُد وأن يُسترد بالقوة"..

وهكذا رافقته أمنيات الشعب ودعوات الثكالى والأرامل والأولياء، مصر كلها في دعاء، في الخندق، خندق المقاومة.. مصر كلها في الشارع، تبيت في الشارع وتصحو.. لا همَّ لها سوى الثأر، ولا مطلوب لها سوى استرداد الكرامة.

آلاف الأسر من أبناء القناة تركوا أوطانهم وهُجروا إلى ربوع مصر، الدلتا استقبلت منهم الآلاف، أنشأوا أوطانًا جديدة، وبيوتًا جديدة، وأعمالاً جديدة، أُخرجوا من ديارهم بغير حق، بسبب محتل غشوم، لا يعرف له التاريخ دينًا ولا وطنًا.

خرجت مصر إلى الشارع منذ النكسة في الخامس من يونيو ١٩٦٧م، وظلت فيه حتى خطاب التنحى للخالد جمال عبد الناصر، وما استقر أحد في بيته منذ هذا التاريخ، بل ظلت مصر تحلُم دون أن تنام.. وتنام دون أن يأخذها النُعاس، وما غشاها النعاس يوم الثامن والعشرين من سبتمبر حتى أفاقت على خبر وفاة عبد الناصر.

سمعت هذه الحكاية من صاحبنا وحده، وقرأتها في التاريخ لدى عشرات الكتب وعشرات الكتَّاب، لكنها كلها لم تُحدث بى الأثر كما سمعتها منه: "كان عمرى سبعة عشر عامًا، خرجت هائمًا على وجهى، أبكى ولا يسعفنى البكاء، أصرخ في أعماقى فيمزق صوت الصراخ قلبى وروحى ويكاد يُزهق البقية الباقية من عقلى.. لا أحد يسمع الصراخ غيرى.. لا أحد يرى تمزق القلب سواي.. زاد صراخى وبكائى أن وجدت مصر كلها تصرخ وتبكى، كانت كلمة "مع السلامة يا جمال.. يا حبيبى يا جمال" تزهق لها الأرواح، تبكى لها الأعين بكاءً ليس كالبكاء، إذ المصيبة ليست كأى مصيبة، وإذ الخبر ليس كأى خبر"..

لم أعاين هذه الأحداث إذ ولدت بعدها بما يزيد عن العشر سنوات، ولكنى لست أدري شيئًا عن سر البكاء عند ذكر هذه الأحداث مرة أخرى.. جمال عبد الناصر حرَّر مصر من سجنها الكبير.. طرد الإنجليز، أخذ منهم قناة السويس عنوة.. أقام عدالة اجتماعية إذ قضى على الإقطاعيين الذين ناصبوه العداء حيًا وميتًا..

أراد بناء جيش قوى، حلُم بالوحدة العربية التى تجمع شتات الوطن واتخذ في سبيلها إجراءات فعلية فصار الحُلم واقعًا بوحدة مصر وسوريا.. نعم، لقد أسال جمال دماء الإسلاميين وأعدم خيرتهم، ودماؤهم في رقبته، ولكن هذا الأسى لم ينسنى الأسى الأكبر.. أسى مصر إذ هي تحت الاحتلال، ثم هى تحت القصف.. ثم هى ناصبة الأقدام في الشوارع.. لم ينسنى طهارة قلب جمال، صدقه، إخلاصه، وفاءه لبلده، حبه لوطنه، ذاك الحب الذى أكاد أزعم ألم يأت أحد بعده بقدر هذا الحب، حاكمًا كان أو محكومًا.

جمال مجرد ملخص لأحلام كبيرة، وطموحات لم تكن تجرى سوى فوق سحاب الأمنيات، في أخيلة أصحاب القصص الحالمة، أصحاب المواهب الفذة في التأليف، كان قلبًا أبيضًا كبيرًا، مشروعًا ضخمًا للإنسانية، نعم للإنسانية وليس للقومية وحدها كما صنفه البعض، وكم ألهم فكر جمال المفكرين، كم أشعل الأحلام والأمنيات في قلوب الناس من جديد..

كان صاحبنا أحد أولئك الذين أحبوا جمال بصدق، أحد الذين تشبعوا بفكر جمال، وعقل جمال، ورؤية جمال، لذا كان ذكر جمال عبد الناصر ضرورة من الضرورات التى تُقرب إلينا الشخصية.

شارك صاحبنا في حركة الإصلاح التى قادها السادات، فلو كان جمال عبد الناصر أطهر من حكم مصر، فإن أنور السادات أحكم من قادها من وجهة نظر صاحبنا.

شملت حركة الإصلاح منح الحريات للطلبة.. نعم، لقد كانت هذه الحريات مقيدة بقيود كثيرة، ولكنها على أية حال كانت خطوة نحو إنشاء جمهورية ديموقراطية وليدة، لازالت تحبو أولى عثراتها نحو الديمرقراطية، أضف إلى ذلك أن الظروف تختلف كثيرًا بين عبد الناصر والسادات، فعبد الناصر قاد ثورة، لم يكن يعرف من معه ومن ضده.. والحقيقة أن كثيرين كانوا ضده، خاصة حين أعلن إقامة عدالة اجتماعية واجتزاز الثروات الباهظة التى يرقص فوقها الإقطاعيون، في حين يئن الشعب تحت نير الفقر والجهل والمرض.. فكان عبد الناصر يؤمن بالحرية في حين أن سجونه تمارس أسوأ أنواع الاستعباد والاستبداد، كان لسان عبد الناصر يردد:

"ارفع رأسك يا أخى فقد مضى زمن الاستعباد" لكن الرؤوس لم تكن لترتفع قط إذ يُحنيها الجلاد، ويقهرها الاستبداد، ويدير السجن الحربى بلطجية باسم الوطن، وباسم الوطنية..

قتلوا آلاف الأشراف والأطهار بحجة الوطن وباسم الوطنية، أمموا الصحف وكمموا الأفواه باسم الوطن والوطنية.. وكم ظلموا الوطن، وكم قتلوا الوطنية.

عبد الناصر كان صورة للحاكم، لكنه لم يكن يحكم بالصلاحيات الكاملة.. كانت أمورًا كثيرة تجرى من ورائه، ولكن السادات كان أكثر حظًا منه في هذه الناحية، إذ أن الثورة كانت قد حققت غالبية أهدافها، فاطمأنت البلاد واستقرت واطمأن معها الحكم واستقر الحاكم، وقطع السادات مسافات طويلة في طريق الإصلاح، ففتح قنوات الرأى والرأي الآخر؛ وأنصت للجميع، وأقام معركة وهمية بين الإسلاميين والشيوعيين ثم وقف ليشاهد مستمتعًا .. كان رجلاً ذكيًا بحق.. سياسى من طرازٍ فريد.

أصلح السادات الجيش.. أصلح السياسة.. أراد بناء وطن حقيقى، ولكن هناك عقبة لا تزال في الطريق، إنها الصهيونية، ولن يُبنى وطن أبدًا يقع تحت نيران الاحتلال، فطرد المحتل هو الأولوية التى تقف من دونها كل الأولويات.. وهو الغاية التى تنحنى لشرفها كل الغايات.

كان صاحبنا في هذه الأثناء كلها في مرحلة البناء، بناء الفكر، بناء الشخصية، بناء الوجدان.. كان في مرحلة التشكُل الأخيرة التى ستصبغ شخصيته أبد الدهر بما تُشكله هذه الأحداث.. إن أيامًا ثلاثة تملأ وجدانه ولا تزال، لم تبرح ذاكرته بعد .. يوم النكسة.. ويوم التنحى.. ويوم وفاة جمال..

وهو إذ يخرج في مظاهرات ضد السادات مطالبًا بالحسم وبالإصلاحات السياسية؛ تلك التى قدم لها مقترحات جريئة وعميقة أثناء تواجده باتحاد طلاب كلية الآداب جامعة القاهرة، فإنه أكثر الناس تلهفًا للخلاص.. خلاص الأرض.. خلاص الوطن.. إنه يتلقى مع زملائه الثائرين وعموم الشعب بيانات السادات بفارغ الصبر..

يتعجل القرار، يتعجل الحرب، يود ألو يخرج هو وجيله ليحاربوا وحدهم.. هكذا تعجلوا الأمر، وهكذا قادتهم مشاعرهم دون أن يحسبوا لها عُدتها ومقوماتها، ثم يحسبوا ما وراءها.

ومرت الأيام والإصلاحات تسير على قدمٍ وساق.. لا يأتى الليل على جيشنا مدة ست سنوات، بدأها الجيش بحرب الاستنزاف تلك التى طالت سنوات، لم ينم فيها الأبطال، فاليوم كله نهار، لا تعاقب لليل عندهم، حتى أعطاهم ربهم جزاء صبرهم وسعيهم نصرًا وفتحًا قريبًا.

صاحبنا في شوبر، حيث شهر رمضان وهو طالب بالفرقة الثالثة بالكلية، ولم يكن سافر للدراسة التى بدأت منذ أسبوع تقريبًا، ولا أظن أن أحدًا في مصر كان يعمل أو يدرس في هذه الأثناء، بل أحسب أن مدد السماء كان قد نزل على مصر، فالقلوب قلوب أولياء.. والدعاء لا يفتر في كل بيت، وفى كل حقل، وفى كل مصنع.. مصر كلها في حرب.. حرب الدعاء، وحرب الإيمان، في ذات الوقت الذى يقود فيه جيشنا الباسل حربه بالأسلحة وبالدبابات وبالطيران..

سماء مصر تبرق وترعد على غير موعد مع الشتاء.. في ذات الآن الذي تُذاع فيه بيانات الجيش، لكنها هذه المرة بيانات صدق، بيانات صادقة من كل وجه، في كل حرف.. مصر في معركة حقيقية، نسور الجو يحلقون في الجو في سماء مصر ما يمسكهم إلا الله.. شيءٌ جديدٌ يحدث.. العالم كله يتحرك، كله يتوسل إلى مصر بإيقاف الحرب، في ذات الوقت الذى يعبر فيه الجنود البواسل قناة السويس.. في ذات اللحظة التى يدمرون فيها خط بارليف، في ذات الآن الذى يُقهر فيه جيش من ورق، كيان مغتصب.. معتدى.. متغطرس..

ست ساعات أفقدت العدو طيرانه وسلاحه وجنوده.. في ست ساعات فقط تنتصر مصر، ترتفع أعلامها الخالدة فوق كل مكان، صيحات الله أكبر تعانق السماء.. جند الله يقاتلون مع جندنا.. ملائكة السماء يرفعون المظلات فوق جندنا، يكبرون معهم.. تملأ صيحاتهم آفاق السماء، وتضرب في جذور الأرض.. الله أكبر الله أكبر والعزة لله.. الله أكبر الله أكبر وما النصر إلا من عند الله ..

يخرج صاحبنا إلى أعلى تل في القرية.. يبكي، يُمسك بالورقة والقلم، إذ لا يملك حينها سلاحًا غيرهما.. يشاهد معركة الطيران.. يسمع أن طائرة صهيونية أسقطت في أرض عبد العزيز البوشى، فيذهب مسرعًا مع رفاقه إلى هناك.. يسجل الحدث.. يرفع الصوت بالتكبير..

لكنه لم يكن مؤمنًا بهذا التكبير بعد، بل كان مؤمنًا بأن النصر من العمل.. من الاجتهاد، من المقومات المادية وحدها، إذ كان لا يزال حتى ذاك الحين أسيرًا للوجودية، لم يتحرر منها بعد.

غير أن صيحات الجنود الله أكبر لا شك خالطت قلبه.. لا شك أن طعم النصر أحدث هزةً ما بداخله.. لعلها البداية في التوجه إلى الله، في الإيمان بأن النصر من عند الله، وبأن الله هو كل شيء، وإليه أمر ومصير كل شيء.

الله يسكن مصر، لا، إنه يسكن الوجود كله.. هذا صحيح.. ولكنى على يقين أنه يسكن مصر بالأكثر، يحب مصر أكثر من بقية أرضه.. يبارك لمصر في خيرها وأرضها ونيلها أكثر مما يبارك بقية ملكه.. مصر على عين الله، في رحابه الأكرم، وصدق نبى الله

يوسف إذ قدم هذا التوصيف الإلهى {ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ} (يوسف٩٩).

لقد شكلت هذه الأحداث كلها وعيَّ صاحبنا، شكلت وجدانه، وجهَّت فكره.. فلم يكن وقوف مصر في الشارع بالشيء الهين في نفسه، ولا بالشيء اليسير، بل كان بمثابة الوقوف في مفترق الطرق.. إما الوجودية وإما الإيمان.. إما الوطن وإما لا وطن.. إما النهضة العربية، العربية في كل شيء، في المقومات، وفى العقل، وفى اللسان، وفى البنيان، وفى الإنسان.. وإما الإنسلاخ من العربية والارتماء في أحضان الغرب والانبهار بالغرب، والسير في رحاب الغرب.. إنه صراع الأضداد، ذاك الذى بدأ يتشكل في وجدان صاحبنا منذ زمنٍ بعيد، لعل أحداث نصر أكتوبر كانت بدايته، والسفر إلى أوروبا كان أبرز مراحله.. ثم التنبؤ بانهيار الحضارة الغربية كان أعظم قناعاته، ثم الفناء لأجل بناء وحدة عربية حقيقية وصناعة نهضة عربية ذات أسس قويمة هى الثمرة العظمى في نهاية المطاف.

إنها أفكار عبد الناصر من ذى قبل..

ومبادئ عبد الناصر، ولكن إذا كان القدر قد كتب الفناء على عبد الناصر قبل أن يراها، فإن الله يبعث ذات الفكر من جديد، فكرًا يرسم الطريق للواقع لا فكرًا طوباويًا بلا أرجُل واقعية.. فكرًا يرسم الآليات والوسائل ويعمل حسابًا لكل شيء، ذاك كان هو اهتمام صاحبنا، هو مشروعه الذى كان الأمل في رحم الغيب، وما انقطع الأمل بعد، فاليأس من روح الله خيانة، وأي خيانة، والأمل في رحمة الله عبادة، وأي عبادة.

(١٣)

الهم الأكبر

يطالعنا جون لوك بالقول: "إن الإنسان يولد وعقله صفحة بيضاء، وكل ما يقوم به من سلوك هو عبارة عن شيء مكتسب من البيئة المحيطة".. فالبيئة هى التى تشكل عقل الفرد، الأحداث والظروف والوقائع هى التى تُشكل فكر أي فيلسوف، هى التى تحدد بوصلة عقله، هى التى تصنعه، فكل فيلسوف هو ابن شرعى لبيئته السياسية والاجتماعية، ما ينطق به من أفكار هى بمثابة أحلامه لبيئته، طموحاته لمجتمعه، أمنياته التى ولدت من عالم الغيب لكنها لم تر النور بعد، فتظل حبيسة سره إلى أن يأذن الله بميلاد فجرها، أو بزوغ شمسها، وقد يموت الفيلسوف، وتبقى أفكاره حية مضيئة دالة عليه، قد يولد جيل بعد عدة أجيال، يؤمنون بالفكرة ويضحون لأجلها، قد يبتعثون الفيلسوف من تحت التراب، يقوم من رقدته حيًا مستبشرًا، ينظر من علٍ إلى مشروعه، إلى فكره، إنه للتو خرج من الغيب إلى الشهادة.. من الظلمات إلى النور.. من رحم الأمل إلى الأمل ذاته.

قليلون أولئك المحظوظون برؤية مشاريعهم الفكرية تتحقق.. قلَّبت في كنف التاريخ، في زواياه المهملة، ودروبه المهجورة، وصفحاته الممزَّقة، فلم أعثر على فيلسوف واحدٍ تحقق مشروعه في حياته، اللهم إلا الملوك الفلاسفة مثل إختاتون وماركوس أوريليوس، وما تمكنوا من إقامة أفكارهم على الأرض إقامة تامة، وما تمكَّن سواهم من اتباع أثرهم ولو بالنذر اليسير.

رافقت صاحبنا منذ أربعة عشر عامًا مرافقة تامة.. ورافقته قبلها فكريًا مدة تزيد عن العشرين سنة، إذ كنت أقرأ كتبه، لم أكن أمتلك ثمن أكثرها، ولكن عميَّ الذى كان يأمل فىَّ الخير الكثير كان يذلل لى كافة الصعوبات المادية، قرأت له "فكرة الألوهية عند أفلاطون" فتسبب هذا الكتاب في فصلى من إدارة المدرسة الثانوية إذ كنت طالبًا بها لمدة ثلاثة أيام، لا يُغنى ذكر السبب ولا يُسمن من جوع، لكن أردت أن أخبرك يا صديقى بأن رحلتى مع صاحبنا قديمة للغاية، كما أنها مؤلمة، ومؤلمة للغاية.

أما تلك الأيام التى رافقته فيها حسًا وحدسًا فلم أر فيها ابتسامته التى كانت علامة مميزة له إلا نذرًا يسيرًا، فتراه يمشى وفوق كتفه أثقال وأحمال لا حصر لها، لم تكن إلا أثقال الوطن، وأحمال الوطن.. الوطن الصغير، مصر.. أم الكونين.. والوطن الكبير، العروبة الممزقة.

وطن يعيش الوهم.. وهم كبير، يعيش أسيرًا، في سجن الوهم.. أوهمه القوم بأن الغرب سادة التقدم، وأن الشرق لازال يحبو أولى خطواته نحو الوجود البشرى، لا التقدم الإنسانى، الوجود الحياتى، مجرد الوجود، مجرد الحياة التى لا تزيد عن حياة الأنعام في شيء إذ هم يأكلون ويتمتعون ويستهلكون ولا ينتجون.

كلها أوهام.. زيف.. كذب.. خداع.. أفلح الغربيون في تصويره لنا، وتزيينه في عقول أبنائنا، حتى يصيروا تُبعًا مسلوبى الإرادة، لا قوة لهم ولا إرادة.. لا كلمة لهم ولا عزيمة، تتحول أمنياتهم شيئًا فشيئًا فتصبح الأمنية المأمولة تقليد لباس الغرب، وطعام الغرب، وشكل الغربيين، ثم حين تتضح هذه الأمنية لا تبلغ أقصى من مجرد حلم السفر إلى الغرب وهجرة الوطن المكلوم.

يقلب صاحبنا كفًا بكف.. يصرخ في أمته، ينادى إذ لا يسمعه أحد، فصوت جماهير الكرة يشوش على صوته.. وصوت هتاف جماهير الحفلات الغنائية يكاد يخنق صوته.. وصوت الواقفين أمام السينما يكاد يُخفى صوته.. ولكنه وقف كالخليل إبراهيم إذ يؤدى رسالته "يا إبراهيم، عليك الأذان وعلينا البلاغ".

شكا لى ذات مرة على قلة شكواه، شكا بلغة مريرة هذا الواقع البئيس، وأحسبه لا يزال ممتلأ بالشكوى فكتب "إلى من نكتب النداءات.. إلى الضمير العربى".. تجاذبنا الحديث، قلت له أن الأنبياء دعاة لا أكثر، منذرين لا غير.. هكذا عبَّر القرآن غير مرة {إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ} (فاطر٢٣) {وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا} (الإسراء١٠٥) تلك هى ذات مسيرة الإصلاحيين الذين يسيرون على دروب الأنبياء، يرثونها كاملة، يرثون عذابها، يرثون وعورة طريقها، ووحشة أهلها، وقسوة المدعوين، وغلظة قلوبهم.. إنه ميراث، ميراث كبير يا سيدى، يصطفى الله له من يشاء {ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ} (الحج٧٥)..

أما سمعت حكم النبى الكريم (ﷺ) من قبل "العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بالحظ الوافر".. أما رأينا في قصص القرآن كيف أعرض الناس عن الأنبياء والدعاة والمصلحين.. بل كيف ناصبوهم العداء، وكفى بمؤمن آل فرعون شاهدًا {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} (غافر٢٨).. ألم تر إلى الذين قتلوا المصلحين والمفكرين.. بل ألم تذكر لى وأنا طالب بالليسانس عبر كتابك "تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقى".. كيف سيق سقراط إلى المحاكمة ومنها إلى الإعدام، وكنت تتحسَّر في كلماتك وحروفك عليه وتعُده أنبل من أنجبت أثينا.

كنا نذكر هذا كله دون أن يزيدنا شيئًا غير الأسى، وغير الحزن.. كنا نشعر سويًا ألا شيء سيتغير، أو على أقل توصيف، فإن رياح التغيير لم تهبُ بعد..

في شتاء ٢٠١٥م جمعنا النقاش في شقة مدينة نصر، أنا وصاحبنا ومدام سعدية، تلك الزوجة الوفية التى أكاد ألا أرى نموذجًا مثلها، وكانت في ذاك الحين مديرًا لتحرير الأهرام..

وكانت تقص علينا من نبأ النهضة الغربية، والقطار الكهربائى الذى وُضعت شفرته بالثانية، فهو يغادر المحطة في حساب الوقت بالثانية، ويصل إلى أخرى بذات المقياس العددي، إنها مدنية بحق تسلب العقول..

كنت أسمع إليها وأنا أحتسى القهوة مشدوهًا متعجبًا، غير أن صاحبنا كأنما قد سئم تلك النغمات التى تزين التفوق الغربى فقاطعها منتفضًا هذا كله لا شيء فيه، يمكننا أن نصنع صناعات متقدمة لم تخطر لهم على بال، إذا توافرت لدينا الإرادة، وأول تلك الإرادات هى الإرادة السياسية، إياكم وأن تصدقوا أن بيننا وبين الغرب مئات السنوات الضوئية، هذا وهم كبيرٌ سوقوه لنا ليضعفوا من عزيمتنا، ليجعلونا صرعى وأسرى وهم المستحيل، وهم الذين زينوا لنا فرية التقدم الغربى، وفرية الحضارة التى لم تشرق الشمس على مثيل لها، صوروا لنا هذه الأوهام كلها ليجعلونا مسلوبى الإرادة، ضائعى الهوية، ثم يتركونا في

عُرى الصحراء، قابعين خلف الزمن، خلف أشتات الوجود وردهات الحياة".

كنت أنظر إليه حين هذا الحديث إذ كنت متألمًا لألمه بذاك السر الذى وضعه الله في قلبى، كنت أريد أن أهدئ من روعه، أن أقول له لا تحزن فعسى الله أن يبعث جيلاً يفند كل هذه الأكاذيب، ويُذيب كل هذه الأوهام، ولكنى لم أجد في نفسى القدرة على الهمس ولو بحرف، لأنه بقدر الحب الذى له في قلبي، بقدر الهيبة التي تتملكني في رحابه.

مضى في حديثه ولم يعبأ بكل ما يطوف برأسي: "أتعرف يا محمد أن المواد الخام التى تنهض على أساسها أوروبا هى من خيرات أرضنا.. أتعرف أن أوروبا لا تمتلك أقل القليل وأيسره مما وهبنا الله إياه واستودعه أرضنا، فيشترون المواد الخام بثمنٍ بخس، وحكامنا في الثمن من الزاهدين، ثم هم يبنون المصانع ويُصدرون التكنولوجيا ويتعملقون اقتصاديًا، إن كل تعملق للغرب يقابله تخلف لنا..

وكل تقدم للغرب تضاهيه تبعية لنا، إذ نسير خلفه كالقطيع، وكل جرام نُفرط فيه من مواردنا يبعدنا عن التقدم سنة، وكل رصاصة يطلقها بعضنا صوب صدور البعض تبعدنا عن الوحدة دهرًا..

إن أمة ممزقة، متقاتلة، متصارعة على أبسط الأمور، لا يربطها رابط واحد على كثرة ما بينها من روابط.. وتعصف بفرقتها أسباب واهية على قلة تلك الأسباب، فتتطاير نذر الحرب ويشتد لهيبها.. حربٌ أهلية هنا.. ثم على بُعد كيلوات شرقًا أو غربًا تجد حربًا أيديولوجية وقودها المسلمون وحدهم، العرب وحدهم.. اقتتال طائفيّ غذاه بنو صهيون بمساعدة الغربيين، هم يصنعون السلاح، ونحن نستهلكه.. هم ينعشون اقتصادهم ببيع السلاح، ونحن ندمر اقتصادنا بشرائه.. هم يبنون الإنسان اقتصاديًا وعلميًا ويستثمرون في البشر.. ونحن نقتل الإنسان ونرى في الثروة البشرية كارثة إنسانية!!".

هذا الحديث لا شك يُحدث في النفس الأثر، يولد فيها ما يشبه صراعًا بين طرفين، شركاء متشاكسون، لا يقبل أحدهم برأى صاحبه.. هكذا هموم الوطن لا تدرى لها وجهة، ولا تعلم لها مصيرًا.

سكت صاحبنا للحظة، ثم تذكر أنه نسى شيئًا فاستأنف الحديث من جديد: "اختلف الأشقاء حتى وصل الخلاف إلى حد القطيعة مع البعض، ودق طبول الحرب مع آخرين، وأصبح القاتل والمقتول كلاهما عربيان، كلاهما مسلمان.. على أي شيء يتصارعوا، لست أدرى، كل ما أتيقن منه أن الغرب أفلح في غرس الفتنة واستنبات أعظم الثمار منها فوق أرضنا الطيبة، وإلا فلتفسر لى تلك الحرب الطائفية في العراق.. وذاك الاقتتال الأيديولوجى في ليبيا، ومثله في لبنان.. ثم هذا الليل الطويل الذى لم تظهر له شمس بعد أو يتعاقب عليه النهار في سوريا".

شعُرت بالدوار، بأننى فقدت كل قدرة على التركيز، فقلت له، ويبدو أنك نسيت قضيتنا الكبرى، فلسطين، فلا زال الجرح ينزف هناك في كل لحظة، وفوق كل شبر، ولا زال الحصار مستمرًا من الأشقاء، من الإخوة في الدين، والإخوة في اللسان، وفى الوطن.

أنسيت غدر الصهاينة، أسرانا بالألوف الذين يقبعون تحت الأرض في ظلمات سجون الاحتلال.. أطفالنا الذين لم يروا الدنيا إلا للحظات معدودات ثم حصدهم الطيران الصهيونى..

ثم تلك الاقتحامات التى ينفذها المستوطنون في حماية الشرطة الصهيونية المدعمة بالجيش الصهيونى أمام مرأى ومسمع العالم كله، بما فيه أمتى المكلومة؟!

إنه تاريخ لا يُنسى.. تاريخ مليء بالدماء.. بالعدوان.. بالغدر.. ثم أخذنى الحزن إلى حدة لا أعلم لها مصدرًا غير الحزن الذى مزق نياط قلبى، فوجهت حديثى إلى مدام سعدية إذ كنت أشعر بشغفها علىَّ " هل الله عادل.. هل الله موجود".. أستغفر الله يا ولدى، الله حىَّ قيوم.. يملأ وجوده أركان السماوات والأرض.. هكذا ردت، لكنى قاطعتها بحدة أشد من سابقتها: "إذا كان عادلاً فلماذا لم ينتصر للعدل والحق.. إذا كان موجودًا فلماذا لا يثبت للظالمين أنه موجود.. لماذا ترك القتل يستمر في المخلوق الذى كرَّمه، ألم يقل هو لنا {وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا} (الإسراء ٧٠) إذن فلماذا ترك ابن أدم يُقتل.. ألم يقل النبى (ﷺ) "إن زوال الكعبة أهون عند الله من دم امرئ مسلم" فلماذا استعر القتل وسالت الدماء أبحُرًا، ولم يتحرك الله، ولم يتغير شيئٌ".

هنـا، وهنـا فقـط يتـدخل صـاحبنا.. يبـدو أن حـديثى ذكَّـره بماضـى الوجودية، فانتفض .. اسكت يا بنـى.. اسكت.. أنت لا تفهم شيء.. الله موجود، عادل، رحيم، لطيف.. لكنها أقدار كتبها الله على خلقه، لو أن الله تدخل في الكون عند كل مظلمة لينصر المظلوم وينتقم من الظالم فلن تكون هناك حياة.. لن يكون هناك تدافع، والتدافع هو سر الحياة {وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} (الحج٤٠).. قانون التدافع لابد أن يسرى إلـى منتهاه، والدنيا دار عمل لا جزاء.. اعملوا ما شئتم، فأمام الله اللقاء، وأمام الله الحساب..

هذا منطق جيد، أضفى قليلاً من الراحة إلـيَّ.. وتسرب شـيء من السكينة إلى قلبى، لكننى لم أقتنع القناعة التى تريح قلبى راحة كاملة، ويبدو أن صاحبنا لمس ذلك بحدسه، فأخذ الحديث إلى شيء بعيد تمامًا.. "تُرى، لو أننا كنا أمة واحدة، متفاهمة، متعاونة لا متقاتلة، هل كانت فلسطين ستظل تحت نير القهر"..

سأل هذا السؤال وساد صمت عميق، يبدو أنه كان ينتظر من أحدنا الإجابة، ولكن زوجته كانت قد أغرقت في التفكير، في ذات الآن الذى أغرقت فيه في الحزن.. لكن انتباهة غشيتنى فمزقت هذا الصمت قائلاً: "كلا .. كلا والله.. لم تُقم للصهيونية قائمة إلا بتخاذلنا.. بضعفنا.. بخوارنا.. إسرائيل قوية بنا..

أولاً بضعفنا وتشرذمنا، وثانيًا بتعاون المتآمرين والخونة من بنى جلدتنا وأهل قوميتنا وأصحاب لساننا، فلو أننا حققنا الوحدة الحقيقية بين شعوبنا وأنظمتنا، ولعلها موجودة بالفعل بين الشعوب متناحرة بين الأنظمة، لما كان لإسرائيل كلمة، بل ولا وجود بالأساس".

أشعل الحديث الذهن لدينا جميعًا على تأخرنا في الليل إذ اعتدت النوم مبكرًا بمثل ما اعتاده صاحبنا، فكلانا من أصحاب المفهوم القديم الذى كتبه مؤلفو كتب الثورة على أغلفة كتب الوزارة "نم مبكرًا واستيقظ مبكرًا"..

وكان النوم يطاردنا، إلا أن مدام سعدية بادرتنا بالقول لقد تذكرت الآن آية من الذكر الحكيم يقول الله فيها {تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ} (الحشر ١٤) قلت لها، سبحان الله، هذه الآية ذُكرت في وصف بنى إسرائيل في سورة الحشر، وقدمت لهم توصيفًا يلزمهم به عار الدنيا والآخرة {لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ} (الحشر ١٤) فقالت: ولكن هذا حالنا نحن اليوم.. نحن من يقتل بعضنا بعضًا، بأسنا بيننا شديد.. ثم نحن كحمامة السلام أمام الأعداء الحقيقيين.. فلا تجد لنا شوكة، لا في الاقتصاد.. ولا في السياسة.. ولا في أي لونٍ من ألوان القوة، اللهم إلا التفاخر بالحضارة وبالحجارة، ثم لا شيء.

شبه اتفاق يبدو أنه قد جرى بين ثلاثتنا في صمت أن نُنهى الحديث الليلة، فكلما استرسلنا في قضية داهمتنا قضايا.. وكلما أوصدنا مشكلة هاجمتنا مشكلات، ولعل النُعاس سلب شيئًا من التركيز فآثرنا النوم على الحوار.

وكم للنوم من مزايا.. وكم للحوار من متاعب.

النوم يُضفى راحة على الجسد.. ولكن الحوار يجلب الأعباء والمتاعب.. النوم ينقل الإنسان من واقع أليم إلى حلم لذيذ.. ولكن الحوار ينقله من حلم لذيذ إلى واقع بئيس.. النوم يُريح الأعصاب.. ولكن الحوار يرفع الضغط ويخفض السكر في الجسم وقد يُعرض صاحبه لنوبة قلبية، فليحيا النوم.. وتبًا وألف تب للحوار.. ما أغنى عنه حديثه وما كسب.. سيصلى نارًا ذات لهب.

ولكن النوم لن يطول، فالإنسان خُلق للعمل لا للنوم.. للجد والكد والكبد لا للراحة والدعة.. للمغامرة لا للاستسلام.

سيمضى الليل ويقبل النهار.. ثم يقبل الحوار.. ثم يولد الفكر من جديد، وتنبعث معه الهموم من جديد.. وتتكاثر المتاعب وينشق فجر الأحزان.

******

بدأت أمريكا في طغيانها الأكبر عقب الحادي عشر من سبتمبر الشهير.. مارست البلطجة الفعلية على شعوب العالم المستضعفة، تلك التى لم تكن سوانا.. فنحن المستضعفون.. نحن الضائعون.. الذين لا وزن لهم ولا قيمة.

وفى ذات الوقت الذى تتجبر فيه أمريكا وتتكبر وتتصرف في كون الله كأنه كونها.. كأنها إله الكون من دون الله، كانت الصين تفتح آفاقًا نحو القوة والسيادة عبر طول العالم وعرضه.. وهذا الأمر لفت نظر صاحبنا، فانشغل به، وقدم النصح للأمة العربية بالوحدة، ثم بالاتجاه نحو الشرق، نحو الصين، العملاق القادم بقوة.. كان ذلك في كتاب " ما بعد العولمة" فكأنك تشعر حين قراءة هذا الكتاب أن صاحبه قد كُشف عنه الغطاء.. أو أن حجُب الغيب قد أزيلت من أمام عينيه، أو أن السماء قد اختصته بسرٍ من أسرارها، تلك التى لا يحيط بها أحد علمًا، ولا يُظهر سبحانه على غيبه أحدًا.

الاتحاد قوة.. والأمة العربية أمامها الفرصة العظمى لتكوين وحدة حقيقية، وحدة اقتصادية.. وحدة علمية.. وحدة شاملة.

وحدة تقوم على استغلال الأراضي الزراعية في تلك البلدان التى نُهدر فيها هذه الثروة الهائلة.. واستغلال رؤوس الأموال في الأقطار البترولية، واستغلال الثروة البشرية في تلك الأقطار الكبرى التي تمتلك هذه الثروة التي لو أُحسن استغلالها لتغير الشرق والغرب.. ولتغيرت معالم الخريطة الدولية من حيث القوة والتأثير ونفوذ الكلمة وصناعة القرار.

كان صاحبنا يحلم بهذا اليوم الذى يرى فيه نورًا من قبس الماضي إذ اتحدت مصر وسوريا .. وإذ اتحدت الجيوش العربية ضد المحتل في العام ١٩٤٨م.. ودواعى الوحدة اليوم أكثر من أى يومٍ مضى.. ومقومات الوحدة اليوم أكبر وأعظم من تلك التى مضت.. وظروف العالم اليوم أكثر مواتاة من أي وقتٍ مضى.

أمريكا ستسقط إذ طغت وأفرطت في القوة.. والصين ستصعد إذ التمست أسباب التقدم من العلم والعمل.. وليس أمام الأمة العربية إلا أن تتحد لتحقيق مصيرها وحماية مستقبلها، وإلا فالمصير المحتوم هو الفناء، ثم الاندثار بين أقدام عالم لا يرحم.

في صيف ٢٠١٣م كانت الأحداث العربية ساخنة للغاية.. مصر في قلق وتوتر وعدم استقرار.. حرب أهلية تمزق ليبيا تمزيقًا.. العراق لم يذق طعم الاستقرار، سوريا تنزف دمًا لم نر له مثيلاً في العالم وليس في أرضنا العربية وحدها.. وهذا الوضع المزر كان يأسف له صاحبنا أي أسف.. كان مؤمنًا بضرورة التغيير الحقيقى، تغيير سياسات وقناعات لا تغيير أنظمة وحكومات.. تغيير أفكار لا تغيير حكومات..

كان يؤمن بأن هذا التغيير لن يحدث في يومٍ وليلة، لأنه يستلزم البناء والجد والاجتهاد.. يستلزم خبرة الزمن وتعاقب أيامه وأحداثه.. يستلزم الاستفادة التراكمية من التجارب الحزينة التى عاشها الوطن.. والخبرات السلبية التى تركت آثارها على أركانه المترامية.

والتغيير سنة الحياة، الاختلاف سنة كونية.. الأيام دول بين الناس نص إلهى {وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ} (آل عمران١٤٠)..

الوعي يزداد يومًا بعد يوم.. والمعارك التى خسرناها من قبل لن نخسرها مرة أخرى اليوم، فالمؤمن لا يُلدغ من جُحر واحد مرتين، المؤمن كيس فطن.. هذه قناعات صاحبنا.. عكف في صيف ٢٠١٣م على رسم خارطة طريق واقعى للوحدة العربية.. وضع فيها ضمانات حقيقية لبناء نهضة عربية تشمل كافة الميادين، الأس القويم لهذه النهضة هو الوحدة بين أقطارها، الوحدة في كل شيء، وحدة حقيقية، لا شكلية، وحدة تتجاوز الخلافات الأيديولوجية، والصراعات المذهبية، والمهاترات الطائفية، والمنافع الشخصية..

وحدة تسمو فوق مصالح الأحزاب والأفراد والجماعات، تقوم على أسس عامة وقوانين كلية تسرى على الجميع.. إذ الوطن فوق كل الأفراد، فوق كل الأحزاب، فوق كل المصالح.

دُعيت ذات مرة لمناقشة هذا الكتاب الذى عنونه صاحبنا بـ "الأورجانون العربي للمستقبل" في ساقية الصاوي، ذاك الأثر الثقافى الذى تركه المهندس عبد المنعم الصاوى وزير الثقافة الأسبق في مصر، الأثر النافع الذى هو علم يُنتفع به، والذى هو مكان للعلم والفكر لا غير..

تحدثت عن هذا الحلم الكبير، وعن صاحب هذا الحلم الفذ، نعم هو حلم كبير، لكنه ليس يوتوبيًا.. ليس مفارقًا.. إنه يمتلك آليات الوجود وأقدام الواقع.. لكن ربما يغيب عنه أعظم شيء، وأهم شيء، وهو توافر الإرادة السياسية المؤمنة بضرورة الوحدة، وضرورة النهضة، وقيمة البناء.

وما تركت مناسبة إلا كان حضور هذا الكتاب في اللقاء والمناقشة.. وكان حضور صاحبه في القلب والفؤاد، ثم هو لا يعدو أن يكون كلامًا.. مجرد كلام..

تنتهى اللقاءات ولا تغيير يحدث.. التغيير في أذهان المتكلمين وحدهم؛ لكن الأرض لازالت على عبثها وفسادها وضياعها.. تدور الرحى ولا طحن.. وهذا مبعث الأسى، ولعل صاحبنا عرف بداخلى هذا اليأس، فقال لى ذات مرة دون أن أسأله عن شيء "لديك هواجس كثيرة يا بنى، دعك منها.. كله بأمر الله.. أوروبا لم تقم لها قائمة إلا بعد أن قتلت الحروب العالمية خمسين مليونًا من أبنائها..

خمسين مليون إنسان أُزهقت أرواحهم ظلمًا وبغيًا على الإنسان، وعلى الحياة.. بغيًا على الوجود، وثورة على الله.. دماء طاهرة كانت ثمنًا للوحدة الأوروبية، وللنهضة الغربية، وللقوة الغربية".

قال هذه الجملة ثم دخل في صمت عميق.. لم أدعه وصمته، بل نقدت ما قاله، قلت في أسى: "ياه .. أتريد أن يُقتل منا خمسون مليون إنسان حتى نصنع وحدتنا، أكتب علينا نحن الفناء دون غيرنا؟! أيستمر القتل ويستعر لهيبه في أرضنا وحدنا.. لماذا؟" ولكنه يقاطعنى قبل إتمام السؤال: "إن شجرة الحرية لا تنبت إلا بالدماء.. هكذا جرى قلم القدر.. وهكذا رسمت الطريق الأيام".

(١٤)

موعد مع زويل

تلتقى الفلسفة بجميع العلوم إلى حدٍ بعيد، صحيح أن الفيلسوف قد لا يكون عالمًا، ولكن العالِم فيلسوف بدرجة ما.. قد تختلف طريقة التفكير بين الاثنين، ولكن التفكير لا ينعدم عند العالِم، قد يختلف فى منهجه وبنيته وماهيته عن الفيلسوف لكن تظل المسحة الفكرية تطارده، ويظل محتفظًا بجزء من التفلسف.. يؤيدنى فى هذا الرأي ما دلت عليه الوقائع، فقد ترى كتبًا فلسفية لعلماء فى العلوم الطبيعية والعملية كالكيمياء والبيولوجي وغيرها، مثل كتابات مصطفى محمود ومقالات زويل وكتابه "عصر العلم"، والأقدم من هذين الرجلين ابن خلدون، إذ أسس لعلم العمران عبر بوابة الفلسفة فى "المقدمة"، والأقدم من هؤلاء جميعًا، آرسطو، إذ كتب عن حياة الحيوان والنبات والطبيعة عبر بوابة الفلسفة، واستقصاء الأحداث والوقائع فى هذا الشأن يطول..

فـى الثالـث والعشرين مـن سبتمبر لعـام ٢٠١٢م كتـب صـاحبنا مقـالاً بالأهرام حمل عنوان "مدينة زويل وعصر المعرفة" وهو مقال فيه قليلٌ من الفكر كثيرٌ من التجديد، فالفكرة التى يعالجها فكرة مستقلة غير متشعبة كعادة كتاباته، ولكنها جديدة كل الجدة، مبدعة من كل وجوه الإبداع، قصد فيها الرجل توضيح فكرة رئيسية مفادها أن العالم المصرى أحمد زويل لا يريد بناء جامعة لمجرد البناء ومجرد الجامعة..

هذا ليس واردًا على الإطلاق، إذ ليس الأمر مجرد جامعة تحمل اسمه، وليس الأمر مجرد بنايات أو بحث عن ربح أو استثمار اقتصادي، هذا ظلمٌ كبير لمشروع كبير لرجل عظيم، ولكن الرجل نادى بالجامعة لتكون حاضنة لمشروعه الفكرى، فالجامعة ليست سوى المكان العلمى والإطار المكانى لتنفيذ أفكاره، تلك التى تقوم على فكرة رئيسة مؤداها بناء مدينة للمعرفة تضم الطلاب المتميزين القادرين على الابتكار والاختراع، ثم تقوم الجامعة بتنفيذ مشاريعهم الابتكارية والإبداعية بداخل أسوارها، بما يعنى إنهاء مسألة التعليم النظري والبدء عبر جامعة زويل فى ربط النظرية بالتطبيق، وهو

مشروع طموح يتلاقى مع مشروع صاحبنا الفكرى فى إرادة بناء الإنسان العربى، وصناعة العقل العربى والارتقاء بالإنسان عبر بنائه فكريًا ووجدانيًا.

لم يقدم صاحبنا جديدًا في هذه القضية إذا نظرنا إليها من منظور موضوعى، إذ هى قضية تشغله ضمن مشروعه الفكري وعليها الكثير من الدلائل مما كتب من قبل، ولكن الجديد فيها أنها تُعد ذات رؤية زويل، ومن ثمَّ كان التلاقي في هذه الفكرة مثار حماس صاحبنا للكتابة عنها والإشادة بها.

وأعقب الرجل بمقالٍ آخر حمل عنوان "عصر زويل ونهضة مصر العلمية"، وكان بمثابة الإشادة بصاحب نوبل، إذ كان التأكيد على أن اختراع زويل للمقياس الزمنى الدقيق" الفيمتو ثانية" سيدخل كل العلوم ويؤثر فيها، ومن ثمَّ ستنتقل العلوم إلى مجرى جديد في ضوء هذا الاختراع.. وهو ما يُضفى الأحقية على صاحب نوبل في تسمية العصر باسمه..

فإذا كان العصر القديم هو عصر آرسطو، وعصر النهضة هو عصر نيوتن والعصر الحديث هو عصر أينشتاين، فإن التاريخ المعاصر سيتوقف كثيرًا أمام صاحب نوبل، ومن ثمَّ رأى صاحبنا أنه عصر العلم، عصر زويل..

وتوقع الرجل في هذا المقال حصول زويل على جوائز أخرى نظرًا لعظمة اختراعه وأثره الكبير على العلم وعلى البشرية، وهو ما أثار اهتمام زويل، إذ سارع عقب هذا المقال إلى الاتصال بصاحبنا في مكالمة استغرقت خمسًا وأربعين دقيقة، بدأها زويل بالشكر على هذا المقال لأنه بحسب رأيه أثار لفتةً جديدة تمامًا لم يلتفت إليها كل من كتب عنه بلغات الأرض كلها، فالأمر ليس مجرد جامعة، ولكنه نقلة حضارية لمصر، نقلة حضارية كبرى عبر بناء الإنسان والارتقاء بعقله وتنمية عوامل الإبداع فيه وملكاته الفكرية والابتكارية..

ولست أدري أي سرٍ للقدر هذا الذى يدّخره لصاحبنا.. لقد وجد تلاقيًا فكريًا جمعه بزويل لو أقسمنا بالشمس والقمر على وقوعه لانتابت النفس الريبة وساورتها الشكوك..

لقد شكا إليه صاحب نوبل من معاناته مع الغرب، وكيف أنهم نفعيين ماديين، ولا يسعون إلا لمصالحهم الخاصة، ثم كيف تخلفنا ونحن نمتلك رصيدًا من الحضارة التى أنارت الطريق للإنسانية حين ظلامها وظلمها.. ونحن نمتلك القوة المادية والبواعث الروحية.. إن هذا لشيءٌ عجاب!!

وكم أُعجب صاحبنا بزويل حين قال له: "أنا مصري حتى النخاع.. حين أعمل في معملي أستمع إلى أم كلثوم، هميَّ الرئيسى هو مصر، أسعى لبناء نهضة مصر الحديثة، ولن تقوم على غير العلم... جمع النظرية بالتطبيق".

وقد تهفو النفس إلى نقد ادعاء المصرية عن الرجل في هذا الكلام، فسماع أم كلثوم ومطربي مصر كلهم لن يدُل على الوطنية.. هذا فيه كثير من الجفاء..

صحيح أن أم كلثوم كانت ملكاً للإنسانية، ولكن إصرار المصري بالذات على سماعها يعطى انطباعًا قويًا على أصوله النبيلة، على حبه لتراب وطنه.. على تعلق القلب بالوطن، وبكل ما يمتد للوطن بصلة، فبدائل أم كلثوم كثيرة، ولكن بديل الوطن يُعدم وجوده.

وطال الحديث وطالت الأمنيات وطال التلاقى، فالعالم والفيلسوف قد جمعتهما قاعدة وغايتان، أما القاعدة فهي أن عصر زويل يُعيد إلى الأذهان عصر النهضة العلمية الذى عاشته مصر القديمة، ولصاحبنا كتابان في هذا الشأن "الخطاب السياسى في مصر القديمة" و "الفكر الفلسفى في مصر القديمة" ووعد بهما زويل في ذلك اللقاء الهاتفى.

وصفوة هذه القاعدة أن أساس الإنطلاق المادي والنهضة العلمية موجود، يتمثل في حضارة عريقة.. كبرى.. ذات تاريخ ممتد وأصول ضاربة الجذور عبر عمق التاريخ..

ففى الوقت الذى عاشت أوروبا مرتدية أوراق الشجر لا تزال، كانت مصر تدب بأقدامها في قلب الحضارة النابض بالحياة، كانت سيدة العالم القديم، وكانت خزائن الأرض اقتصاديًا.. وكانت منارة للعلم، وما نجد شاهدًا خيرًا من أبناء الغرب أنفسهم، وعلى رأسهم هنري برستيد في كتابه" فجر الضمير"..

نحن لن نبدأ من الصفر إذن.. فالقاعدة التى سننطلق منها موجودة، الأساس الحضاري كبير ومتين، والبُعد التاريخي يضرب في كبد الزمن..

أما الغايتان فتتمثل الأولى في إرادة صناعة نهضة مصرية وعربية، على أن تنطلق القومية من مصر، تبدأ شرارة النهضة العلمية والمدنية والتكنولوجية من مصر، فإذا قامت مصر رفع العرب رؤوسهم.. وإن ظلت مصر في رقدتها فلن تسمع لأحدٍ صوتًا أو تحس له ركزًا..

ومصر قادرة على هذه الخطوة.. إمكانات مادية كبرى.. ثروات طبيعية لا حصر لها.. ثروة بشرية كبرى في السواعد.. ثروة بشرية عظمى في العقول الابتكارية والإبداعية، فما الذى ينقصنا إذن لبدء التحرك بخطى واثقة نحو النهضة.. نحو البناء.. نحو استعادة ماضينا التليد عبر حظوظ الحاضر من العلم ورصيده من المدنية..

أما الثانية فتتمثل في تلاقى العالِم مع الفيلسوف في رؤيته التى صاغها أكثر من مرة في عدة كتب، تلك التى تنقِم على تبعية الشرق للغرب وترى ضرورة استقلال الشرق كي يبدأ طريق نهضته، لأنه لا نهضة أبدًا في ظل تبعية، ولا تقدم في ظل خنوع..

فالتبعية والخنوع يخلفان عبيدًا، والعبيد لا يمتلكون أدنى مقومات النهضة إنسانيًا، ومن ثمَّ كانت الحرية الإنسانية والتحرر من التبعية عاملاً حاسمًا في بناء النهضة، وعاملاً أساسيًا في متطلبات البناء

الجديد، تلك التى يرجوها الفيلسوف في كتبه، ويرجوها صاحب نوبل في جامعته.. كلاهما يريد.. وكلاهما يقدم الدليل ويرشد السبيل، لكن يتبقى العامل الحاسم في الأمور كلها، ذاك الذى أسماه صاحبنا من قبل "الإرادة السياسية"..

طال النقاش حول هذه القضايا المصيرية في تلك المدة، ووجد صاحب نوبل أن الحديث لن يستوفى أركانه إلا باللقاء، حدسًا وحسًا.. روحًا وجسدًا.. فطلب إلى صاحبنا ضرورة اللقاء عقب عودته من السفر للحديث بشكل أكثر عمقًا عن مستقبل مصر في ضوء مدينة و جامعة زويل، وعن تلك النقلة البعيدة التى يرجونها معًا لمصر.. ويبدو أنه اقتنع قناعة تامة بآراء صاحبنا، تلك التى تلخص مشروعه الفكرى فأكد عليه ضرورة اللقاء، وضرورة المشاركة في مجلس أمناء الجامعة كى يُسدى النصح ويبذل العون في تحقيق هذا الحُلم الكبير.

لا أقص عليك يا صديقى من نبأ هذه المكالمة أو طلب زويل للقاء صاحبنا من باب الفخر أو تمجيد صاحبنا، فأحسب أنه غنىٌ عن هذا وأنىَّ في هذا السبيل أكثر منه غنى..

فالفيلسوف يظل حيًا أبد الدهر.. والذى يقرأ جمهورية أفلاطون ثم يحسبه من الأموات لا شك جاهل.. والذى يقرأ العقد الاجتماعى ثم يترحم على روسو لا شك أعمى.. الأفكار وحدها من تُخلد صاحبها.. وصاحبنا ترك إرثًا ضخمًا، مشروعًا فكريًا قد تلخصه تلك المكالمة مع زويل.. مشروع طموح، لا ناقة له ولا جمل غير هذه الأمة.. هموم البناء، وبواعث النهضة..

أقص عليك من نبأ زويل لا من باب الفخر، ولكن لأنبئك بوحدة الهموم بين المفكرين المخلصين والصادقين.. لأنبئك أن العلم تعاون بين العلماء.. تراحم بين المفكرين لا صراع وأحقاد وتراشق.. العلم والفكر أسمى من كل تلك النوازع البشرية، تلك التى تصِم أصحابها بالدناءة والعجز، وتنزلق بهم إلى مهاوي البشرية وغرائزها الدنيئة.. لأنبئك بذاك التكامل بين العلم والفلسفة عن قرب، فلربما وجدنا هذا التقارب في الكتب وحدها دون أن نراه في واقع الحياة..

ثم في الأخير لأنبئك عن اتحاد الطموح ووحدة الحلم الكبير بين الرجلين، وكيف بُنيت النهضة الغربية على المادة دون الروح، وكيف امتد حزنهم على واقعنا البئيس إذ امتلكنا المادة والروح كليهما، وما رأينا لشمس الحضارة على أرضنا شعاع..

انتهى اللقاء يا صديقى وما انتهت الأمنيات بعد.. حال سفر زويل وعجلته في السفر ثم مداهمة المرض له فالوفاة دون لقاء الفيلسوف حسًا وحدسًا.. لكن تبقى الأفكار حية.. ويبقى تلاقى زويل وصاحبنا رائدًا لكل تلاقٍ بين العلم والفلسفة.. بين أصحاب المعامل وأصحاب الأفكار، وتبقى الهموم الوطنية في مقدمة اهتمام المخلصين، وتبقى النهضة إرادة.. أمنية.. طموح كبير للنفوس الكبيرة، قد تشق طريقها في أي لحظة، فما الله بمضيع أجر العاملين.

(١٥)

الثورة الثقافية

في طليعة ٢٠١١م اندلعت ثورات الربيع العربي، تلك التى أظنها أعظم دليل على وجود الشعوب.. على حياة القيم والمبادئ الإنسانية العليا، إذ أنها لم تمُت بعد.. إذ لا يمكن تفسير خروج شعب من الشعوب يطالب بالكرامة وبالحرية وبالعدالة إلا إذا كان هذا الشعب حيًا، وإلا إذا كان واعيًا إلى حدٍ بعيد من الوعى.. إنها مطالب السماء، مبانى القيم الأساسية، ذروة سنام الإنسانية في مهدها البريء.. ما الإنسان بدون حرية.. حرية حقيقية، يُدلى برأيه في أمان، لا يخشى سجانًا ولا بطشًا بسبب رأي.. لا يخشى من انتقام المخالفين لرأيه.. ما الإنسان بدون كرامة تحفظ آدميته، وتحيط إنسانيته بالرعاية والاحترام؟.. ما الإنسان دون عدالة سوى شيء ممسوخ تذروه الريح في يومٍ عاصف.. إنها القيم العليا للوجود الإنسانى، هذا من حيث الأساس، من حيث المبدأ.

كانت علاقتى قد توطدت بصاحبنا إلى حدٍ بعيد في هذه الأثناء، وكنت أسافر إلى جامعة القاهرة مسافة طويلة، ومرهقة كثيرًا.. لم يكن لى بالقاهرة قبل الالتحاق بجامعتها في مرحلة الدكتوراة سوى مساجد آل البيت، وبالأخص مسجد مولانا الإمام الحسين، فلمَّا التحقت بها في أواخر ٢٠٠٩م سار مكتب صاحبنا ملاذًا أوليًا لابد من البدء به، حتى أتمكن من الجلوس معه قبل بدء محاضراته.. جمعنا النقاش كثيرًا حول الثورة، كان حديثه عامًا، رافضًا.. ربما كنت أخشى عليه أن يعلن رأيه في الثورة المصرية خاصة، إذ ربما يصطدم مع الحناجر التى تهتف والقلوب التى تتمنى، والشباب الذين يسعون إلى التغيير.

كان موقفه عامًا إذ لم يكُن حديثه قصرًا على الثورة المصرية، بل كان يتحدث عن الثورات العربية كثورة واحدة.. وينظر إليها على أنها مؤامرة واحدة اتسعت خريطتها لا أكثر.. وموقفه منها جميعًا هو الرفض القاطع لها..

اختلفت حينها في جزء واتفقت معه في آخر.. ولكنى اليوم امتلأت قناعة بكل رأيه، دون تجزئة، ودون تعقيب.

أما الجزء الذى اختلفت معه آنئذٍ فهو أن الثورة لم تكن مؤامرة ولكنه تم التآمر عليها.. الثورة أشرف شيء في الوجود الإنسانى، فما رفض الاستبداد بمؤامرة أبدًا.. وما رفض الذل والخنوع بمؤامرة.. وما المطالبة بالعدل وبالحرية بمؤامرة.. بل هى مطالب الإنسان ذي المبادئ العليا، مطالب السماء ذاتها، تلك التى أقام الله منهاجها على العدل وأمر الإنسان به {وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ} (الرحمن٩) القسط في كل شيء، ليس في الميزان المادى وحده، ولكن مقصوده القسط في كل الموازين.. في كافة مناحى الحياة، المادية منها والمعنوية.

الثورة فكرة.. مبدأ.. قيمة.. وما الإنسان غير الفكر والمبادئ والقيم؟!

الثورة حياة، روح.. كرامة.. وما الإنسان بدون حياة، بدون روح، بدون كرامة..

هكذا أحسب الثورة كمبدأ.. أما مآلاتها ونتائجها، فالأمر جد مختلف تمامًا.. وتلك بالتحديد هى النقطة الفارقة في رأس صاحبنا.. وهي مالا يمكن حسابها ولا التكهن بها..

إن الثورة السياسية لم تكن حلاً في وقتٍ من الأوقات، ولن تكون في يومٍ من الأيام.. الثورة السياسية شيء من العنف، من القتل، من الخسائر الكبرى في القيم وفى الأرواح وفى الممتلكات.. فإما أن الحاكم مستبد ووصل إلى السلطة بطريق غير شرعي وسيظل يدافع عن سلطته بالسبل غير الشرعية بمثل ما وصل إليها.. وإما أن يسيء الخارجون على القانون ظروف الثورة ويُعملون السلب والنهب والقتل.. وإما أن يحمل كل طرف من الأطراف السلاح وتصير مقتلة عظيمة على السلطة.. وإما يستغل الثورة أصحاب أجندات خاصة وأيديولوجيات معينة، فلا يتغير شيء سوى شكل الحكومة وشخص الحاكم لا غير.. لا جديد.. فقط مجرد انتقال للبلاد من طاغية إلى طاغية آخر.. من استبداد إلى استبدادٍ جديد.. ثم تذهب دماء الضحايا والأبرياء بلا ثمن.. بلا مقابل.. بلا ثمرة.

هذا حديث صدق، حديث المخلصين الصادقين الذين لا ناقة لهم ولا جمل سوى الوطن.. مصالح الوطن العليا.. وحدته، سلامته، أمنه..

كانت الثورة السورية هى السبب المعاصر والمشهد المؤلم الذى استدعاه صاحبنا، وما غاب قط عن ذاكرته، حيث الصراع الدائر بالسلاح بين السلطة والمعارضة.. صراعًا أفنى الدولة.. قضى عليها تمامًا، لم يتبق منها شيء من معالم الدولة..

المواطنون صاروا لاجئين بالملايين.. الاقتصاد انهار تمامًا.. المبانى والمؤسسات صارت خرابًا وبوارًا.. وفوق ذلك كله.. مئات الألوف قضوا نحبهم قتلى بالرصاص، وبالطيران، وبالبراميل المتفجرة.. وآخرون قضوا نخبهم صرعى الأنقاض.. ثم ملايين أخرى عُذبوا وهم أحياء، تمنوا الموت فلم يجدوه.. أحدثك عن آلاف داخل السجون يُعذبون ليل نهار، ثم ملايين ممن فقدوا عائلاتهم وذويهم فساروا هائمين على وجوههم، إذ لم تعُد لهم الحياة ببال..

القيامة في وطني وحده؛ تقوم كل يوم، كل لحظة.. أصوات الانفجار في كل مكان..رائحة الدماء تملأ أفاق الكون.. حتى الصبية الصغار، لم يسلموا من تلك الوحشية البغيضة..

أطفال في عمر الزهور قضوا نحبهم بالرصاص، أو تحت الأنقاض، ذهبوا إلى اللقاء الأعظم، لقاء الله الحق، وهم يحملون كل الشكايات.. أظنهم سيفيضون الحكي مع الله.. سيفيضون في الشكوى، وفى الكلام.. وفى قصَّ الأحداث.

يسأل صاحبنا في كل ما يكتب، لماذا القيامة في وطني وحده دون سائر الأوطان؟ لماذا ينعم العالم كله بالأمن والأمان في حين أن وطني حربٌ ونارٌ ودمارٌ؟!

لم يكن من سبب غير الثورات؟! هكذا قال غير مرة..

ناقشته هذا الرأى كثيرًا، وربما انضم إلى النقاش آخرون، كنت مؤمنًا بأن الثورة شرف.. كرامة..دليل حياة.. الثورة دليل على وجود بقايا إنسان، بقايا قيم.. متناثرات مبادئ.. الثورة دليل حرية، حرية نفس تئن وتشكو وتتألم، ولا يعلم بوجعها إلا الله الذى أحاط بكل شيء علمًا، هذا يقينى.. لم يخطئ المطالبون بالتصحيح، ولكن أخطأ الطامعون في الحكم.. لم يخطئ المطالبون بالعدالة وبالحرية.. ولكن أخطأ المستبدون إذ ربطوا مصير الوطن بأشخاصهم، بذواتهم..

لم يهتف أحد في بلدان الربيع العربى بإسقاط الأوطان.. ولن يهتفوا بذا قط.. ولكنهم هتفوا بسقوط الأنظمة، وأي شيء في هذا الطلب الشريف؟! يسقط ألف نظام، لكن تبقى الأوطان، الوطن شيء، والنظام شيء مغاير تمامًا.. الوطن يسكن القلب، تطمئن فيه النفس.. يسكن الأعماق.. لكن النظام قد يكون ظالمًا، قد يكون متجبرًا مستبدًا، قد يكون خائنًا عميلاً.. لا ضير أبدًا أن يسقط النظام.. لا ضير أن تنطلق الحناجر ضد النظام.. وإذا كان النظام مخلصًا ووطنيًا فليترك السلطة ويرحل.. وللجميع الأسوة بالحسن بن علىّ، السبط الأكرم، إذ ترك الحكم طواعية، تنازل عنه برضا تام لمعاوية، وسُمى عام الجماعة، لأن صنيعه أعاد للأمة لُحمتها.. أعاد لها الوحدة بعد فُرقة دامت سنوات إبان استشهاد ذى النورين (رضى الله عنه).

الوطن شيء يا صديقى.. والحاكم شيء آخر تمامًا.. الوطن باق، والحاكم يذهب ويجيء.. الوطن مالك، والحاكم مملوك، يملكه الشعب إذ هو من جاء به.. الوطن هو الشعب، والشعب فوق الحاكم.. فوق كل حاكم، وأي حاكم.

هذه بديهيات العلوم السياسية.. ولكن الساسة لدينا لم يفهموها.. أو ربما فهموها وادعوا الجهل بها فأحالوا الأوطان خرابًا وبوارًا..

سألته ذات مرة، وقد صفا ليل الصيف في أكتوبر، عن بدائل الثورة السياسية، فوجدت حول إجابته أوجاع.. تاريخ طويل يا صديقى يُلقى بظلاله على ذاكرة صاحبنا، أحداث رافقته منذ الصبا ولم يزل أثرها باقٍ، بل أثرها ممتد.. لعلى أذكر لك طرفًا من أنبائها..

إبان النكسة في العام ١٩٦٧م، حين طمع الطامعون وغزوا مصر برًا وبحرًا وجوًا.. حين صمت العالم إزاء هذا الاعتداء الذى لا يزال محفورًا في أعماقي، كان الكثيرون من أبناء خط القناة قد هجروا أراضيهم وأوطانهم إذ دمرتها الحرب، وإذ أوغل فيها المعتدون قتلاً وتخريبًا وتدميرًا.. انتشر كثير من أبناء القناة في ربوع مصر، فذهبت بعض الأسُر إلى شوبر، قرية صاحبنا.. كان حينها طالبًا بالإعدادية، وتعرف هو وأصدقاؤه على أسرة بورسعيدية، أب وأم وابن وثلاثة بنات.. كان يبدو عليهم اليسار والسعة، ولكن ظروف الحرب منذ ١٩٥٦م وما تلاها من أحداث خاصة النكسة لم تترك لهم من يسارهم أو سعتهم شيئًا..

إذ لم يتبق من تلك السعة سوى المنظر الذى ينم عن ماضـي ذاك اليسار، إذ يتبق الكثير من الشكل، القليل من المؤنة..

كانت هذه الأسُر المهجَّرة محط اهتمام القرية كلها.. أكاد أزعم بأن مصر كلها في تلك الحقبة عاشت حياة المهاجرين والأنصار.. تآسى القوم بكل شيء.. وسع بعضهم بعضًا في كل شيء.. تواصلوا بالأموال وتقاسموها.. أعادوا للإنسان قيمه العليا ومبادئه السامية.. أقاموا جوهر الدين على الأرض تمامًا كما أرادته السماء..

كانت هذه الأسرة البورسعيدية محط اهتمام صاحبنا، محط برائته التى ما تركته ولا تركها قط.. فكان يصلها بالطعام والزاد وتبرعات أهل اليسار والسعة، أو مؤنة أهل الفضل ممن رق حالهم لكنهم تقاسموا المحنة مع أهلها، وكانت فاطمة هى البنت الكبرى لهذه الأسرة، تصغُر الصبى بعام.. رق لها ورقت له..

كانت المرة الأولى في حياته التى يرق قلبه للجنس الآخر.. ولكنه الحب الطاهر، حب الصبا، وربما الطفولة، حب بريء لا يعرف شيئًا عن المنافع أو حتى مفهوم الزواج، وربما لا يعرف قليلاً ولا كثيرًا عن طبيعة علاقة المرأة بالرجل..

والحق أن الفتاة كانت من الجمال ما يكفى لجذب الصبية حولها وزيادة، ثم إن رقتها فى التعامل إذ جاءت من المدينة، معها سلوكيات وتمدن أهل الحضر؛ قد أسر الصبى أسرًا، إذ لم يكن يحلُم بأكثر من ذلك إذا قُدر له أن يُشرك حياته الجنس الآخر.

انتقلت فاطمة مع أسرتها إلى المحلة.. وانتقل صاحبنا خلفهم باحثًا عنهم، لا ليوصل لهم العون والزاد كما كان أول أمره، ولكن ليرى حبيبته التى جاءت فى مرحلة الصبا على غير موعدٍ مع الزمن، وإن كان يود ألا يفارقوا شوبر أبدًا..

ظل الحب ومعه المودة بين الطرفين ردحًا من الزمن غير قصير، كبر الصبى وفاطمة تلحقه في العمر، فالفارق سنة واحدة لا غير، ويكبر الحب بينهما.. إلا أن الأسرة البورسعيدية تعود إلى موطنها حين هدأت البلاد واستقرت بعد النصر العظيم في أكتوبر ١٩٧٣م، وانتزعت قلب الصبى معها في رحلتها تلك إذ لا يزال القلب معلقًا بفاطمة، سرى إليه كثير من النضج، ومزيد من المودة، وكثير من الشوق والأريحية..

كانت فاطمة هى الحب الأول الذى لم يبرح مخيلة الفتى قط.. لكن الأيام قضت بأن تتزوج من ثري عربى، ثم تسافر معه إلى بلاد الحرمين، ثم يسلك صاحبنا السلك الجامعى، فتأتى فاطمة لتجده مدرسًا بالجامعة، راسلته كثيرًا.. أرسلت إليه التوسلات والدمعات الحارة، ولا مجيب، وهذا أحد أسرار تلك الشخصية المحيرة.. قد يحب، ولكنه أبدًا لا يُفرط في كرامته.. قد يعشق.. لكنه يظل محتفظًا بهدوئه ووقاره.. قد يريد الشيء بكل جوارحه وتهفو نفسه إليه، لكنه لا يُبدى تجاهه غير السكينة، حتى يشعر الطرف الآخر كأنه في غنى.. أو كأنه عشق اللامبالاة.

شكت إليه فاطمة الحال، وكيف أن الزواج فُرض عليها فرضًا.. لكنه أغلق الصحفة تمامًا.. أحكم إغلاقها إلى الأبد.

هذا التاريخ جعل صاحبنا كارهًا للحرب، لحروفها.. لكل مقدماتها، ود لو يصرخ في وجه الجميع، ولا تقربوا الحرب إنه كان فاحشةً وساء سبيلاً.. ود لو يحل العقل بديلاً للعنف.. الحوار بديلاً للصدام.. الإنسانية بديلةً للبشرية.. الحرب بالنسبة له دمار، خراب.. تهجير قسري..

الحرب ضياع لكل فضيلة، وأسماها فضيلة الحب.. فضيلة الخير.. فضيلة الجزء الإنساني الذى يعيش به البشر.. فضيلة الجانب الخيّر في النفس الإنسانية..

عاين الصبى أحداث الحرب.. عاين آثارها.. بل عانى هو ذاته منها..

عانى منها إذ أحبَّ وفرقت الحرب بينه وبين حبه الأول.. حبه البريء.. ذاك الذى لم تعرف البشرية في رجسها أنقى وأطهر منه.. حين يبدأ الحب بين أطفال في مرحلة الصبا، ثم يكبر وينضج بتقدمهما في السن ونضج عقولهما.. وعانى إذ وقعت بلده تحت نير الاحتلال وخرج منظمًا للمظاهرات وكاد أن يفقد مستقبله إلى الأبد..

إنها المعاناة.. المأساة.. الشر الذى ما وراءه من خير قط.. ذاك هو مفهوم الحرب الذى نما ثم نضُج في عقل الصبى..

ربما كان رحيل فاطمة عنه وزواجها بثري عربى إذ انهار الاقتصاد المصرى في فترة الحروب تلك له أكبر الأثر..

ولكن هذا سبب عرضى في الأغلب، لأنه ما زال طالبًا بعد حتى ذاك الحين.. وما كان ليجترئ على الارتباط بأحد وهو لا يجد ما يسُد به الرمق بعد..

فاطمة كانت مجرد مرحلة.. فيها شيء من العفوية.. وشيء من البراءة.. وكثير من الطُهر.. وربما لو سارت الأمور بشكلها الطبيعى دون حرب، ودون ملاحقة أمنية له إثر عدائه للسادات، لكبر الحب بينهما ثم تزوجا حين استلم عمله كمعيد بكلية الآداب وبدأ حياته الاجتماعية مبكرًا.. ربما..

ولكن الحرب كان سبيله بالأساس للقاء فاطمة..فلولا الحرب ما هجروا بورسعيد إلى شوبر، ولما التقت بالصبي، ولما كان هذا الحب.

تعود إلى صاحبنا فلا تجد تفسيرًا غير القدر.. هو القدر، ولا شيء غير الإرادة الإلهية، وما الإنسان إلا منفذًا لها شاء أم أبى.

الحرب إذن خسارة من كل الوجوه..

وحين نضج صاحبنا وسار كاتبًا ومفكرًا انشغل ببناء وحدة عربية، وقومية عربية، ونهضة عربية قوامها السلام والقوة، فالقوة تحمى السلام، القوة هيبة.. القوة بناء، القوة ردع لأطماع المستعمرين والمتجبرين.

وما فعلته الثورات السياسية إبان ٢٠١١م في وطننا العربى هو أن أججت نار الحرب، أن أسالت الدماء، أن أضاعت القيم.. ثم هى على المسار الآخر باعدت بين الأشقاء، باعدت بين طرق الوحدة وآليات بنائها.. باعدت عن المسار الصحيح للنهضة القومية.

الثورات خلقت أيديولوجيات متصارعة.. قيمًا منهارة.. مزيدًا من الفقر.. مزيدًا من الانهيار.. مزيدًا من الانتكاسات..

وما البديل إذن؟!

الثورة الثقافية هى البديل..

التعليم أفضل من حمل السلاح وأنجح.. الارتقاء بالوعى أيسر كثيرًا من الارتقاء بالجيوش.. تربية النفوس أهم من تسمين الأبدان.. بناء الإنسان أعظم قدرًا من بناء ترسانات الأسلحة ومنصات الدفاع..

بنـاء الإنسـان أولاً.. بنـاؤه علميًا وفكريًـا ووجـدانيًا.. الارتقـاء بملكاتـه الروحية ومواهبه اللدنية.. تنمية ضميره وأخلاقه وقيمه ومعارفه.. هذا أيسر بكثير من حمل السلاح وتمزيق الأوطان.. هذا سيغلق البـاب أمـام الآثمين المنتفعين بـالثورات ...أولئك الذين يحولونها إلـى دمـار وخراب ودمـاء.. سيُغلق البـاب أمـام أي مستبد وأي طـاغيـة.. التحـول السلمى أيسر وأعظم ألف مرة من الثورات.. الثورة تريد التغيير رأسًا على عقب.. ولا يوجد تغيير في الدنيا يسير من أقصـى اليمين إلـى أقصى اليسار.. من النقيض إلى النقيض، لأنـه تغيير غير طبيعى، سـرعان مـا ينقلـب إلـى أصـله مـرة أخـرى.. أمـا التغييـر عبـر بنـاء الإنسان، عبر تثقيفـه، عبـر الارتقـاء بوعيـه، فهـو التغييـر التـدريجى، التغيير الطبيعى نحو الأفضل الذى لا سوء بعده، ونحـو الكمـال الـذى لا نقص فيه.

هكـذا قـصَّ علـيَّ صـاحبنا.. هكـذا عـدَّل رؤيتـي تمامًـا مـن الثـورة السياسية إلى الثورة الثقافية، وذلك خيرٌ وأعظم أجرًا.

(١٦)

شكاية لا تنتهى

ذات مرة، وأحسبها من عهدٍ قريب دُعيت من صديقى الذى يعمل أستاذًا للفلسفة في جامعة حلوان إلى الغداء.. ولطالما رفضت مثل هذه الدعوات من كثيرين، فاعتذرت له ولكنه صممَّ على دعوته، وتم الاتفاق على أن نلتقى سويًا في فيلا صاحبنا ليشرب معى القهوة، وجلسنا وحدنا إذ كنت مشغولاً في ورقات أراجعها للصحافة، كان حديثًا أتمه الفيلسوف لجريدة الأهرام القاهرية..

جلس إلىَّ صديقى، تبسَّم كعادة ابتسامته الصادقة، ثم سألنى: "بصراحة كنت أود أن أعرف منك موقف الفيلسوف من المرأة باعتبارك أقرب الناس إليه".. نظرت إليه منتبهًا، إذ السؤال أخذ كيانى كله، ثم سألته: "هل وجدت ما يريبك أو يشغل فضولك لمعرفة هذه الناحية" فأجاب: "كلا، لا شيء إطلاقًا، غير أنى أشعر بانعزاله وحبه للوحدة، ومن ثمَّ أظن أن حياته العاطفية لم تكن يومًا بخير"..

قلت في نفسى: "لقد قطع سامح نصف المسافة تقريبًا" ثم وجهت إليه الحديث: "أبدًا.. حياته العاطفية أشبه بحياة الوطن العربى السياسية" ضحك وضحكت، وفهم أننى أردت القول بأن حياة الفيلسوف العاطفية لم تكن أحسن حالاً من حياة الوطن العربى السياسية إذ يعانى الفُرقة والتمزيق والشتات.. وكنت صادقًا فى إرادة هذا التوصيف، وإن كان الواقع يسير من نقيض إلى نقيض.. ومن فشلٍ إلى نجاح.. إلا أن السمة العامة أن المرأة مثَّلت متاعب كبرى فى حياة صاحبنا.. متاعب لم يكن من سبيل للخلاص منها فى وقت من الأوقات إلا أن ينسى المرأة تمامًا.. أن يتجاهلها.. أن يعتبرها فى ذاته كائنًا غير مرغوب فيه، أو على الأقل مصدرًا لتأخره عن إتمام رسالته فى العلم، وفى الفكر، وبالمرة فى الحياة.

ثم وصلت فى عقله فى وقتٍ مغاير أن أصبحت كل شيء، فإذا فقدها فقد حياته ذاتها..

ثم تبقى له الوصال فى شخص امرأة، كانت هي الملاذ الآمن إذ خشى عاديات الزمن.. والصدر الحنون إذ ألمت به كربات الدهر..

تاريخ طويل لست أدرى يا صاحبى من أين أبدأه.. إننى فى قرارة نفسى لم أستطع أن أستخلص وجهة نظر محددة لصاحبنا فى هذا الشأن، وأنا معى كثير من الحق فى تلك الوجهة، إذ لست أدرى أهو ذو العاطفة الجياشة التى تحب المرأة، وتحب بصدق، وتحب حتى تصل إلى حد العشق.. أم هو الرجل الذى لا تدفعه ناحية المرأة سوى الظروف، الضغوط وحدها.. إلحاح الأهل والأصدقاء المقربين فقط.. لست أدرى.

نظر إلىَّ صديقى متعجبًا: "اقصص علىَّ إذن من ذاك النبأ، ثم دعنى أقرر معك الرأى".

رحبت بالفكرة، فلربما أجد لديه تفسيرًا لما حدث.. ثم استطردت فى الحديث.. مر بك يا صديقى تجربة صاحبنا فى مرحلة الصبا مع فاطمة.. الفتاة البورسعيدية البيضاء الممشوقة ذات الجمال الآسر.. وكيف كان الحرب سببًا فى اللقاء، ثم صار هو ذات السبب فى الفراق.

كانت فاطمة هى الحب الأول.. نعم، لقد كان ذلك فى مرحلة الصبا، ولكنه نضج وكبر مع تقدمهما فى العمر، ولا أدل على ذلك من أنه حزن إذ تزوجت من ثريٍ عربي، ومن أنها ظلت تراسله بعد الزواج وبعد الانفصال عن زوجها، وحاولت جاهدة إعادة ما كان، لكنها لم تكن تعرف طبيعة شخصية صاحبنا، لم تكن تدرك أنه وُلد أبيًا، إنه الكرامة تسير على أرجُل لا الإنسان يسير على قدمين.. فانتهت الحكاية بزواجها وسفرها، ودفنها فى عمق أسراره، وما كان إخراجها منه بالشيء اليسير..

ربما نسي صاحبنا هذه التجربة، وربما أصرَّ فى قرارة نفسه ألا تتكرر، فإن تكررت فى الشكل، فلتكن خلوًا من كل مضمون، إنه لم ينفى مبدأ الزواج، ولكنه نفى من حياته مبدأ الحب.. أراد ألا يكرر التجربة، ألا يُحدث شرخًا بقلبه مرة أخرى، أن يصون نفسه عن الحاجة، أي حاجة، وأيًا كانت قوتها.

وما أن استلم صاحبنا عمله كمعيد بكلية الآداب حتى ألح عليه المجتمع بأسره فى الزواج..

كأن المجتمع كله لم يعد له من قضية سوى زواج صاحبنا، ولربما شعروا تجاهه بارتياب فى هذا الأمر مما أكثر إلحاحهم وزادوا فى الطلب واشتدوا فى الضغط.. ربما تسرَّب إليهم الإحساس بأنه مُعرض تمامًا عن هذا الأمر، أو بأنه حلف فى عمقه العميق ألا يقربن المرأة، ولا يقفن أبدًا ببابها..

أبوه، الشيخ الجليل يضغط عليه بالولاية وبالحب اللذان يعلمهما فيه صاحبنا.. وأمه التى تستشرف غيب المستقبل وتكاد تشق حُجُب السماء تمارس ضغطًا من نوعٍ خاص.. الاثنان يتوسلان إليه أن يقبل الزواج من إحدى بنات عمومته، أو من أيٍ أراد.. وهو يرسل الحجة تلو الأخرى، ويتقن فن الخلاص من اللوم.. والخلاص من الضغط، ومن ألوان التوسل.

وما يفر صاحبنا من ضغوط عمق الدلتا حيث شوبر، وحيث القلب يسكن لدى والديه، حتى يجد ضغطًا أشد سحرًا وأكثر تعقيدًا وأشد حرجًا فى جامعته التى يعمل بها..

إنه ضغط مزدوج، تارة من زميل دراسته، جمال المرزوقى الذى رافقه منذ الدراسة، ثم الإعارة إلى السودان، ثم العودة إلى القاهرة ثم افترقا في العمل حيث عمل صاحبنا بعد الإعارة إلى السودان في جامعة القاهرة في حين أن زميله أطال مدة عمله بالسودان، وإذ عاد إلى القاهرة لم يجد له مكانًا بجامعتها الأم، فشاء القدر له أن يعمل بجامعة عين شمس..

كان جمال يضغط بكل قوة، خاصة أنه يجاور صاحبنا سواء في بيت المعيدين وهما معيدان، أو في الهرم بعد أن حصلا على درجة الدكتوراه في الفلسفة.. كان يريده أن يتزوج، وأن يُنهى حياة الوحدة، كان يضغط في هذه الناحية حبًا، إذ كان كل شغفه على وحدة صاحبنا، تلك الوحدة التى أظنها الشيء الوحيد الذى يسكن إليه الفتى.

وفى حين يتغلَّب صاحبنا على زميله، فإنه لا يمكنه التغلُب على أستاذه، وما أدراك بحجم محمد مهران في قلب صاحبنا.. كان عقله ولُبه وفؤده.. كان الثلاثة في واحد.. كان صديقًا وأستاذًا وأخًا ما أنجبه أبواه..

والحق أن مهران رحمه الله كان يستحق هذا الحب، كان إنسانًا جميلاً بكل معنى قريب وبعيد للكلمة، صعيدي من أشجع من رأيت.. ومن أكرم من قابلت.. هكذا قصَّ عليَّ صاحبنا غير مرة.

لا فكاك إذن من ضغوط مهران وجمال.. ثم لا سبيل لإرضاء الوالدين إلا بإتمام هذا الأمر.. وما يدرى صاحبنا كيف السبيل إلى إتمامه.. ولا أين الطريق.. وهو في ذات الآن يخشى استنساخ فاطمة جديدة.. يخشى التجربة.. يخشى جرحًا جديدًا لعله هذه المرة يوصد هذا الباب في حياته إلى الأبد.

يقترح جمال على صاحبنا الفتيات، ولكن صاحبنا كان يستطيع التغلُب على زميله.. وكان زميله تحت وطأة الحب يُسلم لرأيه.

ثم يقترح أستاذه عليه إحدى الفتيات.. وما استطاع أن يلتمس لنفسه عذرًا، كانت الحجة الوحيدة التى يقدمها لأستاذه أنه يريد ألا يعطله شيء عن إتمام مسيرته العلمية، يريد إتمام الماجستير والدكتوراه.. يريد تحقيق حُلمه بالكتابة للأهرام.. يريد أن يكتب مقالاً أسبوعيًا ينتظره القراء بمثل ما كانوا ينتظرون لحكماء الأهرام..

العقاد وزكى نجيب محمود ثم مصطفى محمود من بعدهم وفهمى هويدى.. ولكن أستاذه كان يعلم ألا تعارض بين الزواج وإتمام المسيرة العلمية، بل قد يكون الزواج دافعًا هامًا وعاملاً حاسمًا في إتمام تلك المسيرة التى يرجوها صاحبنا.. ولطالما دار النقاش بينه وبين أستاذه في هذا الأمر، كان ينتهى في النهاية بانتصار الأستاذ ورضوخ صاحبنا.

يمكننى أن أقول لك يا صديقى أنه رضوخ استسلام لا قناعة.. حرج لا رضا.. طاعة لا رغبة.. ولا أدل على ذلك من أنه كان يقبل بمقترح أستاذه لإحدى الفتيات.. ثم يذهب صاحبنا ليتقدم إليها، غير أنه لم يوفق مرة.. تارة يتقدم لبنت جميلة، يتيمة الأب.. تُعجب به الأسرة، لكنهم يطلبوا منه الانتظار حتى يأتى عمها من سويسرا.. ويتركهم صاحبنا وقلبه يردد حمدًا لا مثيل له أن ظهرت تلك العقبة، لتكون مدخلاً له للاعتذار لهم حين يُحدثونه في الأمر، ثم لتكون حجته حاضرة أمام الأستاذ، فلا تثريب عليه ولا لوم..

وتارة يتقدم لبنتٍ أخرى.. تطير به أسرتها فرحًا، ولكنه لم يجد أيًا من مقدمات الارتياح.. مجرد ارتياح.. فأعرض وما أعرضوا.

وفى كلتا المرتين ذهب رضوخًا للضغوط لا رغبة في شيء.. إنه لازال يخشى من عواقب القلب وعقبات الحب.. يخشى أن يتكرر سيناريو لن يُرضيه، وقد يثنيه عن إتمام الأمر برمته، وقد يُدخله كهف عزلته التى يحبها ويحرص عليها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ولكن القدر الذى آمن به الصبى قديمًا وانتشله من الوجودية إلى الإيمان.. من العدمية إلى اليقين، يتدخل تارة أخرى، ليُكرر المأساة من جديد، أو ربما ليُعيد إليه الحياة التى أرادها.. أو يحيي فيه جانبًا مات منذ أمدٍ ليس بالقصير، فيُعجب بطالبة تصغره بعدة أعوام.. كان مدرسًا مساعدًا حينها، حصل للتو على الماجستير، وصدر له قرار الإعارة إلى السودان الشقيق. إنها كانت من اقتراح أستاذه.. لكنها سكنت القلب من جديد.. وارتضى هذه المرة هذا الاقتراح عن حبٍ، عن قناعة.. عن حركات وسكنات وجدها فى قلبه.

كان هذا هو الحب الثانى في حياة صاحبنا.. الحب الذى بحث به عن عِوض التجربة الأولى.

سناء.. الحب الطاهر من جديد، لكنه الحب الأكثر نضجًا من حب الصبا.. الأكثر نضجًا من كل ناحية.. فهو على وشك الحصول على الدكتوراه.. وهى في السنة النهائية لليسانس الفلسفة.. إنه شبه تكافؤ.. بالقدر ذاته الذى فيه شبه توافق إلى حدٍ بعيد بين الحبيبين.

اتفق الحبيبان على موعد لقاء والدها لطلبها منه رسميًا.. وكان الموعد حين ظهور نتيجة الليسانس والاطمئنان عليها.. وفور ظهور النتيجة كان صاحبنا يركب سيارته وينطلق من كاسيت السيارة صوت عبد الحليم، يشاركه فرحته..

أذكر جيدًا تلك اللحظة التى كان يشدو فيها العندليب بقصيدة "فاتت جنبنا" وصاحبنا يردد معه.. يرقص قلبه فرحًا، ظن أن القدر أراد أن يرسم له البسمة من جديد، وطافت برأسه ذكريات فاطمة، وجمال فاطمة، وأناقة فاطمة.. ثم الحرب وما تركته من أثر على فُرقة الحبيبين.. يتذكر تلك المشاهد التى لم تمحها الأيام من الذاكرة فيُغرق فيها فكرًا..

ثم يذكر طلبه الزواج رضوخًا لطلب الأسرة وأمر الأستاذ وأن الله لم يكتب له التوفيق في ذاك الزواج التقليدى فيبتسم ثم يطمئن نفسه "يبدو أن القدر يريد أن يصالحنى هذه المرة بمثل ما خاصمنى من قبل"...

كل شيء متاح أمام صاحبنا.. الظروف كلها مهيئة تمامًا.. من الناحية الاجتماعية أصبح مدرسًا بالجامعة الكبرى، وفى أعظم قسم بها، إنه قسم الفلسفة، حيث المفكرين الكبار زكريا ابراهيم.. زكى نجيب محمود.. عثمان أمين.. أبو الوفا التفتازانى.. عبد الغفار مكاوى .. حسن حنفى.. عاطف العراقى.. أميرة مطر.. محمد مهران.. أسماء كبرى شغلت أذهان المثقفين في مصر والوطن العربى لعقود، وملأت حديثهم لدهور..

ومن الناحية المادية أصبح ميسورًا إلى حد بعيد؛ بلغ من اليسار ما مكنّه من امتلاك شقة في الهرم، وسيارة، فضلاً عن تحمله نفقات أسرته الكبيرة، تلك التى لا تزال في شوبر..

ومن الناحية الوجدانية أصبح أكثر نضجًا وأكثر تعقلاً في اختياراته، وأكثر وعيًا وموضوعية في الحكم على الأشياء..

مـن هـذه الزوايـا كلهـا كانـت هـذه التجربـة نقطـة فاصـلة فـي حيـاة صـاحبنا.. إمـا أن تُعوضـه فاطمـة وذكراهـا التـى لـم يُفلـح الـدهر فـي إلقائها في الذاكرة المهملة.. وأما أن تكون صدمة ليس بعدها إفاقة إلا بمعجزة من السماء، لأن عفويته في حب فاطمة لم تعُد موجودة، إنـه يحـب اليوم عـن عقلانيـة تسبق وجدانـه.. عـن قناعـات وخيـارات مـن وسط بدائل متعددة.. فإذا كان القدر قد فرض عليه فاطمة في مرحلة الصبا ولـم يكن أمامـه خيارات سواها.. ولـم يكـن لجمالهـا منـافس مـن أبناء القرية، فإنه اليوم يختار سناء من وسط بدائل متعددة.. يختارها عن قناعات.. عن إرادة قلب، واطمئنان فؤاد، وارتياح وجدان.. ثم في الأخير قناعة عقل..

قطـع بسـيارته شـوارع القـاهرة.. إلـى حيـث تسـكن السـيدة زينـب بنـت الإمـام علـىَّ وابنـة فاطمـة الزهـراء بنـت سيد المرسلين (ﷺ).. وإنـه لـيُمن من ورائـه يُمن جعل صـاحبنا يستبشر الخير.. فمن جاور أهل البيت لابد أن يسوق البشرى والأريحية إلى نفوس أحبابه.

فـي حـارة ضـيقة للغايـة.. شـوارعها لا تتعـدى المتـر ونصـف المتـر.. اضـطر صـاحبنا أن يوقـف سيارته فـي أولهـا.. ثـم ليستقل قدميـه إلـى بيت المحبوبـة.. تلـك التـى كانـت فـي ظنـى تستحق هـذا الحـب وأكثـر منـه.

فـي بيـت أثـرى قـديم.. مبنـاه يشـبه المبـانى العتيقـة، وفـى شـقة صـغيرة للغايـة يطـرق صـاحبنا البـاب لتستقبله أم حبيبتـه وأختهـا استقبالاً يليـق بـه..

يليـق بـه إذ كـان صـديقًا لطلابـه.. رحيمًـا بهـم.. عطوفًـا إلـى أقصـى درجـة.. هـذا وجـه الاستقبال، ولـيس باعتبـاره أسـتاذًا بالجامعـة ولا أن مسـتقبله مشـرق ولا أنـــه أصـــبح مـن ذوي اليســـار.. وإن كانـت تلـك المقومـات مصـدرًا للإعجـاب، إلا أن إعجـابهم بعطفـه كـان أكثـر مـن إعجابهم بمستقبله.. حبهم على أساس صداقته للطلاب كان أكثر من حبهم على أساس كونه أستاذًا بالجامعة الأم.. هكذا أظن.

كانت سناء تنقل لهم هذا الجانب بدقة.. بكل تفاصيله.. لقد نقلت لهم مشهد الطلاب إذ أقدموا ذات مرة على إهانة الرئيس مبارك، ورسموه في كاريكاتير منبطحًا على الأرض تدوسه الأقدام، ثم هم يعلقون الكاريكاتير على مبنى القبة، حيث يسكن رئيس الجامعة.. ويستصرخ رئيس الجامعة بالسادة النواب والعمداء، وكلهم يُجمعون على شخصٍ واحد "لن يستطيع حل هذه المشكلة مع الطلاب سوى مصطفى النشار".

كان صاحبنا يمتلك ملكات خاصة في التعامل مع الطلاب، والحق، أنه يحتفظ بتلك الملكات في التعامل مع الجميع.. انبساط وجه.. ابتسامة غير مصطنعة.. حلاوة منطق.. عذوبة كلام.. حلاوة لسانٍ.. كل هذه مقومات بسطت له القلوب وسكن عبرها الأفئدة، مما أهلّه لأن يكون مصدرًا لثقة الطلاب ومثلاً أعلى وقدوة حقيقية غير مزيفة، وغير مصطنعة.

كان يتدخل لحل أي مشكلة للطلاب، يحاورهم بالعقل.. ينصح لهم بصدق، يغرس فيهم ثقافة النقد.. الرأي والرأي الآخر.. عدم الوقوع تحت نير أوهام الكهف أو المسرح..

وهو ما جعله صديقًا للطلاب لا مجرد أستاذ.. كانت سناء تنقل هذه المشاهد لأسرتها بكل دقة.. بكل تفصيلاتها.. ثم تختم حديثها بالثناء والإعجاب.. وما أدراك لو أثنت الأنثى وأُعجبت.. معناه أنها تحب، تعشق بصدق، عن قناعة عقل وامتلاء وجدان..

هذه الخلفية الكبرى حول الشخصية تحضُر في ذهن الأسرة إذ تستقبل صاحبنا للمرة الأولى.. كان يشعُر أنهم يعرفونه منذ سنين، لأن معاملتهم لا تدل أبدًا على أن هذا أول لقاء، أو أول المعرفة.

وُضع الشاي أمام صاحبنا.. سأل عن سناء.. لم تدر أمها بأي شيء تُجيب.. استشعر في ذاته أن شيئًا ما يريبه.. أو أن سرًا تنطوي عليه هذه الأسرة أخفوه عنه وربما أرادوا أن يُمعنوا في إخفائه.. ولاحظت الأم ارتيابه وتردده، فاستلهمت رشدها وشجاعتها وقالت: "والله يا ولدى لست أدري ماذا أقول لك" هنا توجس صاحبنا أكثر.. انقبض قلبه وتأكد ارتيابه..

وأصبح ينتظر ما ستسفر عنه كلمات الأم بتوجس وحذر وربما خوفٍ وقلق، وهي تُتم حديثها: "كان زوجى عليه دين لتاجر كبير، أتى هذا التاجر ليطالب زوجى بالدين، فقدمت له سناء شايًا، فوضع الدين شريطة أن يتزوج بسناء، وتحت ضغط الرجل الجشع ذى العينين الزائغتين وقلة حيلة زوجى رضخ للأمر الواقع رضوخًا.. وتحت الأمر الواقع وإرضاءً لأبيها وافقت سناء، وما كان لها ولا لنا من الأمر قليلاً ولا كثيرًا".

وقعت هذه الكلمات على صاحبنا كالصاعقة.. لم تحمله قدماه.. خرج حتى دون أن يستئذن.. لم يعبأ بنداء الأم، ولا بتوسلات الأخت.. بل ربما لم يسمع لهما صوتًا، بل ربما فقد السمع والبصر والفؤاد حينئذٍ، وما عاد معه شيء يسير به سوى هداية القدمين.

اعتزل الناس للمرة الأولى منذ فترة بعيدة.. عزلة حقيقية.. يكاد ألا يُحدث أحدًا ولا يرد على أحد.. لدرجة أثارت القلق لدى أستاذه وبعض زملائه فذهبوا إليه ليجدوه وحيدًا في شقته بالهرم، حزينًا مهما حاول من إخفاء ذاك الحزن.. وما استطاعوا أن يصلوا إلى السبب.. وما فهموا شيئًا عن السر..

هكذا كانت المرأة مصدرًا للهم في ذاكرة صاحبنا..

استأنف عمله بالكلية.. ذهبت إليه سناء من جديد تحاول الاعتذار ولا جدوى.. تبكى بكاءً مريرًا، لكنه لن يُغير من الأمر شيئًا.. لقد كانت الصدمة كبرى، أكبر مما أصابه في فاطمة وزواجها بالثرى السعودى.. وما كان له من علاج غير الزمن، الزمن وحده الكفيل بردم تلك الهوة.. وحده الكفيل بإصلاح ما أفسده القدر..

تذهب ذاكرة صاحبنا وتجيء في هذه الأحداث.. القدر.. وما أدراك ما سر القدر.. في المرة الأولى التى أحب فيها تتزوج حبيبته ثريًا عربيًا بسبب الفقر.

وفى المرة الثانية تتزوج حبيبته تاجرًا ثريًا بسبب الدين، والعجز عن سداده.

إنه الفقر وحده من يتحكم في الإنسان.. الفقر وحده من يجعله ضحية، من يثنيه عن حياته التى يرتضيها، فيعيش أسيرًا لحكم الزمن.. يعيش حيث أراد القدر، لا حيث أرادت النفس..

حيث رغبات الغير لا حيث هوى الذات.. يعيش عبدًا ومسماه حر.. أسيرًا وهو طليق.. منزوع الإرادة وإن بدا أنه مالكٌ لها...

مفارقات قاتلة .. خواطر تجول برأس صاحبنا، تزيده عمقًا في الفكر بقدر ما توغر جرحه.. بقدر ما تؤلم نفسه.. بقدر ما تُدمى قلبه..

لقد كنت على الحق إذن إذ اخترت طريق التعليم منذ البداية هربًا من الفقر.. لقد أسدى إلىَّ والدى صنائع المعروف عن سعة إذ أصرَّ على استكمال تعليمى بالمرحلة الثانوية.. ربما القدر هو السر أيضًا في هروبى من القاع.. بمثل ما كان السر في عذاب قلبى وشقائه.. إذن لا تثريب على القدر، فمرة لي.. ومرة علىَّ.

هكذا حسب صاحبنا المسألة.. حسم أمره في هذه الكلمات، ثم أخذ القرار عازمًا ألا امرأة في حياته.. العلم والفكر هما رسالته، لن يشركه فيهما أحد، ولن يُشرك فيهما أحد.. سيعيش منكفئًا على ذاته.. وما بيده حيلة، وما عليه من تثريب..وما لأحدٍ من أصحاب الضغوط الخالية من أمر هذه المرة، فكفى انكسارًا للقلب.. وكفى تسليمًا للمشاعر.. وكفى لهثًا خلف سراب اسمه الحب، لا يوجد إلا في قلوب الحالمين وكلمات المطربين.

الحب عطاء.. وما يوجد من أحد يستطيع أن يسمو فوق بشريته ليُعطى دون أن ينتظر المقابل.. الحب حرية.. والفقر عائق أمام الحرية.. الفقر يسلب الإرادة.. يسلب الكرامة.. وقد يسلب الحياة.

تبًا لك أيها الفقر.. فلو كنت رجلاً لقتلتك.. ولو كنت امرأة لسجنتها أبد الدهر.. لجعلتها خلف غياهب الوجود، فلا ترى الشمس أبدًا.

خرج صاحبنا من عزلته.. مزَّق وحدته.. استقبل عمله كإنسانٍ جديد، نوى الوحدة، وهذه المرة لا رجعة فيها، فالحجة موجودة، الزواج سيعطل المسيرة العلمية، أو أنه لا حظ له مع المرأة، وإذا اشتد عليه الإلحاح وتكاثرت عليه الضغوط فإنه لا مانع من التريث بضع سنين، فأستاذه عبد الغفار مكاوى تزوج وهو فوق الخمسين.. وهكذا فعل زكى نجيب محمود، وفيهما الأسوة الحسنة التى لا يشكك فيها أحد.

ست سنوات يعمل صاحبنا بين القاهرة والخرطوم.. حتى جاء القدر مرة جديدة ربما لا أعلم لها عددًا ليقذف بالمرأة من جديد في طريقه.. لكن قد تكون هذه المرة أسعد من كل المرات.. في ذات الوقت الذى قد تكون فيه في حينٍ من الزمن أشد ألمًا من الحياة بأسرها.

كان صاحبنا يكتب لجريدة الأهرام بين الحين والحين.. وكان يذهب إلى الأهرام لمقابلة كبار كتابها أيضًا بين الحين والحين.. وهناك، حيث ردهات الأهرام الواسعة و الطرقات المتداخلة والمكاتب المتجاورة والمحررين والكتَّاب الذين رُصوا رصًا.. تقع عينه على فتاة عشرينية، في آواخر العشرينيات، بيضاء.. ذات وجه يحمل من علائم الرضا الكثير.. ومن أمارات الجمال الأكثر.. أثارت فيه شجونه، حرَّكت بداخله الماضى والحاضر والنزاع القائم بينهما.

ماضٍ بئيس؛ يقف الفقر مرتين في وجه سعادته.. يحول بينه وبين قلبه.. وحاضر أقسم فيه ألا تدخلن امرأةٌ حياته.. ألا يشركه وحدته أحد.

ولكن هذا الوجه قد يُنسى الماضى.. وقد يُعدل من قرار الحاضر.. هذا الوجه قد يُحيى ما مات من مشاعر.. يقذف بالوجدان إلى حيث الوجود من جديد.. ربما، لكن تُرى، هل نترك القدر يعبث بنا من جديد.. هل نخوض التجربة لينكسر القلب مرة ثالثة، وحال انكساره هذه المرة فقد تنكسر الذات معه إلى الأبد؟!

ربما فكر صاحبنا في الأمر هذه المرة بتلك الشكايات.. شكايات في قلبه هو وحده لم يُظهر عليها أحدًا.. في عقله هو وحده لم يُطلع عليها سوى الله.. صراع يشتعل بداخله.. تُسابقه خطى القدر.. ويد القدر، وقلم القدر. ومن ذا الذى يمكنه أن يفر من القدر ولو لبضعة لحظة.

تم اللقاء الأول والثانى في ردهات الأهرام.. اسمي مصطفى النشار مدرس بكلية الآداب جامعة القاهرة قسم الفلسفة.. أهلاً وسهلاً بك.. اسمي سعدية شعيب، محررة في مجلة الشباب وعلوم المستقبل.. آه.. مع صلاح جلال.. نعم هو أستاذي.

كان هذا هو اللقاء الأول.. لسان يتحرك بالتعارف.. لكن القلوب تعارفت منذ زمن.. ولولا سبق القلوب ما تخاطبت الألسنة، ولا سلّمت العقول..

وإذا كان الفقر سببًا في انكسار القلب مرتين سابقتين، فالمؤكد أنه لن يكون السبب هذه المرة، إذ أن سعدية بنت الزمالك.. ذاك الحىَّ الراقى الذى يسكنه المشاهير.. بيت والدها في أرقى منطقة على الكورنيش.. أسرة ذات يسار، وذات تاريخ تليد.

مبشرات خير إذن تتردد في عقل صاحبنا وقلبه.. أصبح أكثر تسليمًا للأمر، وأكثر إرادة في إتمامه.. وأكثر إلحاحًا في طلبه.. ربما شعُر في أعماقه أن هذه المرة هي العوض الحقيقي.. ربما شعُر أن مصالحة قريبة يجريها معه القدر.. أو أن هدية السماء توشك أن تفتح بين يديه.

ولكن العقبة كؤود.. ليس الفقر.. وليست الحاجة.. وليس الدَين.. ولكنه الأخ الأكبر.. رجل أعمال ناجح لأقصى درجة.. الأخ الأكبر لثلاثة إناث.. ولكنه متعلق بإخوته تعلقًا عجيبًا، قد يصل إلى حدَّ التعلق المرضي.. أوصله هذا الحب وذاك التعلق إلى حدَّ التسلط عليهم.. فإذا تمت خطبة إحداهن لايرتاح له بال حتى يُفرق تلك الزيجة.. وإذا أحبت إحداهن وقف أمامها عائقًا ولو استطاع الوصول إلى قلبها لخلعه من مكانه حتى لا يدخله أحد، يكفى أن ألخص لك مدى تسلطه وغيرته على أخواته يا صديقى بموقفٍ واحد.. ذلك أنه سافر إلى ليبيا في رحلة عمل فقام أبوه بتزويج بناته مستغلاً غيابه عن مصر..وكفى بهذا الموقف دلالة على حبه الشديد لإخوته الإناث وغيرته عليهن.

أطلعت "سعدية" صاحبنا على كل هذه الجوانب، غير أنها لم تكن تدرى كيف سيتم تذليل هذه العقبات.. لم تكن تدرى سوى شيئًا واحدًا؛ أنها أحبت صاحبنا، وألا حياة بدونه.. وأنه الرجل الذى يمكنها أن تُضحى لأجله بكل شيء.. أيًا كان هذا الشيء، حتى لو كان أخاها الأكبر.

كانت أسرة "سعدية" ممتلئة إعجابًا بصاحبنا، وكان أبوها أشدهم إعجابًا وحبًا، تحدث إلى صاحبنا أول مرة التقاه فيها.. "دكتور في كلية الآداب.. ما شاء الله يا ولدى.. والله لقد شرفتنى سعدية.. كنت أظنها ستأتى لى بولد ذى شعر طويل وسلسلة مذهبة".. وضحك صاحبنا وضحك الرجل وضحك محمد.. الشقيق الأصغر لسعدية، ذاك الذى كان يرتبط بإخوته ارتباطًا عجيبًا، فيه حب لا تسلط.. فيه عطاء لا أخذ.. فيه حنان لا تجبر.

بمعاونة محمد تمت الخطبة.. وبمعاونته تم التغلب على أى مشكلة تعترض الحبيبين وخاصة من جانب الأخ الأكبر.

لقد تلكأ الرجل في تحديد موعد الخطوبة.. كانت علته أن لديه مشكلات في شركته، وأنه يعانى المكائد، وكان رد صاحبنا عليه دومًا ألا علاقة بين الخطوبة ومشكلات الشركة، بل قد يكون العكس هو الصحيح.. إن جو المشكلات جوٌ كئيب، والخطوبة فرصة عزيزة للهرب من هذا الجو الكئيب إلى شيء من الفرح.. وشيء من السعادة، ولكن هذا الرد لم يكن ليقنع المهندس الكبير، ذلك أنه لا يريد قناعات عقلية، ولا حوارًا عقليًا، إنه يريد أن يحتفظ بأخته بجواره.. فهي الصورة الجميلة له في اجتماعاته.. فى لقاءاته.. وفى المناسبات العامة .. كاتبة في الأهرام.. صغيرة السن.. جميلة الوجه.. رقيقة السلوك.. لديها دبلوماسية رائعة في التعامل مع الآخر.. لديها كاريزما وحضور.. وهو لن يُفرط في كل تلك المميزات ويترك لها حق تقرير مصيرها وحياتها.

الوقت يداهم صاحبنا، وجامعة الإمارات العربية ترسل في تعجله القدوم حيث أُعير إليها وقضى الأمر، وحيث قارب العام الدراسى على البدء. فأطلع والدة خطيبته على الموقف، وكانت سيدة جريئة،

ذات شخصية قويـة، تفهم الأمـور جيدًا وتقدرها بقدرها، وتحيط علمًا بما يفعله ابنها المهندس وما ينتويه.. فاتفقت مع صاحبنا على تحديد موعد الخطوبة وعقد القران دفعةً واحدةً حتى تغلق الباب أمام أى مشكلات يسببها ابنها الأكبر.. وتم ما أرادت، غير أن ما عكر صفوها أنها أخذت العروسين وذهبت إلى الشيخ الشعراوى في بيته كي يعقد القران، إذ تجمع الأسرة الصداقة بالشيخ الجليل، غير أنهم لم يجدوه إذ كان في سفر..

فاضطروا بدافع التعجُل أن يعقدا القران لدى مأذون حي الزمالك، وتمت الخطبة بحضور أساطين الأهرام ومشاهير الكتابة وكان الأخ الأكبر ذاته هو من وضع يده في يد صاحبنا، ثم بعد ذلك بحوالى عام وبالتحديد في اليوم الثالث عشر من أغسطس عام ١٩٨٩م تم الزواج دون أن يحضر الشقيق الأكبر احتجاجا على أنه لم يؤخذ رأيه فى التحديد النهائي لموعد الزواج وأنه قد جاءته الدعوه متأخرة وكان مشغولا حينئذ بمشاكل كثيرة فى عمله.

وبعيدا عن ذلك فقد كان يوما مشهودا في حياة صاحبنا.. لقد انفرجت أسارير صاحبنا أخيرا. فللمرة الأولى يستقر قلبه..

للمرة الأولى يفرح من أعماقه.. إنه طيلة المرحلة المنقضية لم يكن يأمن غدرات القدر، ولا تقلبات الأيام.. كان يحب.. نعم..

لكنه يتعامل مع الأمور كلها بحذر.. بحزمٍ شديد.. ربما لم يطمئن قلبه إلا بعد عقد القران.. ولم تداخله السكينة التامة إلا بعد إتمام الزواج.

لقد كان الزواج مفاجأة سعيدة، لعلها المفاجأة الكبرى.. مفاجأة من القدر الذى طالما عاند معه في تلك المسألة وإن تساهل معه في مسائل أخرى. ومفاجأة في نفس صاحبنا ذاته إذ كان عكف على الوحدة بضع سنين وحسم أمره في تلك القضية إما بتأخير الزواج وتسليمه إلى إرادة القدر وله في عبد الغفار مكاوى وزكى نجيب محمود الأسوة.. أو الإعراض عن الأمر برمته وله في عاطف العراقى الأسوة.. ولكن القدر يبسط له يد الزمن بعد أن قبضها عنه طويلاً.. فاطمأنت نفسه، وسكنت روحه.. وأصبح لوجوده طعمٌ، ولحياته لونٌ من ألوان البهجة.. ملأت سعدية حياة صاحبنا .. غير أنها لم تستطع أن تعزله عن وحدته.. لم تفلح في إخراجه من كهفه..

لقد طالت شكايتها وتنوعت محاورها.. من كون العمل يستهلك كل وقته، إلى كثرة أسفاره، إلى انعكافه على ذاته.. إلى قلة حديثه.

طالت شكايتها وهى على حق فيما تشكو.. لكنها لم تضجر يومًا.. لم تسخط.. لم يبلغ سخطها حدَّ النقمة أو حد الخلاف.. كان أصلها غالبًا دومًا، فهى تُقدر ظروف عمله إذا سخطت.. وتقدر طبيعة شخصيته إذا ضجرت.. وتقدر ذاك الماضى التليد الذى فرض عليه الوحدة وضرب عليه العزلة.. ماضي الريف والدراسة والبحث العلمى..

حاولت زوجته إخراجه من ذاك الكهف، بذلت كل سبيلٍ في هذا الشأن وما استطاعت إلى بُغيتها سبيلاً.. كان يأخذ كهفه معه في أي مكانٍ ذهب إليه.. فكثيرًا ما تُدعى الأسرة إلى مناسبة اجتماعية يحضُر فيها كبار الكتَّاب وأصحاب الرأى ورجال الأعمال والوزراء والسفراء.. كان يترك زوجته تجلس حيث أرادت ثم يدخل هو كهف الوحدة حتى ينتهى اللقاء وتنتهى المناسبة، وفى كل مرة يكون اللوم، ثم يكون نفس الرد؛ وذات المنطق.

إنها فطرة يا صديقى لا تبديل لها.. فطرة غُرست في أعماقه مُذ وُلد، وأى إجراء في سبيل تعديلها مصيره إلى الفشل.

حكى لى صاحبنا ذات مرة أن الشكوى حين طالت وشعُر بمظلمة زوجته في تلك الناحية، قدم لها رشوة معنوية، فأهدى لها كتابًا من أعظم كتبه، كتابًا ذا أجزاءٍ خمسة، كتب في صفحة الإهداء : "إلى زوجتى".

قلت له: حتى في مشاعرك بخيل!! ألم يكن الأولى أن تكتب اسمها كاملاً.. "إلى زوجتى.. سعدية شعيب".. أليس هذا أجبر لخاطرها وأطيب لنفسها؟!

ابتسم ابتسامته التى لا تسمع لها صوتًا أبدًا، ثم قال لى: "أتريد أن يقول الطلاب: زوج سعدية!! وضحك وضحكت.. ثم استطرد مفسرًا الحدث: "لقد أهدى أستاذنا الدكتور إمام عبد الفتاح إمام أحد مؤلفاته التى كان يُدرسها لنا في مرحلة الليسانس إلى زوجته وكتب اسمها.. زينب الطنبارى.. وكان حين ولوجه المدرج ليعطى المحاضرة يضحك الطلاب، ثم يقولون زوج زينب أتى.. زوج زينب ذهب...

عاش صاحبنا حياته الزوجية بالحب.. بالسكينة.. بالمودة

كانت طبيعته النفسية تضمن له ذلك كله.. كانت تضمن له أوفر الحظ من الهدوء النفسي، ذلك أنه كان متصالحًا مع ذاته إلى أقصى حدًّ.. متواضعًا إلى أعلى قدر.. ربما لا تسمع له صوتًا في شيء غير العلم والقضايا العامة.. أما الحياة الخاصة فكل شيء يمكنه أن يكون على ما يرام.. ما لم يخرج عن الأطر العامة للشرع أو للعُرف.. وما خرجت حياته في يومٍ عن هذين المسلكين.. إنه الأستاذ الجامعى الذى يُدرس في جامعة القاهرة، وهو المفكر الشهير الذى تتسابق إليه الصحف.. وهو الثرى الذى يسكن مدينة نصر، وفى أرقى أحيائها. لكنه ابن شوبر الذى تسكن بداخله بكل مقوماتها.. قيم الريف.. مبادئ الريف.. أصالة الريف.. أعراف الريف.. كل شيء يساكنه لم يزل.. وما استطاع الفكاك قط من ذاك الإرث، وما أعظمه من إرث.

(١٧)

بين الشرق والغرب

كنت مع صديق لى نتقاسم الشغف بكتابات صاحبنا، نلتقمها جميعًا أولاً بأول.. ارتبطت بفكره وقلمه إلى حدَّ التمكن من معرفة ما يجول بداخله.. ما يعتريه من تساؤلات وما يداهمه من مخاوف.

والحق أن التساؤلات فى أغلبها والهموم فى مجملها والمخاوف فى أكثريتها كانت تدور فى فلك الوطن.. الوحدة.. النهضة.. القومية.. بناء الإنسان.. النهوض بالوعي.. سُبُل بناء النهضة.. آليات صناعة قوة عربية. تلك هى المؤرقات الدائمة التى كانت مثار جدل في رأس صاحبنا، سرعان ما يُشرك قراءه في تلك الجدليات الكبرى، فيكون نصيبه منها مزيدًا من الهم، وكثيرًا من الرحى وقليل من الطحن.

لا يمتلك الغرب من مقومات النهضة شيئًا غير المادة.. يمتلك العلم، وهو السلاح الأول والأس الجوهرى لصناعة أي نهضة..

لكنه لا يمتلك من المقومات الروحية أدناها.. إنه صفر في القيم، صفر في المبادئ.. صفر في كل مقومات الروح، حتى وإن بدا غير ذلك.

يُحاول الغرب أن يُصدّر للعالم مشهد الرحمة والإنسانية، ولكنه في الحقيقة هو الجلاد الأكبر.. والطاغية الأكبر.. والشر المستطير الذى يتطاير شرره ليلحق بالعالمين.

يمارس الغرب البلطجة السياسية على العالم خاصة أولئك المستضعفين منهم، ينحاز في العلن إلى فئة وفى الخفاء إلى عدوها.. يزود الاثنين بالسلاح.. يُشبعا بعضهما البعض قتلاً وتدميرًا.. ثم يأتى هو بصليبه الأحمر ليداوى الجرحى كى يبدو أمام العالم أنه حمامة السلام التى تعطى دون مقابل.. والتى تنشغل بقضايا الإنسان.. وجوده، وحياته، وأمنه، وصحته.

هكذا يبدو القوم.. ولكن السر الذى أخفوه يعجز اللسان عن وصفه.. وفى الوقت الذى يتقدم فيه الغرب ماديًا وتكنولوجيًا ويطأ القيم بأقدامه، يتخلف الشرق الذى يمتلك من القيم أحسنها..

ومن الحضارة أعرقها.. ومن المبادئ أقومها وأزكاها.. لتزداد حسرة صاحبنا، ويشتد عليه الألم.

ملأت تلك القناعات عقل صاحبنا.. تابعته في كل ما كتب.. وما كان يبتعد عن هذه القضايا.. وما تغيرت هذه القناعات منذ زيارته الأولى للغرب في صيف ١٩٧٤م حين كان طالبًا لم يزل.. حتى حين قُدر له العودة إلى الغرب، ما ازدادت هذه الأفكار إلا تجذرًا، وما ازداد صاحبنا إلا سخطًا على الغرب والشرق معًا.

أما السخط على الغرب فلكونه متكبر متجبر يسوم العالم سوء العذاب ثم يُبدى غير ما يبطن، ويُظهر غير ما يُخفى.. ثم هو ينصب ألف مكيال.. وألف ميزان.. وألف مقياس.

وأما السخط على الشرق فلأنه طالما ضيَّع سُبُل النهضة.. لطالما فرَّط في النهضة وقد امتلك كل آلياتها وغالبية مقوماتها.. إنه السخط والضجر في أعلى حالاتهما، إذ امتلكنا كل شيء، ثم تخلفنا عن الركب رغم امتلاكنا ذاك!! فما أغنى عنا ما امتلكناه من مقومات من شيء.

حضارة عريقة امتلأت بها الكتب.. اسألوا هنرى برستيد حين كتب عن مصر "فجر الضمير".. حين علَّمت مصر العالم معنى العدالة.. حين كانت مصر أقدم حضارة في التاريخ.. حين كان حكام مصر يقسمون على العدل واحترام حقوق كل الكائنات بما فيها الطير والحيوان.. حين أسموا العدالة "ماعت" ... حين أشرقت شمس الدنيا من مصر.

كان الغرب في رحم الغيب وكانت مصر على عرش قيادة العالم.. ثم ولد الغرب وهو يتعثر في جهالته ونور مصر يُضاء به المشرق والمغرب.. ثم أين مصر اليوم وأشقاؤها.. وأين الغرب!!

هذا ما يدعو للتحسر، ما يجترر الألم اجترارًا..

عاد صاحبنا إلى الغرب تارة أخرى.. لكن وجهته هذه المرة إلى أمريكا.. ذاك الفرعون الذى يحكم العالم بألف مكيال وألف وجه.. وكم أبت نفسه تلك الرحلة.. لكن القدر يأبى إلا أن يذهب.. ربما ليُعمق نظرته لتكبر وعنجهية الغرب.. وربما ليزداد تحسرًا على ما آل إليه الشرق وما أضاع من فُرصٍ للنهضة، وربما هما معًا.

في أواخر سنة ٢٠٠٤م حين كان صاحبنا عميدًا لكلية التربية ببنى سويف، وكانت بنى سويف حينئذ فرعًا من أفرع جامعة القاهرة قبل استقلالها بعد هذا التاريخ بعامٍ واحد.. حضر أستاذ أمريكى ليتابع نشاط كلية التربية وليرى أثر المنحة الأمريكية لهذا الشأن.. ثم قرر هذا الأستاذ ورفاقه أن يسافر عمداء كليات التربية لحضور دورة في إدارة الجودة.. ولكن صاحبنا تعلل بأن بنى سويف سوف تستقل بعد أشهُرٍ قليلة وأنه سيعود إلى جامعته الأم (القاهرة) ومن ثمَّ سيصبح غير ذى صفة.. إنها مجرد حجة مدبجة منطقيًا كى يفر من السفر إلى أمريكا، ثم قام بترشيح وكيل الكلية للسفر بدلاً منه.

مرت السنون تترى وأصبح الرجل عميدًا لكلية رياض الأطفال في العام الدراسى ٢٠٠٧/٢٠٠٨م.. وحدث أن أرسلت أمريكا في طلب عمداء كليات رياض الأطفال والتربية النوعية لبرنامج تدريبى لإعداد هذه الكليات لنظم الجودة والاعتماد.. وما استطاع الاعتذار بمثل سابقتها.. ولا وجد من يرسله بديلاً له..

إجراءات معقدة تمت لأجل إتمام السفر، ثم يأتى صيف ٢٠٠٨م وهو يغادر القاهرة إلى أمريكا.. إنها المرة الأولى التى سيرى فيها مركز حكم العالم عن قرب.. سيدخل جامعاتها.. حيث الجامعة صاحبة الدعوة أباليشيا في ولاية نورث كارولينا وهى الولاية التى خرجت منها الدعوة إلى الغاء التمييز العنصرى في أمريكا، حين اقتحم بعض السود أتوبيس البيض وجلسوا فيه عنوة.

هكذا شاء القدر.. أن يذهب صاحبنا إلى أمريكا.. ومن بين ولاياتها التى تتجاوز الخمسين يختر له القدر الولاية التى شهدت الحرب العنصرية الضروس بين السود والبيض..

تاريخ أسود من العنصرية شهدته راعية الحرية في العالم.. أو هكذا تدَّعى.. تاريخ مليء بالقتل والسلب وإهدار حقوق الإنسان في دولة طالما ادعت أنها راعية حقوق الإنسان.

أمريكا دولة غير طبيعية، صنعها بعض المساجين الأوروبيين الذين عاثوا في الأرض فسادًا، ثم ذبحوا السكان الأصليين واستعبدوا الأفارقة الزنوج وعاملوهم على أنهم عبيد لا بشر.. هكذا نطق التاريخ.. وهكذا شهدت الأحداث.

في عام ١٨٣٠م وقع الرئيس الأمريكى أندرو جاكسون على قانون إعادة توطين الهنود الحمر، ونص القانون على أن الجيش الأمريكى سيكون مسئولاً عن تحرك السكان الأصليين غربًا بالقوة الجبرية وإقامة محميات لهم.. ومنذ ذاك الحين أُجبر الهنود الحمر على ترك منازلهم وانطلقوا فيما أطلقت عليه الأجيال اللاحقة "طريق الدماء والدموع" حيث الاستعباد والطرد والتعذيب، حيث ينحدر الإنسان إلى أحط درجة في معاملة أخيه الإنسان، وينزلق إلى مهاوي الإفساد في الأرض.

لقد نظر الأمريكيون المغتصبون والمعتدون إلى السكان الأصليين من الهنود الحُمر نظرة ازدراء وانتقاص.. عاملوهم على أنهم جنس أقل من البشر.. وصرَّح بذلك جورج واشنطن الذى لقبوه بـ " أبو الأمة" فقال صراحة: "إذا توسعنا في الهجرة فلابد لنا من دفع هؤلاء البرابرة بعيدًا عن منازلهم.. إنهم وحوش مثل الذئاب"!!!

ذهب صاحبنا إلى تلك الأرض وفى ذهنه هذا التاريخ الأسود، تاريخ القتل والدماء والتعذيب في الأصل.. ثم تاريخ التزوير والكذب والتدليس في العلانية..

لكن ما استرعى انتباهه أنهم خلَّدوا تلك الوقائع والحروب في متاحفهم.. فحروب إبادة السكان الأصليين ومحاكماتهم غير العادلة وطردهم وسلب أموالهم ونهب أراضيهم وطردهم منها إلى مجاهيل وأطراف القارة، ثم الصراع بين السود والبيض.. ثم حرب الولايات الفيدرالية مع ولايات الاتحاد؛ تلك التى راح ضحيتها مئات الألوف من الطرفين.. كل هذه الأحداث مسجلة في المتاحف الأمريكية.

تاريخ حافل من الدماء في بلاد لطالما ادعت أنها حامية الإنسان.. تاريخ مليء بالحروب والقتل في بلاد طال ادعاؤها بأنها أرض السلام، وداعية السلام، وربة السلام.

وشاء القدر أن تكون أول محاضرة يحضرها صاحبنا في تلك الولاية لأستاذ زنجى.. تحدث فيها عن إلغاء التمييز العنصرى في أمريكا.. ولكن صاحبنا الذى يعلم التاريخ على حقيقته توجه إليه بالتساؤل: "هل انتهت مظاهر التمييز تمامًا اليوم في أمريكا انتهاءً تامًا، أم لازلتم تعانون من صنوف ذاك التمييز؟ وهل يمكن لأوباما، ذاك الرجل الأسود الذى يمتد إلى جذور سوداء أن يفوز في الانتخابات الأمريكية".. وشعُر المحاضر بالحرج..

وفهم أن السائل دارس جيد للتاريخ.. يفهم حقيقة ما يدور، فاضطر إلى الرد بصراحة منقطعة النظير: "أما عن سؤالك حول انتهاء مظاهر التمييز فهى لم تنته بعد.. لازالت بعض صورها موجودة خاصة في البنوك والقضاء وغيرهما.. ونأمل أن يولد جيل يستطيع القضاء عليها قضاءً مبرمًا.. أما بخصوص أوباما فلا أظنه ينجح لأن البديل هو قتله حال صعوده".

انتهت الزيارة إلى أمريكا وعاد صاحبنا بقناعات أشد من سابقتها.. فالغرب متغطرس.. لديه المقومات المادية فقط.. ليس لديه مبادئ أو قيم إلا فيما نـدُر.. إمكانية التعاون بين الغرب والشرق مطلوبة.. المعاملة بندية وكرامة هى حجر الأساس في أية معاملة تربطنا بهم..

تلك هى القناعات التى ما غيرَّتها الرحلة إلى معقل حكم العالم.. الحاكم بأمر الله في كون الله الفسيح.. الولايات المتحدة الأمريكية..

زاد هذه القناعة موقفان.. الأول بعد فوز أوباما في صيف ٢٠٠٨م وزيارته إلى مصر وخطابه الشهير في جامعة القاهرة الذى دغدغ فيه المشاعر وتحدث عن حلٍ جذرى للمشكلة الفلسطينية وعن آفاق تعاون جديدة مع الشرق، وعن فجر للعدالة تشرق شمسه من جديد؛ كان هذا هو الحديث أمام الكاميرات.. أمام العالم..

لكن ما خفي كان هو عين السياسة الأمريكية المتجبرة والمتسلطة على العالم.. بدءً من الخطاب ذاته حيث العنصرية التى لحقت تنظيمه، إذ اختار الأمريكان الحضور بعناية، فلم يُسمح لأحد بالحضور من خارج مجلس جامعة القاهرة إلا من اختارتهم المخابرات الأمريكية بما في ذلك الصحف.. لعله لم يحضر من بين الصحف آنذاك سوى مجدى الجلاد رئيس تحرير المصرى اليوم حينها.. وسأله صاحبنا عن حضور الصحف فأجاب باللأدرية.. واللامفهومية.. واللاعقلانية.

وبعد انتهاء الخطاب طلب صاحبنا في ثلاثة مقالات متوالية في الأهرام من الزعماء العرب استغلال الخطاب القاهري وعقد قمة عربية تُرحب بتلك القرارات وتطالب القائد الجديد بالالتزام بوعوده أمام العالم ليكون لهم موقفًا يشهد عليه العالم.. ولكن كعادة وطننا المكلوم.. رحب كل زعيم بالقرارات على حدة.. وما شهد العالم لنا جمعًا ولا سمع لنا صوتًا ولا أحس منا ركزًا.

لقد أعلن الرئيس الأمريكى الحرية فى العلن.. ثم مارست سلطاته الاستبداد في السر ومارست أبشع صنوف الديكتاتورية عبر اختيار شخص من يحضر اللقاء.. ثم يعلن عن العدالة في العلن ويمارس الظلم في السر.. يعلن عن تأييده للحق أمام الكاميرات ثم يُعين القاتل ويتستر على الظلم وأهله في السر..

إنها المفارقة الوجودية التى تزلزل عرش الإنسانية الباهتة.. المتقلبة.. المنحدرة بعنف إلى الهاوية.

أما الموقف الثانى الذى رسّخ قناعات الفيلسوف فهو ما حدث من شغب بعد ذاك التاريخ بفترة غير وجيزة، حين تم احتلال البيت الأبيض من قِبَل أنصار الرئيس الخاسر في الانتخابات الأمريكية ٢٠٢٠م دونالد ترامب.. حيث عاثوا في الأرض فسادًا وقلبوا تمثال الديموقراطية رأسًا على عقب، وكادت الديموقراطية الأمريكية أن تهوى إلى أسفل سافلين، وأصبح المثال الأمريكى هاويًا منكس الرأس مثارًا لسخرية العالمين.. وازدراء المنتقصين..

إن أمريكا والغرب من ورائها لا يملكون حضارة عريقة، لأنهم لا يمتلكون مقوماتها كاملة، إنهم عبَّاد المادة.. تعطيهم المادة بقدر ما يعطونها، لا أكثر ولا أقل...ولعل هذا الكلام أكثر صدقًا على أمريكا؛ إذ لا تزال دولة وليدة؛ عمرها من الزمان عدة عقود لا أكثر..

وما تغيرت تلك القناعات ولا ذاك الرأى لصاحبنا..

فبعد أن بلغ الستين أو كاد جاءته دعوة لزيارة ألمانيا حين رئاسته لقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة، وهي آخر ولاية جامعية ومنصب أكاديمي له؛ حيث نظمت اليونسكو سلسلة لقاءات بالاشتراك مع جامعة تونس وجامعة القاهرة وجامعة كاسيل في ألمانيا.. وذهب صاحبنا في شتاء العام ٢٠١٤م إلى تلك البلاد الساحرة.. ألمانيا.. ذات التاريخ العريق في البناء وفى الحروب على السواء.. وجد شعبًا عمليًا محبًا للعمل والإنتاج، ليس لديه هزل في أى شيء، لديهم ديموقراطية حقيقية.. وحقوق إنسان في أرفع مقاماتها.. لكنها ليست استثناءً من الغرب.. إذ عبدوا المادة، ولا شيء غير المادة، فأعطتهم المادة بقدر ما أعطوها.

بين الشرق والغرب ليس طول مسافة إذن.. ولا طول زمن.. بين الشرق والغرب توافر إرادة أو غيابها.. وعي أمة أو غيابه.. أما حال قرر الشرق النهضة، فالمقومات كلها لديه، لا ينقصه شيء، فقط أن يتحرك.. أن يبدأ الطريق، فإذا بدأ الطريق الصواب، فوصوله بات حتميًا، وبات أسرع من الضوء.

تقع الأمة العربية والإسلامية في قلب هذا الشرق.. وهم الأولى بصناعة النهضة والريادة.. إذ تميزوا على العالمين بالرسالة الخاتمة، وبالنبي الخاتم، فأصبحوا أصحاب وحي.. أصحاب علم.. لقد جاء وحيهم بالعلم وبالقراءة حين كانت أوروبا تعيش في ظلمات الجهل والفقر.. حين كان المرض يحصد منهم مئات الألوف..

آن الأوان لأصحاب الوحي أن يلتمسوا القوة مما نزل عليهم من الآيات والذكر الحكيم.. أن يلتمسوا من هدى الرسالات والنبوات.. لكنهم للأسف حولوا الدين إلى عقبة، وامتطاه المتشددون وانحرفوا به عن صراطه المستقيم.

(١٨)

الجامعة وطن

كانت جامعة القاهرة هى الحُلم الكبير لصاحبنا.. لم يكن يُصدق نفسه إذ التحق بها في بدايات العام الدراسي ١٩٧١م. لقد كان وأقرانه يسمعون عنها وهم طلاب في المرحلة الثانوية.. كان الصبى يُقلب الاسم في رأسه ووجدانه مرات ومرات.. "جامعة القاهرة".. إنها الاسم العتيق الذى حمل من قبل مسمى "فؤاد الأول".. إنها أول جامعة مصرية، تلك التى أرسلت واستقبلت البعثات العلمية.. أرسلت إلى أوروبا أبناءها.. واستقبلت من كافة أرجاء الوطن العربي وآسيا والشرق كله الدارسين والباحثين.

وكم بلغت سعادة الصبي إذ التحق بقسم الفلسفة بها.. وإذ رافقه صديقاه اللذان لم يفارقاه طيلة عمره، مدحت وعطية، .. وإذ يجد في هذا القسم التنافس الحقيقى بين الطلاب، والأسماء الكبرى من الأساتذة الذين لم يكن يسمعهم إلا في الإذاعة، أو يلتقيهم إلا في الصحف عبر مقالاتهم وأخبار كتبهم..

وفوق ذاك كله، فإن تفوقه داخل القسم وضع له القبول لدى أساتذته.. فهو المقرَّب إلى حدَّ الصداقة من محمد مهران في الفترة الباكرة من التحاقه بالقسم.. وهو الأقرب إلى عقل ووجدان عبد الغفار مكاوى الذى أهداه جهاز راديو قديم من الأجهزة العتيقة.. ثم في الأخير هو الأول على أقسام الفلسفة في السنة النهائية عبر طول الوطن وعرضه إذ حصل على تقدير ممتاز..

كانت المدينة الجامعية مصدرًا لسعادة الفتى.. تدور فيها اللقاءات والمناقشات ويتم فيها تنظيم المظاهرات المطالبة بالحسم مع الكيان الصهيوني.. إنها أشبه ببيت الأمة، فيها راحة البدن ووحي العقل.

وما أن توطدت علاقة الفتى بجامعة القاهرة حتى صارت له وطنًا أكبر.. وطن يضم أحلامه.. تنبعث منه آماله.. تنمو فيه طموحاته.. حيث العمل بالصحافة في أول الأمر.. ثم الانشغال بالسلك الأكاديمي في آخره.

كانت المسافة من كلية الآداب إلى المدينة الجامعية معلومة لدى صاحبنا بالخطوة.. كل طرقها محفورة بداخله.. سواء تلك التي كانت تمتد إلى الأزقة الضيقة التى كانت تضم مقهى قديم طالما جلس عليه مع أصدقائه لتناول الشاي أو الإفطار، وتضم عربة للفول يقف عليها رجل من أقاصي الصعيد هو أقرب لسمت أهل الريف، طيب اللسان، حسن المعاملة مع الطلاب، بالكاد يمكنك إيجاد مكانٍ لقدمين ملتصقة إحداهما بالأخرى من شدة زحام الطلاب على عربته.

وربما كان الطريق الغربي الذى تخرج إليه من باب كلية التجارة، ثم تقطع الشارع فما هي إلا لحظات معدودة وتصل المدينة الجامعية.

وربما خرج صاحبنا مع أصدقائه بعض ليلة ليسير في شوارع القاهرة العتيقة، تلك التى سكنته وسكنها، وسارت القاهرة وطنًا أكبر -وجامعتها الوطن الأصغر-.. وما لحياة صاحبنا وجود بدونهما معًا.. فالقاهرة جزءٌ من الجامعة، والجامعة جزء من القاهرة، وكلاهما له الوجود الأكبر في عشق الفتى.

مثّلت الجامعة لصاحبنا وهو طالب البنية الفكرية والبنية الوجدانية وتشكيل الشخصية النهائية التى ظلت ملازمة له طيلة حياته.

فمن الناحية الفكرية كانت اللقاءات بأساتذة الفكر يحيى هويدي وزكى نجيب محمود وعثمان أمين وأميرة مطر وحسن حنفي بالإضافة إلى الأساتذة الأجانب الذين كانت تستعين بهم جامعة القاهرة للتدريس في أقسامها المختلفة.. وهي حياة خصبة للفكر الخالص الذى تنمو فيه العقول وتتولد فيه الأفكار.. فمن تعارض المذاهب يولد الرأي وتولد مذاهب جديدة، وتولد أفكار جديدة.

ومن اللقاءات والنقاشات تتولد الأفكار وتتسع المدارك وتجد العقول بيئتها الخصبة التى تنمو فيها بنضج ووعيٍ.

أما من الناحية الوجدانية، فحب الوطن ينمو بداخل الفتى كلما داهمته الخطوب .. وكلما اشتدت عليه الأزمات.. فهو الثائر وهو المنظم للمظاهرات والمؤلف لشعاراتها تعجلاً للحسم.. ثم هو الصديق الذى يجمع صداقاتٍ عدة في إطار عقلاني ووجداني يُعين على الغُربة، ويبعث على الأمل وسط كدمات الحياة.

أما من ناحية تشكيل الشخصية فقد استكملت بنيانها في المرحلة الجامعية، والتى يمكن تلخيص أبرز معالمها في نقاط محددة تتمثل في الاستقلال التام عن المرأة..

إذ كانت تجربة فاطمة قد تركت أثرها ولم تتضح رؤيته للمرأة بعد؛ فكان رأيه كما هو رأي الشباب في تلك السن، أن الشيء الذي يأتى منه الحزن يمكن الاستغناء عنه بالكلية بدلاً من علاج مواطن الخلل أو تلك التى يدخل منها الحزن.. فلم تكن فكرة علاج السلبيات مطروحة بقدر ما كانت فكرة الاستغناء بالكلية مسيطرة.

ثم تكوين الشخصية القيادية التى تنظم المظاهرات وتلتحم مع القيادات الطلابية الشهيرة فى كليته وجامعته مثل أحمد عبد الله وخالد جويلي وايمان السعدونى ومحمد الشبه وحلمي سالم ورفعت سلام ومحمد المغربي ومحمد خضير وفايز اسماعبل وغيرهم وغيرهم، تلك الشخصية التى تُصر على رأيها في ضرورة الخلاص من العدو الصيهوني وتحرير الأرض المسلوبه، وهى ذات الشخصية التى ظلت ملازمة له طيلة حياته حيث استطاع قيادة الكليات والمناصب الكبرى فيما بعد حين عُهد إليه بعمادة كلية التربية جامعة القاهرة فرع بنى سويف، ثم رئاسة قسم الفلسفة أثناء ذلك وبعده، ثم عمادة كلية العلوم الاجتماعية بجامعة السادس من أكتوبر والتى تركها بسبب شخصيته

القيادية والمستقلة إذ لم يكن يرضخ لأحد ولا يمكن لأحد التحكم فيه أو توجيه قراراته أو السيطرة على رأيه، بل كان مستقل الإرادة، مستقل الرأي، صاحب قرار، وهو ما أدى إلى وقوع التصادم بينه وبين مجلس الأمناء، فترك لهم الكلية قائلاً: "لكم كليتكم ولي شخصيتي ورأيي".

وكانت أبرز محطات تلك الشخصية في الفترة من ٢٠٠٧م وما تلاها، حين استدعاه الدكتور على عبد الرحمن رئيس جامعة القاهرة آنذاك، وطلب إليه أن يترك جامعة ٦ اكتوبر ويقبل بعمادة كلية رياض الأطفال جامعة القاهرة لأنها تعانى الكثير من المشكلات والأزمات، والتى حار فيها رئيس الجامعة.. وذهب صاحبنا إلى الكلية برفقة رئيس الجامعة في أول يومٍ عمادة له، حيث أصر الرئيس على الذهاب معه لتعضيد موقفه كونه خارج كليات التربية أساسًا، وكانت المفارقة الكبرى التى أحدثها صاحبنا في أول سنة من عمادته..

لقد أعاد هيكلة الكلية، وشكَّل مجلس كلية قوي دعا إليه الدكتور حسين كامل بهاء الدين الذى كان وزيرًا للتربية والتعليم لعقودٍ طويلة والذى أسس كليات رياض الأطفال في مصر .. والدكتور محمود كامل الناقة مقرر اللجنة العلمية لترقية أساتذة التربية..

وما أراد بضم هذين الرجلين الكبيرين إلى مجلس الكلية إلا أن يضمن حيادية القرارات وموضوعيتها، وفى ذات الوقت تجد قبولاً من أعضاء المجلس وينفذونها دون اعتراض.. إذ أن وجود وزير بحجم حسين كامل بهاء الدين.. ورجل علم متخصص في التربية بحجم رئيس لجنة الترقيات سيُضفى الموضوعية على القرارات التى هى بحاجة إلى متخصصين من ناحية، وسيُرغم أعضاء المجلس على القبول من ناحية أخرى إذ قد يتعرضون إلى حرجٍ شديد أو فضح نواياهم الحقيقية حال اعتراضهم، وهو ما يفسر ذكاء الرجل الإدارى وموهبته القيادية وشخصيته القوية التى لا تفقد تأثيرها في أشد المواقف وأكثرها تعقيدًا.

واستطاع صاحبنا بتلك الشخصية القيادية أن يرتقى بالكلية فأنشأ فيها شُعبًا جديدة بعد أن كانت شعبة واحدة لرياض الأطفال.. وجعل لمجالس الأقسام سلطة مستقلة وتابع قرارات المجالس بموضوعية وحنكة، كما أقام بها مؤتمرًا دوليًا سنويًا يلقى كلمته الافتتاحية كل عام الدكتور حسين كامل بهاء الدين.

ثم عاد صاحبنا إلى رئاسة قسم الفلسفة ومنه إلى رئاسة اللجنة العلمية لترقية الأساتذة والأساتذة المساعدين تخصص فلسفة، ثم إلى رئاسة لجنة الفلسفة وعلم النفس والأنثربولوجيا في المجلس الأعلى للثقافة، وبدت شخصيته القيادية الأثيرة وموهبته الإدارية في كافة هذه المواقع.

لقد نجح الرجل في الجامعة إلى أقصى درجات النجاح.حيث أعاد هيكلة الكليات التى تولى عمادتها و أسس الكثير من البرامج العلمية الجديدة والمجلات العلمية الرصينة في كل تلك المواقع التى شغلها

وقاوم الأحقاد بالتغافل، رغم أن تلك الأحقاد سببَّت له الكثير من المشكلات، فكم عانى بسببها، وكم منعته حقوقًا كان يستحقها، وكم حرمته أماكن كان هو الأكفأ لها، فلرُبما حرمته شخصيته المستقلة ورجولته الأثيرة مواقعًا كبرى كان يسيل لها لُعاب من هم دونه، أولئك الذين لا يمتلكون لا العلم ولا الكفاءة، ولكنهم كانوا فوق الأجيال يتسلقون، وعلى أكتاف غيرهم يصعدون.. وبتلون وجوههم مئات الأشكال والمرات يصلون..

يكفى أن أقص عليك موقفًا واحدًا من عزائم هذه الشخصية، ومن مشاهد تلك الرجولة لتعلم يا صديقى مدى ما عاناه صاحبنا، في ذات الآن الذى ظلت فيه جامعة القاهرة بيته الأول..وبيته الأخير.

في بدايات ٢٠٠٣م كان صاحبنا رائدًا لاتحاد طلاب الكلية، إذ عادة ما يكون الرائد أستاذاً، ومر بك أنه كان عضوًا بهذا الاتحاد وهو طالب، وكان له نشاطٌ سياسي وطلابي بارز أثقل فيه تلك الشخصية.. وحدث أن تقدم بعض الطلاب بشكاوى في النتيجة إذ يتظلمون منها..

في حين أنه كان رئيسًا للجنة رصد الدرجات بقسم الفلسفة حينها أيضاً، فأعاد فحص أوراق إجابة الطلاب، واكتشف خللاً في معصم الأوراق (الدبابيس)، فتتبع الأوراق التى بها خلل ليجد أن الورقة ناجحة من الغلاف وراسبة من الداخل.. أو ناجحة من الداخل وراسبة من الغلاف.. بما يعنى أن أيدٍ خفية لا يعلمها صاحبنا استبدلت أوراق الطلاب الراسبين بأوراق زملائهم الناجحين، فأصبح الراسب مكان الناجح، والناجح راسبًا، وأعاد الرجل الأوراق إلى أصلها لتتفق بعد إعادتها مع تلك التى تم رصدها من قبل وتُعاد الأمور إلى طبيعتها.

كان يمكنه الصمت إزاء تلك الواقعة، فقد أحسن إلى الطلاب وبذل ما بوسعه لإعادة حقوقهم وأداها خير أداء.. فلتتصرف إذن صامتًا تباركك ملائكة السماء، ويزغرد لصنيعك إنسانيو الأرض..

ولكن لابد من فتح تحقيق حتى نضمن عدم تكرار تلك الواقعة المؤسفة، التلاعب بمصائر الطلاب وإضاعة مستقبلهم؛ هذا ما يرتضيه الله في الحقيقة، محاربة الفساد، لا مجرد إصلاحه ثم منحه الفرصة ليتوالد من جديد..

سعى صاحبنا بمذكرة رسمية إلى عميد الكلية الذى آثر ألا يُصعِد صاحبنا الموقف لأنه قاب قوسين أو أدنى من عمادة الآداب.. لقد حاول جاهدًا إثناءه عن رأيه ولكنه أبى.. وذهب الأمر إلى رئيس الجامعة الذى أجرى تحقيقًا مع صاحبنا وشركاء الواقعة وأعطاه عقوبة "التنبيه" وهي العقوبة التى حالت بينه وبين وكالة ثم عمادة الآداب حينها؛ في حين تحصّل الفاعلون الأصليون على عقوبة اللوم؛ وتم تحويل أحدهم إلى مجلس التأديب إذ حاصرته الاتهامات من كل ناحية؛ وأشارت إليه أيادي الفساد من كل صوبٍ؛ ولكن لا بد من معاقبة صاحبنا لأنه أصرّ على كشف الفساد، حتى يُروض نفسه الأمارة بالإصلاح والصلاح على التعايش مع الفاسدين..

فليبتلع الشرفاء ألسنتهم.. ليستغشوا ثيابهم.. وليصموا آذانهم.. ولا يلجوا للحق بابًا..

لـك الله يـا وطنــي.. ففـي بـلادي؛ وفيهـا وحـدها؛ يـتم معاقبـة مكتشـفي وقائع الفساد في ذات الآن الذي قد تتم فيه ترقية الفاسدين؛ في وطنـي وحـده يُعـانـي الشـريف جـراء شـرفه؛ ويُتـرك القبـيح اتقـاءً لفُحشـه...فـي وطنـي وحـده يُعاقـب الأحـرار ويـرقص البغايـا فـوق جثـة الشـرف...لكـم أنت تعاني ياوطني!! لكم ينزف جُرحك دمًا!!

أرأيت كيف أن شخصيته الأبية فرضت عليه نتائجًا عكسية!! أرأيت كيـف فرضـت عليـه رجولتـه أن ينـال عقوبـة، رغـم أنـه مكتشـف واقعـة الفساد تلك، وهو من أصلحها، وهو من أبلغ عنها !!

إنهـا ذات الشخصـية العنيـدة فـي الحـق التـى أبـت الانصـياع كثيـرا لمجلس أمناء جامعة السادس من أكتوبر فترك المنصب وعـاد أستاذًا إلى جامعته!!

وهـي ذات الشخصـية الـى رفضـت مـن قبـل توصـيات واتصـالات مـن اليمين واليسار في المناقشات والترقيات وكان يُصر علـى أن يأخذ كل ذي حق حقه.

وكم سببَّت لـه تلك الشخصية المتاعب.. وكم أكسبته تلك المواقف عداوات كان في غنى عنها لكنه ما عبأ بها يومًا ولا أعارها اهتمامًا.

كان يسير وفق قناعاته.. وفق مبادئه.. باستقلالية تامة.. وموضوعية متجـردة عـن كـل هـوي، فـلا يمـين لديـه ولا يسـار.. لا أحـزاب ولا طوائف، بل العقل متجردًا عن كل معانى البشرية بأهوائها وعزوفها وحبها وكرهها.. العقل دون الهوى.

وما تغيرَّ الرجل على الجامعة قط.. ولا أحدثت تلك المواقف هنات أو نكتات كراهية بقلبه، بل ظلت الجامعة في القلب منذ أن كان طالبًا، وظلت تسكن أعماقه إلى الأبد.. سألته ذات مرة عن شعوره حين بلـغ سن التعاقد، فكانت إجابته دمعات امتزجت بعدة كلمات: " لا شيء غير الحزن على حرمانى من خدمة الجامعة إداريًا"...

لقد جلس ذات ليلة أثناء إعارته إلى الإمارات.. أمسك بقلمه ثم خط عبارات.. لم تكن عباراته عن حياته.. ولا عن زواجه.. ولا خطابًا يفيض بالعاطفة إلى أبنائه القصَّر الذين تركهم خلفه في القاهرة، ولكن كانت الكلمات عن تلك الرابطة التى ربطته بالوطن الأكبر..

جامعة القاهرة: "لست أدرى لماذا داهمتني جامعتي الأم في هذه الليلة.. ربما لأنني أخدم في جامعة غيرها.. أو لأنني أُدرس لأبناءٍ غير أبناء وطني.. تلك إذن قسمة ضيزى، لأن جامعات الوطن العربي كلها هي مستقرى ومستودعي .. إنها رسالة، ليست سوى رسالة، حيثما وجهت وجهى أديتها بحقها، وكيف تنتابني هذه العنصرية وأنا في جزءٍ من أجزاء نفسى.. إنها الإمارات العربية، الجزء الأعز من وطني.. ويكأني في قاهرة المعز، إذ لا كبير فارق.. هنا وطن.. وهناك وطن.. هنا العروبة بحروفها الضافية.. وهناك العروبة في ينابيعها الصافية.. هنا الأخوة في الدين والوطن والقومية.. وهناك الأخوة في ذات المعالم.. هنا وطني الذى أطمح إلى وحدة تربط بين أجزائه المتباعدة، بين دوله المتناثرة.. تُلغى حدوده.. كل الحدود.. هنا الوطن.

هنا القومية العربية.. وما أقساه من شعور حين تهاجمني الإقليمية والقُطرية والجزئية.. ما لهذا خُلقنا يا وطني.. وما هكذا تكون رسالتى، وما هذا الطريق طريقي، ولا تلك الديار دياري.

ليست تلك هي المشكلة إذن.. فالديار العربية كلها أوطانى.. كلها عروقي ودمي.. كلها نبضي وقلبي.

وضعت القلم يأسًا.. أمسكت رأسي بكلتا يدي.. عجزت عن التفكير.. ذهب عقلي يمنةً ويُسرة.. ثم ما هي إلا لحظات، ووجدتني أُسرع إلى القلم، كأن شيئًا يتجاذب أركاني.. يتقاذف بقوة في أعماقى.. يهزني بعنف من داخلي.. إنه الحنين يا ولدي إلى دياري الأولى.. إلى جامعة القاهرة.. إلى مدينتها الجامعية، أخذت الذاكرة تطوف وتلتقط لى المشاهد.. أذكر ذاك اليوم الأخير في امتحان الليسانس.. وكان علينا أن نغادر المدينة الجامعية قبل الثامنة مساءً إذ هو آخر موعد لتسليم حجرتى بالمدينة.. أذكر ساعة أن دخلتها باكيًا.. نزلت إلى مسجدها أصلي المغرب دون أن أتمالك دمعي.. أطوف بأشجارها وزرعها وورودها وكأني أقتطع قطعة مني.. أتركها وأمر.. كنت أُكذب نفسي في كل لحظة، إذ لا يمكنني مغادرة هذا المكان..

لقد أصبح ويكأنه هنا ولدت.. وهنا درجت.. وهنا نشأت.. أصبح المكان قطعة من كياني.. جزءًا من شخصيتي.. جزءًا من حياتي.. بل قد يكون حياتى كلها.

هنا تفوقت.. وهنا بكيت وحدي.. وهنا تظاهرت مطالبًا بالحسم.. وهنا لاحقني الأمن.. وهنا سهرت مع سامى البلعوطى طالب الاعلام ابن المحلة الكبرى وعبد الله لؤلؤ زميلى فى قسم الاحتماع وهنا كان يزورنى أصدفائي القاهريين خاصة مدحت وعطية.. هنا كنت أقضى الليلى ساهرا أنا وصديقى محمد خضير نكتب مجلة الحائط الشهيرة "منوعات أدبية" التى ظللنا نصدرها سويا دوريا كل اسبوعين منذ السنة الأولى لنا في الجامعة حتى تخرجنا.

هنا كنا نلتقى أنا ومحى الدين فتحى لننظم مادة جريدتنا الجميلة التى أسسناها معا "أداب ٧٠ -٧١ -٧٢ -٧٣ ٧٤ – ٧٥"حيث كنا نجددها كل عام ونصدر منها عددين على الأقل سنويا هو رئيس للتحرير وأنا سكرتير ثم مدير للتحرير.

هنا زارنى صديقي شاعر الجامعه الرقيق حلمى سالم ولما علم أننى ذاهب لأحضر فرح أخو الكاتب الكبير جمال الشرقاوى نسيب عمى فى مصر الجديدة أعارنى جاكتته الشيك حتى لا أبدو صعلوكا وسط المدعوين. وهنا استقبلت أبي حين أتانى من شوبر يطمئن علىَّ.. هنا الحياة.. الوجود الماضي التليد.. والحاضر السعيد.. وربما – ولا يعلم الغيب إلا الله– المستقبل البعيد.

لم يمُر علىَّ ذاك اليوم.. أو ربما مرَّ أسرع مما أتى الذى عنده علمٌ من الكتاب بعرش بلقيس.. لست أدرى. فما لتلك المشاعر لدىَّ دراية. وما لأحداثها عندى من تفسير.

جلست في حجرتى كأنى أودعها.. في ذات الوقت الذى أودع فيه الدنيا كلها.. إذ كانت المدينة جزءًا من حياتى.. وكانت الجامعة جزءًا من كيانى ووجودى.. والاثنان معًا يمثلان ماهيتي.. تلك التى لا حياة بدونها.

حزَّمت حقيبتى التى كادت أن تتمزق من أثر الزمن.. جلست باكيًا أشكو بثي وحزني إلى أركان حجرتي.. سمعت صوت الأقدام في طُرقة الغُرف، ظننته عم حسن حارس الأمن يتعجل نزولنا.. ولكنى وجدته مدحت.. يدخل علىَّ باسمًا مستنكرًا بكائى.. مستنفرًا تأخرى.. حاولت كلماته مواساتى: "اليوم عيد يا مصطفى .. اليوم انتهينا من الدراسة وآن آوان العمل والسفر لنرى الدنيا.. أنت شخص حزين طول عمرك، تبحث عن الفرحة لتُحيلها حزنًا.. يا راجل.. هل يبكى أحد في يوم إنهاء دراسته"..

قال هذه الكلمات وما زادتنى إلا حزنًا في أعماق ذاتى؛ طلبت إليه أن ننزل لنودع الحديقة والمشاية والسرداب الضيق بين المبنى الذى أسكنه والمبنى المقابل.. ونزل معى مدحت متعجبًا. وربما مضطرًا لأجلي.. انحنيت على المبانى أُقبلها.. انحنيت إلى ورود الحديقة أحتضنها.. اعترانى البكاء السعيد.. ربما كنت أحمل السعادة بداخلى للسبب الذى ذكره مدحت.. ربما أخفيته فلم أُظهره ولم أُطلع عليه أحدًا.. وربما كنت أحمل الحزن الحقيقى.. الحزن إذ أغادر المكان.. والحزن إذ تنتهى علاقتي به.. والحزن أنىَّ لن أرجع إليه ثانية..

وربما يُلقى بي الزمن في دروب تيهه وشغله، فلا يتبقى لي من هذا المكان سوى الذكريات.

لست أدرى كيف مرت تلك اللحظات، ولكنها مرت.. وما هي إلا غمضة عين وانتباهتها وكان مدحت يتجاذبني من كلتا يدى.. "يا مصطفى.. عم حسن يتعجل مغادرتنا.. الساعة تجاوزت الثامنة؛ والرجل في حرج... صعدت إلى حجرتي.. تقاذفت حقيبتى وربما تقاذقتنى، هبطت السلم الذى كنت أحفظ درجاته بما فيها من بلاطات قد مسحها المطر والزمن كلاهما.. لم أشأ أن ألتفت مرة أخرى.. لست أذكر حينها هل ودعت عم حسن أم لا، لكن ما أذكره جيدًا أنى خرجت ساعتها كمن فقد أولاده وأسرته جميعًا.

وشاء الله اللطيف الرحيم الذى لا يكسِر أحدًا دعاه.. ولا يُحير قلبًا استهداه.. ولا يرد سائلاً سأله؛ أن يصدُر قرار تعييني معيدًا بالكلية فتكون الجامعة هي بيتي ووطني الصغير.. هى البيت الذى أسكنه، وهي الوطن الذى يسكنني.. هي البيت الذي تنمو فيه عظامي ولحمي وأولادي..

وهي الوطن الذى تنمو فيه روحي ومعارفي ووجداني.. هى مفردات الدنيا تلك العصية على الجمع.. والبعيدة عن اللقاء.. والعسيرة على الفهم.

وحين ذهبت إلى السودان للتدريس بفرع جامعة القاهرة هناك، اضطرت الظروف أحد الزملاء للنزول إلى القاهرة، فسأل: "هل تريد شئيًا من القاهرة؟".. فوجدت نفسي أسارع الرد بـ "نعم.. اذهب إلى كلية الآداب وقبّل لي أرضها.. قبَّل ترابها.. أخبرها أنها وحشتني، قل لها أنها تسكن قلبي.. وأنى أرسلت لها خطابًا وراء خطاب غير أنها لم ترد على أي من خطاباتي تلك.. ثم غلبني البكاء فبكيت"..

هذا ما سطَّره صاحبنا في هذا الموقف، ربما كان يُسجل بعض الأحداث التي أثرت في شخصيته، أو تلك التي نما لها وجدانه، وربما كان يسجل ما يرتبط بنفسه، بمشاعره، بعمق ذاته.. وربما كان حديث النفس للنفس في وقت عصفت فيه الأحداث، فكان بحاجة إلى ذاك الحديث.

لقد ذكر لـي شيئًا من تلك المشاعر للجامعة وأحداثها ذات يوم.. فلم أجد ما أحدثه به غير كلمات معدودات.. قلت له: "عذرًا سيدى.. فالنبلاء وحدهم من يبنون الأوطان.. من يبنون الحضارات.. من يشيدون البنايات بدموعهم تارة، وبعرقهم أخرى.. بوجدانهم تارة.. وبأعمالهم أخرى.. ولكنك جمعت بين السبيلين، الدموع والشموع.. العمل والحب، فطاب حبك بمثل ما طاب عملك".

قلت هذا ولملمت حقيبتي بمثل ما لملم هو حقيبته قبل.. وغادرته بمثل ما غادر الجامعة من قبل.. وما أفلحت الأيام في طيِّ تلك الصفحات التي حبَّرها الشوق وأضناها الوجد وسار على ضفافها الفؤاد.

(١٩)

زلـزال

تطمئن نفسى إلى القول بأن حياة صاحبنا لم يكن بها قلاقل كثيرة ولم يكن هو الشخص غريب الأطوار الذى يمارس التفلسف منذ الصغر.. ولا هو بالفيلسوف الذى يُعرض بالكلية عن الحياة ويعتزلها اعتزالاً تامًا.. لكن لا يمكن أيضًا إغفال طبيعته الشخصية فى حب العزلة والتفرد والوحدة.. لا نستطيع أن نتجاهل ذاك الكهف الذى صنعه لنفسه وكوَّن بداخله شخصيته، شخصية عنيدة، أبية، لا ينقصها التحدي الذى يصل إلى حد الشطط في بعض الأحيان، ولا ينقصها الغرابة التي قد تصل إلى حدَّ التناقض.. فمرة نجد فيه انطواءً وعزلة ووحدة عميقة متأصلة وكهفًا أقامه لنفسه لا يحب أن يقتحمه أحد، ومرة تجده قد مزَّق هذا الكهف وقطع أواصر تلك الوحدة وبدا كأنه اجتماعي من النخاع إلى أخمص القدمين.. مرة ينقبض عن الناس جميعًا حتى من المقربين، وأخرى تجده منبسطًا إليهم جميعًا دون أن يعترف بأنه انقبض عنهم ولو للحظات..

عانيت معه هذا الشعور كثيرًا حتى حين قررت إخراج حياته للنور ليجد فيها أبناؤنا القدوة ويستلهموا منها العزم والإرادة، تارة يخبرنى عن أمور من أخص خصائص النفس المكنونة.. وأخرى يُخفى ما أردت أن يبديه.. وربما أعطانى معلومة غير مكتملة، فإذا سألته عمَّا يبينها؛ هرب منى وأبدى عدم رغبته فى إتمامها، فأجد نفسى محاصرًا بين الحب ونقص المعلومة، فتارة أوثر الحب على أي علم.. وأخرى أجد نفسي منساقًا خلف آرسطو:" أحب الحق، وأحب أفلاطون، ولكني أوثر الحق على أفلاطون".. فأجدنى مُصرًا على معرفة ما حاول إخفاءه، أو ما طواه فى مطويات الذاكرة المهملة.

والحق أن صاحبنا رغم ما تستشعره من تناقضات فى شخصيته إلا أنه سهلٌ لينٌ.. هشٌ بشٌ.. لا صخب له ولا غضب إلا فيما ندُر.. يمكن لأي إنسان عادي خارج الوسط الفكرى والثقافى أن يتعامل معه ولا يجد صعوبة في ذلك قط.. وهذا ما يبعث على الحيرة في كثيرٍ من الأحيان.

لا تقاطعنى يا صديقى، فلطالما قاطعتنى.. ولطالما أخذتك الريبة من بعض ما أقصص عليك.. لكن أحيلك إلى حياة كانط.. أو رسل.. أو فى القديم آرسطو.. كي تزول تلك الريبة، لأنك لن تجد حياة صاحبنا سوى امتداد لتلك الحيوات؛ ولن تجده هو ذاته سوى صورة مطبوعة من تلك الصور.

حياة تمتلئ بالتناقضات.. أسباب تلك التناقضات قد تبدو غير مفهومة للكثيرين، ولكن حين تتعمقها .. حين تقيمها على حكم العقل ستجد كل شيء مفهومًا ويبدو سلسًا للغاية، وما كان من تناقض فهو مجرد صورة طُبعت فى عقلك كقطرات الندى لا تلبث للحظات أمام أشعة الشمس الكاشفة.

فالعزلة والوحدة أمران طبيعيان قد تجدهما فى الإنسان العادى الذى ليس بمفكر، وليس بمثقف، وربما ليس بمتعلم بالمرة.. لأنها من طبائع الشخصية لا من فرضيات العلم ومكتسبات الثقافة.

وعزلتـه عـن المـرأة لـم تكـن إلا نتيجـة طبيعيـة لحـب فـى الصـبا فرَّقتـه الحـروب وحالـت الظـروف دون إتمامـه.. ثـم الطامـة الكبـرى فـى حـبٍ ناضـج يستوفى شروطه وإلزامياتـه من كافـة الجوانـب ثم هو لا يُكمل طريقه فـى النهاية بسبب ظـروف الفقر والدَين الذى غلـب علـى أسرة المحبوبـة.. لـو كـان هـذان الموقفـان مـع أي إنسـانٍ آخـر غيـر مـتعلم بـالمرة لاعتـزل المـرأة إلـى الأبـد، ولألقـى بـاللوم كـل اللـوم علـى القـدر وحده، ولندب حظه بقية عمره..

لكـن الرجـل فـوَّض أمـره إلـى القـدر.. ألقـى بنفسـه بـين ذراعـيَّ القـدر، حتـى إذا شاء توافقت الإرادات، واتحدت الغايات، وأحب مرة ثالثـة، ثم وقفت أمامـه التحديات فوقف إلـى جواره القدر مـن جديد، وتـم الـزواج بعد أن كاد يعتزل الأمر إلى الأبد.

هـي مواقـف طبيعيـة للغايـة وفـق ميـزان العقـل وإن بـدت غيـر ذلـك.. وكـل إنسـانٍ يتعـرض لـذات الظـروف قـد يسـلُك ذات المسـلك.. وقـد يمشي ذات الطريق.

ورغم ذلك لا يمكن الزعم بأن حياة صاحبنا تغيرت بشكل كبير بعد الزواج من الحب الثالث فى حياته "سعدية شعيب".. إذ لم تستطع أن تقتحم كهفه.. ولم تُفلح فى إخراجه من عزلته، وكان هذا وذاك مما يؤلمها ويُكثر شكواها..

تذهب إلى عملها بالأهرام.. محررة صغيرة، فرئيسة قسم المرأة، فمدير تحرير للجريدة ذات الأبواب الزجاجية المذهبة.. ثم تعود إلى البيت، تضع الطعام الذى اشترته من الخارج للأسرة، ثم تجلس لتقص عليه من نبأ ذاك اليوم، منذ خروجها من المنزل حتى ولوجها مرة أخرى.. تقص كل شيء بكافة تفاصيله.. لا يفوتها شيء، حتى الأحداث غير المؤثرة والوقائع غير الهامة كانت تُضفي عليها شيئًا من الأهمية؛ ومذاقًا خاصًا من الحكي.. ثم تختم حديثها كل مرة بهذه الجملة " هذا كان يومي، فما جديدك؟" وكان رد صاحبنا على ذات السؤال كل يوم ردًا واحدًا لا يتغير: "لا جديد.. ذهبت إلى الكلية.. ألقيت محاضراتى.. ثم جئت".

يا إلهى.. لعلها حين تتلقى هذه الإجابة تستعين بالسماء تستلهمها الصبر.. تستنطقها الرضا.. "كأنى أقص عليك كل شيء بكل تفاصيله الصغيرة قبل الكبيرة.. ثم تقول لى ألاجديد، ألم تقابل أحدًا، ألم تحدث مشكلة فى الكلية، ألم يشكو إليك طالب من شيء معين، هل تأتى الأحداث عندك وتختفى بمغناطيس؟!"

وما من ردٍ غير تلك الابتسامة التى هى حاضرة على الدوام تكسو الوجه.

والحق أن مدام سعدية قد اعتادت على ذلك منه، وبذلت جهدًا فى إصلاح هذا الأمر غير أن كهف الوحدة كان أمتن قوامًا وأشد، فما استطاعت إلى اقتحامه سبيلاً.. وما أثرت تلك الطباع الانعزالية على الحياة فى شيء.. بل عاش صاحبنا حياة زوجية سعيدة.. فيها الحب.. وفيها السكينة.. حيث تسكن النفس إلى زوجته الطيبة الرؤوم.. وفيها المودة.. حيث كان صوتها الدافئ وحكاياتها التى لا تنتهى مصدر أنسه ووده.. وفيها الرحمة..

حيث اغتراب الاثنين وانقطاعهما عن الأهل انقطاعًا شبه كامل أوجد مساحات كبرى، وكبرى للغاية، من الرحمة والمودة، فلم يكن لأحدهما سوى صاحبه، وبيته الصغير.. وما سلمت الحياة من أكدارها.. حيث حملت الزوجة فى بدايات العام ١٩٩١م ولكن الحمل سقط من أثر التعب الذى لحقها من فرش وتأسيس شقة إسكندرية، تلك التى اشتراها صاحبنا أثناء إعارته إلى الإمارات.

ثم حملت مرة ثانية، وداهمها "استوبلازما".. ذاك المرض الذى ينتج عن مخالطة القطط، لتُجرى جراحة لميلاد طفل ميت فى شهره الثامن. يا لأقدار الله.. يا لألطاف الله.

الله رحيم.. وكم لرحمته من لطفٍ خفيٍ، غابت حكمته عن شهود العقل، فالله يعلم وأنتم لا تعلمون.

أويَنسَى أحد الخضر (عليه السلام) ذاك الوليّ الصالح الذى قتل غلامًا عمدًا، ثم قذف في وجه نبي الله موسى (عليه السلام) من نبأ مالم يستطع عليه صبرًا {وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} (الكهف ٨١).. وما يدريك، لعل الله أبدلهما خيرًا منهما زكاة وأقرب رُحمًا.

الشيء الذى كان يميز تلك الحياة هو الاحترام الكبير المتبادل، وهو الحب الكبير الذى كانت الأفعال دلالته الوحيدة.. ربما لم تكن الأقوال أحد علائمه، لكن الأفعال كانت علائم كبرى.. كان الاحترام إلى حدَّ الحرية التامة بين الزوجين، فليفعل كل طرف ما يوافق قناعاته، لا تعنت من طرفٍ ضد آخر.. لم يكن هناك تسلطٌ من أي نوع، بل كانت البساطة، وكان التقدير، وكان الاحترام.

ظلَّل الحب هذا البيت وكساه من مشكاة أنواره، حبٌ بلا شكوى، بلا متخللات ضيم أو ضجر من أحدٍ.. حب مسئول، يؤدى فيه كل طرفٍ دوره على أقصى ما يستطيعه، ثم يقابل صنع شريكه بالود والقبول والثناء..

كانت مدام سعدية تنظر إلى زوجها على أنه من الملائكة لا من البشر.. هكذا أظن.. جمعنا اللقاء مرة، وأردت الانصراف، فقلت: "لنقل معًا دعاء سيد الاستغفار كي يغفر الله لك يا سيدي" فقاطعتنى من فورها قائلة: "مصطفى ليس له ذنوب"..

لم أنشغل بمناقشة هذه الكلمة من الناحية الشرعية، لكنها ملأت قلبى حبًا وغبطة.. ثم تعجلت السفر كي ألوم زوجتى على صنائعها معي.. قلت لها غاضبًا: "زوجة النشار تظن أنه ملاك، تقول أنه بلا ذنوب.. وأنتِ تحسبيننى شيطانًا رجيمًا".. فقالت: "لأن النشار لا يغضب في وجهها كما تغضب أنت، لا يفعل مثل فعالك" فأدركت على الفور أقصر الطرق لسكنى القلب.. إنه اللطف.. ذاك الذى كان يملك منه صاحبنا أوسع المدد..

لنطوي تلك الصفحات إذن؛ فهي المودة والسكن ولا شيء غيرهما..

في شتاء العام ٢٠١٨م اجتاحت العالم جائحة كورونا، ظهرت في الصين، تم السيطرة على الفيروس الشرس، ولكنه انطلق من الصين غازيًا العالم كله.. لم تفلح معه المعامل ولا أجدى التقدم العلمى والتكنولوجي معه نفعًا، بل سبَّب فزعًا وهلعًا لم تقف البشرية المعاصرة على مثيلٍ له.. تم تأليف الكتب ومسابقة الزمن في إجراء الإنسان للأبحاث ولا جدوى.. كل شيء يبدو أمام إرادة الله بلا قيمة.. بلا جدوى.. بلا نفع.

خرج رئيس وزراء بريطانيا ليقول للشعب ذى الحضارة التليدة "ودعوا أحبابكم".. وخرج رئيس فرنسا ليعلن على الملأ ألا سيطرة على المرض.. ووقف رئيس وزراء إيطاليا باكيًا على الهواء أمام أعين العالم، تقُص دمعاته من نبأ ما أحدثه المرض في بلاده وتختصر الفاجعة..

العالم كله في هلع.. في خوف.. في حزن.. فالفيروس يشتد، وتشتد حوله الأساطير.. وتكثُر من حوله التكهنات.. تفرض عبثية التفسير نفسها على العقلانية، إذ لم يُجدى العقل نفعًا أمام تلك القوة الطاغية، تلك التى لا عاصم منها سوى السماء.

لعلها الفرصة أمام العقل ليعيد التفكير من جديد.. لعل الملاحدة والكافرين والباغين يتيقنوا من وجود إله للكون.. إله مدبر.. إله قادر.. إله لا تتخطى إرادته مجرد القول.. كن فيكون.

الآن تستغيث الأرض.. كل الأرض.. بالسماء.. الآن يقف العلم عاجزًا.. تقف المعامل البيولوجية ومعامل الاستنساخ البشري وتلك المعامل الذرية والدقيقة والتى تفحص ما دقّ عن الذرة.. الكل يقف عاجزًا.. الكل أدرك الآن ألا سبيل من حلٍ سوى السماء.

توجه الكل إلى السماء بالدعوات الحانيات.. يطلب الجميع العفو عن ذلات ما قد مضى.. الآن فقط توجهوا إلى الله.. الآن فقط أدركوا ألا غنى عن الله.. الآن فقط آمنوا إيمان فرعون إذ أدركه الغرق، فهتف من تحت الماء مستغيثًا {ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ} (يونس٩٠).. الآن أصبح العالم متصوفًا.. أصبحت البشرية في أغلبها مؤمنة بالله الواحد الأحد لا بالمادة.. أصبحت مؤمنة بالقوة الإلهية والقدرة الربانية لا بالقوة العلمية والقدرة التكنولوجية.. الآن تحاول البشرية التخلص من رجسها ودنسها.. تحاول استلهام المدد على طريقة السادة الصوفية، وما زالت غضبة السماء.. وما زالت حناياها على الأرض موقوفة.

أصيبت مصر بهذا الفيروس ضمن دول العالم التى أصيبت.. المستشفيات ملأى بالمرضى.. تنوء الإمكانات المحدودة عن مواجهة أعداد المصابين اللامحدودة؛ عجزت مصر وليس عجيبًا، فإذا أصاب العجز تلك الدول التى تربعت على عرش العلم والتكنولوجيا فما بالك بمن دونها!!

أصبيت مصر إصابة بالغة.. تضارب بين ما يظهر على الأرض وما يُعلن في الإعلام.. البكاء والحزن يسكن كل بيت في عموم مصر.. والسكينة والعدمية تسكن شاشات الإعلام من صوتيات المذياع.. وكأن الحكومة المصرية تُغرد منفردة منعزلة تمامًا عن الشعب، في حين يئن الشعب وحده.. يصرخ دون مجيب.

في ليلة الثامن عشر من أبريل لعام ٢٠٢١م وجدت رسالة على الواتس من صاحبنا، لكنها رسالة مكتوبة هذه المرة، وقليلاً ما يكتب لى، فأغلب رسائله ورود وصباح ومساء ودعوات مطبوعة بأشكال مختلفة.. عند الضرورة فقط يكتب.. فتحت الرسالة، وجدت نصها: "دعواتك يا محمد عينة الكورونا ظهرت إيجابية.. أنا وفرح مصابين في البيت".. لَعَلي أعجز عن وصف وقع الخبر، ولعلي أكتم حزنى الذى ما فارقنى منذها.. حيث كان أحب بيت إلى قلبى هو بيت صاحبنا.. أحب الأماكن إلىَّ على وجه الأرض.. وكم أعجز يا صديقى عن البوح.. ففى البوح فضحٌ للمشاعر التى أريدها مستترة، وأسرار لا أحبها أن تغادر مستودع الذاكرة العميقة..

تلـك التــى لا يطلــعَّ عليهـا أحـد سـوى الله.. مـر يومـان علــى تلـك الرسالة.. ثم وجدت رسالة أخرى "دعواتك يا محمد للمدام.. حالتها سيئة للغاية".

لا أخفيك سرًا أنني فقدت أعصابى حينها، ليس قلقًا على زوجته إذ داهمنى الخبر ولكن قلقًا عليه هو إذ وجدتنى مفزوعًا متسائلاً: "ومن الذى يخدمك؟" فجاءنى الرد قاسيًا، لم يشبع لدىَّ رغبة أو يُطمئن عندى الفؤاد: "أنا أشترى كل شيء جاهزًا فلا تقلق.. إنها قد أصيبت بالفيروس من قبل.. ولكن ظروفها الصحية ومعاناتها من أعراض صدرية حالت دون مقاومتها للمرض".. أربعة أيام عقب هذا الحوار مرت سيرًا على نخاعي وعظمى وعصبى.. لا أدرك شيئًا ويكأنها أيام ليست من عُمرى.. وإذا بيوم الجمعة يأتى، الثلاثون من أبريل.. أصلي الجمعة، أفتح هاتفي..أجده يكتب على صفحته عبر الفيسبوك "زوجتى الشريفة العفيفة الطاهرة سعدية شعيب فى ذمة الله.. ولا حول ولا قوة إلا بالله وإنا لله وإنا إليه راجعون".

حاولت التماسك يا صديقي جاهدًا، أو هكذا خُيِّل إلىَّ، كنت أُمثل التماسك على هشاشة بداخلى.. دار بيننا أقصر اتصال فى التاريخ منذ عرفته "البقاء لله" فرد علىَّ "البقاء لله".

على عجل كأنى أسابق الزمن كنت فى السيارة التى تنقلني إلى أكتوبر.. هاتفني فى الطريق ليسأل أين وصلت؟ ثم أخبرنى بأن الجنازة فى الحصرى.. تعجلت السائق أكثر مما ينبغى حتى وصلت إلى مسجد الحُصرى فلم أجد أحدًا، هاتفته مجددًّا، فقال بصوت أعلم أنه صوته باكيًا: "رَوَح يا محمد.. نحن في الطريق إلى المقابر".. قلت: "لا عليك إلا أن تخبرنى عنوان المقابر وأنا سأستقل تاكسى وألحق بكم" ولكنه لم يستطع أن يرد علىَّ من مداهمة البكاء، فأمسك السائق بالهاتف ووصف لى الطريق حتى لحقت بهم.. الكيلو ٤٩ طريق الفيوم الصحراوي؛ كنت أود لحظتها أن أكون أنا الميت بدلاً من زوجته حتى يسكن فؤاده وتطمئن نفسه وتجف عبرته.. إنها المرة الأولى التى أرى فيها دمعه بهذه الغزارة.. نعم، لقد رأيت بكاءه قبل حين وفاة أستاذه وصديقه محمد مهران.. رأيته يبكي بحرارة.. ولكن حرارة هذه المرة كانت تفوق حرارة الشمس عشرات المرات..

بكاؤه اليوم ليس كأي يوم.. وليس كأي بكاء.. لعلها المرة الأولى التى غيَّرتُ فيها قناعتى بأن المشاعر الإنسانية تتفوق على أي عقل وتغلب كل عقلانية.. كان هو الرجل الأخير الذى يمكن تخيله يبكى، من فرط عقلانيته، ومن فرط تسليمه للقدر، ومن فرط يقينه فى الله.

كل مصيبة تنزل أشكوها إليه، فلا تتعدى كلماته ضرورة الرضا والتسليم للقدر واليقين فى الله سبحانه.. هكذا كان حديثه فى كل نازلة، مهما كان حجمها، ومهما كان نوعها.

ولكننى رأيته اليوم وقد زُلزل زلزالاً شديدًا.. رأيته يبكي.. رأيت عاطفته الجياشة تسير على قدمين.. رأيت حسرته ولوعته.. رأيت حزنه السرمدي ويكأنه لم يذُق سعدًا قبل قط.. كنت أنظر إليه، ثم أُعيد النظرات بداخلي، فأجد نفسي تُسائلني: "أهكذا العقل يبكى؟ أيبكى الفلاسفة؟ يا الله.. ويكأنى رأيت الشمس والقمر ساجدين.. ويكأني ابتعثت حُلم يوسف.. ويكأنى أعبث بتصورى عبثًا لا يقل عن عبث القدر بأحلامنا"..

وما خرج الرجل من كهف وحدته بعدها.. لعله أغلق باب الكهف وأقسم ألا يلجهُ أحدٌ.. ويكأنه أقسم بالشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والليل إذا يغشاها، والنهار إذا جلاها، ألا يخرج من عزلته قط.. فما الحياة بشيء سوى العزلة.. إنها مسرحية هزلية.. عبثية، لا قيمة فيها لشيء مطلقًا.. ولا وجود فيها لحقيقة، اللهم إلا حقيقة الموت.

يقضى النهار موصولاً بالليل وحده.. قليلاً ما يخرج للحياة الدنيا.. يعيش فى كهف آخرته فى حياته الدنيا، كأنه من أصحاب الكهف، لعل الفارق الوحيد أنهم كانوا سبعة وثامنهم كلبهم فى حين أنه يغدو إلى كهفه وحيدًا ولا كلب معه.

يدخل الليل.. يُغلق الهاتف.. تُطفأ الأنوار.. يسكن كل شيء من حول صاحبنا سوى نفسه.. فما داخلته السكينة منذ ذاك اليوم ولو لبُرهة، ولو لبعض يوم.. تداهمه الذكريات، وتغشاه الشجون.. يُحدث نفسه تارة.. ثم يغلبه البكاء تارات.. يتذكر شيئًا فيبتسم له.. إنه من رائحة سعدية.. إنه من نسمات قولها..

ذاك الذى لم يكن إلا عذبًا كالفرات.. ثم يتذكر شيئًا آخر فيبكي له ويود لو يعود الزمن ليكون له ردًا غير الذي كان؛ وفعلاً غير الذي سبق..

تذكر يوم أن أصابها الفيروس، وهي فى الطريق إلى مستشفى دار الفؤاد، نَظَرت إليه إذ كان بجوارها، نظرات حانيات.. قالت له: "أنا آسفة يا مصطفى .. تحمل تعبي".. رد بدمعاته التى ما فارقته "أنت في قلبى وعينى وعلى راسي.. لا تقلقي من شيء؛ إن شاء الله لن أفارقك".. كأن روحًا جديدة قد سرت بداخلها.. تبسمت إذ لم تكن تقوى على أكثر من التبسُم ثم نظرت إليه متسائلة: "أين كان هذا الكلام الجميل من قبل؟" الآن يتذكر هذا المشهد ويبتسم .. ويكأنه يتمنى عودة الأيام، لكني لست واثقًا أنها إن عادت عاد فى طبائعه، فالطبائع تسكن الشخصية ولا سبيل إلى تعديلها قط.

تذّكر يوم أن فُطمت فرح من الرضاعة.. الابنة الكبرى، قرة العين، ومالكة الفؤاد.. لعلها الوحيدة التى يمكنها ملء فراغ أمها.. ولعلها الوحيدة التى تمنح قلب أبيها شيئًا من السكينة، وكثيرًا من الطمأنينة.. ولعلها الوحيدة التى يمكنه التحدث إليها..

إذ فقد من كان يجيد الحديث، ويجيد الاستماع.. لقد اشترت خاتمًا عيار ٢٤ لها وهى دون العامين، فتبسّم وقال: "البنت لا تزال صغيرة" فردت بابتسامة قلبها التى ترتسم فوق شفاهها: "غدًا الصغير يكبر يا مصطفى.. فرح فرحة قلبى الكبيرة".

ذكريات تداهم ذكريات.. وبكأن الذاكرة التى كانت مهملة قد استعادت ضميرها الآن وأبت إلا اليقظة، إلا أن تسوق لصاحبها كل ماضٍ قد مر، ولو راكمت عليه السنون رمادها.. أحداث مليئة بالبهجة.. وأخرى فيها اللوم على عزلته.. وأخرى فيها الشكاية من أسفاره الكثيرة وعمله المتصل.. التاريخ يُقرأ كله مرة واحدة، في لحظة واحدة، وبكأنها لحظة الموت، تلك التى تمر فيها الأعمال أمام أعين صاحبها، وبكأنها تُستدعى من الذاكرة على عجل، قد نُسخت أحداثها نسخًا، وصدق الله الكبير المتعال {هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ} (الجاثية٢٩)

لم يتبق الآن من هذا الزلزال سوى عدة ذكريات.. أحاول بين الحين والحين إقحام نفسي بداخلها.. أعلم يقينًا أن وجودى غير مؤثر، ولا تطمح نفسي أن أهدم كهف عزلته، فالذين امتلكوا قلبه وفؤده لم ينجحوا في ذاك المسعى من قبل، فأنىَّ لى بمثل تلك الغاية.. أحسبها بعيدة، بل أبعد من الشمس والقمر لو جمعهما المشرق أو المغرب.. كل ما هنالك إجراء عدة محاولات لإدخال صاحبنا إلى الحياة.. مجرد الحياة.. إرسال شعور لديه بأننا في حياتنا الدنيا لم نزل، وأن لنفسه عليه حقًا، ولبدنه عليه حقًا.. ولولده عليه حقًا.. ولرسالته التى انتدب نفسه لها عليه حقًا.. والمؤمن يُعط كل ذى حقٍ حقه.. أتحدث إليه ولا جواب.. ثم أنصرف ولا جدوى.. عُدت من حيث أتيت، وعُدت كما أتيت.. وغادرت من حيث دخلت.. ثم نُعيد الكرَّة مرة ومرة.. لا شيء.. الكتابة، فالقراءة لبعض الوقت، خاصة في القرآن الكريم، حبل الله المتين، ونوره المبين، وراحة النفوس الخافية.. تلك التى تخفى على كل أحدٍ، وما يدركها إلا العالمون.. ثم لا شيء آخر.

كم أنت جميل أيها الكتاب العزيز.. سار الرجل يختمه كل أسبوعين على الأكثر، ثم يُهدى ختمته إلى عقله المفارق.. روحه المسلوبة، حيث ترقد هناك بسلام.. في رحاب الله السلام، تنظر من علٍ إلى ما نعانيه من شقاء، لعلها تشفق علينا بالقول: " مساكين أهل الدنيا، راحتهم في سجدة وما سجدوها.. شغلتهم الدنيا الفانية فتنافسوها.. وما أغنى عنهم مالهم ولا سلطانهم من شيء، ويلٌ لهم إن لم يعرفوا الحقيقة.. وويلٌ ثم ويلٌ إن عرفوا ولم يعملوا".

(٢٠)

الله في بيتنا

كانت فرح.. الابنة الكبرى؛ تكاد تكون الشخص الوحيد الذى يضعُف أمامه الفيلسوف، أو ربما هى الإنسانة التى يمكنها ترميم وجدان أبيها، إذ هى الفؤاد يسير على قدمين.

تفوقت فرح عبر مراحل تعليمها.. حصلت في الثانوية العامة ما يجاوز بها كلية الطب، ولكنها آثرت الصيدلة على الطب كونها مرهفة الحس، لا يمكنها أن ترى الدماء على أية حال، ولا تستسيغ نفسها أن تسمع أنين المرضى أو شكاياتهم، ففي الصيدلة غنىً عن هذا كله، وفيها سكينة القلب إذ تبتعد عن الأنات والشكايات، والأعظم من ذلك كله، أنها ستبتعد عن لون الدماء.

وهي مع تفوقها شخصية مرحة، تشبه أمها في مرحها وحبها الحياة.. وتشبه أبيها في سكينتها ووحدة ذاتها.. نعم، فيها كثير من الوحدة وحب العزلة والرقة غير المصطنعة..

لكنها أقرب لأمها من اللطف والود، وأقرب إلى أبيها من استقلالية الرأي وتحمل المسئولية.. تنقطع صلتي بها عند حدود السؤال عليها وعلى ولدها الحسن؛ ذالكم السبط الذي ملأ ما انقطع به السبيل؛ وأصلح بعضًا مما أفسده الدهر لدى صاحبنا.. ومن قبل عند حدود التشجيع على مواصلة التفوق في دراستها والحصول على تقدير يُعيد سيرةِ أبيها الأولى، لكنها الآن مصدر ثقتي الأوحد في إقناع الفيلسوف بأي شيء نريده.. هي الوحيدة التى تمتلك تلك المفاتح.. وتسلك تلك السُبُل.

تجلس فرح إلى أبيها في مكتبته الكبرى، تلك التى تضُم آلاف الكتب، كان يكتب شيئًا فتوقف فور دخولها.. يبدو أن إحساسًا وصلها بأنه يكتب شيئًا مهمًا، أو شيئًا سريًا.. لاحظ شغفها فاستنطق السؤال الذى يدور بداخلها.. "لا شيء.. راودتني نفسي على فكرة وأمنية فجلست أكتبها" .

قالت وما تلك الأمنية يا أبتى؟، قال: "مجرد خطاب يحمل أمنيتي بنهضة وطني.. بناء قوة عربية.. صناعة نهضة عربية.. لعل الظروف تأتي يومًا وألقيه أمام جامعة الدول العربية، أو أمام مؤتمر عالمي للسلام".

يا لعظمة الرجل.. قارب السبعين ولا زال همَّ الوطن همَّهُ الأول.. وباعثه الأوحد على الكتابة، ودافعه الأول إلى إتمام المسيرة، وإكمال الرسالة.. حاولَت فرح أن تأخذه بعيدًا عن الهمَّ العربى.. بعيدًا عن القومية وقضاياها وإشكالاتها، إذ لها رأيٌ معلوم في هذه القضية، مفاده أن الدول العربية التى تربت على القُطرية والتجزئة لن تجمعها المصلحة وتبعثها القومية على الوحدة، وحال حدوث ذلك وهو الاستثناء الذى يقارب المستحيل، فإن العالم الغربى لن يقف مكتوف الأيدي إزاء أي تحركات إيجابية نحو الوحدة العربية..

أمسكت بيده، وخرجا معًا إلى حديقة الفيلا حيث أشجار الزيتون التى لم تُثمر بعد.. وحيث شجرة (السبناية) الكبرى، تلك التى تتدلى منها الأغصان والأوراق وتُزينها الورود الحمراء والصفراء، وحيث مقاعد رُصت بجانب الجدار الجنوبى رصًا، يتوسطها منضدة صغيرة يوضع عليها طعام الإفطار الذى اعتاد صاحبنا على تناوله في هذا المكان، أو الشاي حين يكون الوقت مقبلاً على الغروب.. فلعل هذين الوقتين هما المفضلان لدى صاحبنا للجلوس هنا.. الشروق والغروب.

ما رأيك يا أبت لو ذهبنا سويًا إلى العُمرة، كم تتوق نفسي إلى رسول الله (ﷺ).. نُسلم على حضرته.. نُصلى في روضته.. نطوف بالبيت الحرام.. نُجدد قلوبنا التى أيبسها الحزن.

وأحسب أنه لن يستطع رفض الطلب، فما لمثل فرح أن يُرفض طلبُها.. غير أنه لم يُعقب على الاقتراح.. بل أخذته ذاكرته إلى شوبر.. إلى ذاك المكان البعيد.. كأن أباه وأمه يساكناه البيت الصغير، ثم قلَّب ناظريه، وأخذ في الحديث: " كان أبي رحمه الله يعمل في الأرض..

وأمي تساعده ما استطاعت إلى المساعدة من سبيل.. بضعة قراريط يزرعها.. بيت باللبن نسكنه.. زير الماء هو أرقى ما نملكه للشرب.. حصيرتان من الخوص هما أغلى ما نملكهما للجلوس والنوم.. أريكة خشبية كبرى من خشب الجزورين هي أغلى ما نملكه من الأثاث للجلوس عليه.

كان أبي يطوف سواحًا في ملكوت الله الفسيح، ينتقل من مولد إلى مولد، يُنشد في حب النبي والصلاة عليه وعلى آله .. وما كان له غير هذين الاتجاهين، إما العمل في الحقل.. وإما مدح النبي في الموالد.. وكان الابن يرث عمل أبيه دومًا، فما كان من سبيل أمامي إلا أحد السبيلين.. إما الحقل وإما المديح في الموالد، ولا أظننى أفلح في هذا الاتجاه، إذ لم أكن صاحب صوتٍ مميز، وما تميل نفسي إلى تلك السياحة بين أضرحة العارفين.. لم يكن أمامي سوى الحقل، ومقومات العمل فيه أكثر من الحصر.. أسرة كبيرة.. سبعة أبناء أنا أكبرهم..

أبى يطلب مني المساعدة في صِغَري ثم يرجو أن أكون بديلاً له عند اشتداد عودي وبلوغي السعي معه كى يتفرغ من جديد للسياحة في مواكب العارفين والأولياء.. ومطالب الصغار لا تنتهي، فلا سبيل لإشباعها على قلتها وضعف قيمتها..

غير أن الثورة تأتى في لحظةٍ فارقة، تفتح الأبواب للتعليم، تفرض غرامات مالية أحسبها كانت السبب الرئيس في إلحاق أبي لي بالمدرسة كونه لا يمتلك دفع الغرامة.. ثم يطرق أبي وأمي رأسي دومًا بالتهديد.. "إما الحقل وإما التفوق في الدراسة" ..

الله يسكن بيتنا يا فرح.. الله هو من وضعني منذ البداية على سُلم التعليم.. هو من أضفى علىَّ القوة والعزيمة لأسير ثمانية كيلومترات يوميًا من شوبر إلى سعد زغلول الإعدادية.. ثم ذات المسافة إلى الأقباط الثانوية، وحين يداهمنى اليأس أو تضعُف عزيمتي كان الله يمدني بمدد القوة، يُضفى علىَّ الصبر، ويمنحنى فيضًا من القوة، ومددًا من العزيمة.. الله كان السند حين لم يكن سند.. الظهر حين أفقد كل ظهر.. العون حين تضل السُبُل ويُفتقد العون.. المغيث حين تُدير الدنيا ظهرها وتُدبر عنى أبواب الفرج.

كـان الله يسكن بيتنـا حـين يرسـل إلـيَّ مـن يحملنـى علـى دراجتـه إلـى حيـث الامتحـان.. امتحـان آخـر العـام فـي الشـهادة الابتدائيـة، التـى لولاها ما أكملت تعليمى، إذ كان وفاء أبي بتهديده الدائم حاضرًا.. الحقل إذا رسبت في الابتدائية!!..

كان الله يسكن بيتنا إذ قررت الدخول إلى المدرسة الثانوية الصناعية لدراسـة الكهربـاء.. ولكـن الله وجـه أبـي لإتمـام تعليمـي فـي المرحلـة الثانوية .. وما وجد قراره مقاومة مني.. بل لعله كان ميل قلبي الذي نحيته جانبًا وآثرت التعامل مع فرضيات الواقع لا جدليات الخيال..

كـان الله يسكن بيتنـا إذ لحقت بالكليـة، وحـار عقلـي بين الأقسـام، ثـم هداني ربي هداية الدلالة إذ تمكَّنَت مني الحيرة، إلى قسم الفلسفة، ثم أصـير أول دفعتـي بتقـدير لـم يتحصـل عليـه فيمـا أعلـم سـوى أنـيس منصور؛ ثم أكمل مسيرتى العلمية.

الله وحده من فعل.. الله وحده من وَجَه.. الله وحده من اختـار.. الله وحده كان الثانى إذ كنت في الطريق وحدى أسير.. كان المؤيد إذ كنت أتيه بين الدروب.. كان باب اليقين ونبض الأمل إذا تسلل اليأس إلى قلبى..

في طريق النور لا نور يا بنيتى سوى نور الله.. فمن لم يجعل الله لـه نورًا فما لـه من نور.. ومن لم يشرح الله صدره فما للسعادة إليه من سبيل.

قابلت أمك في قدرٍ مقدور.. التقينا في العمل.. أحببتها من أعماقى.. كانت النبض الذى قذفه الله في قلبى.. والفؤاد الذى قامت عليه أركان روحي.. والمداد الذى تفيض لأجله سعادتى.. كم عانت أمُك حين وُلدت أختك فاطمة ميتة.. ختقها في رحم أمها الداء.. وتحملَّت أمك آلام المخاض، ورسخت كالجبال الراسيات لمصيبة الموت.. تلك التى لم أقو عليها وأنا الممتلئ باليقين.. يملؤني اليقين في الله.. في رداءة الحياة الدنيا، فأقصاها بضاعة مزجاة.. في الدار الآخرة، وإنها الحيوان لو كانوا يعلمون.

تغشى السكينة الحديقة، ويكأن ملائكة الله تحف المكان، أو ربما تكون أرواح العارفين والأولياء تطوف في الرحاب.. فكم يأنسون لمثل هذه الكلمات، وكم يقدسون مثل هذا المنطق.. وكم يحتفون بمثل هذا اليقين..

حاولت فرح أن تخفف من ذاك الحزن الذى تراه يغشى أباها دون أن تلمسه، ودون أن تملك عليه الدليل.. فالرجل يتحدث عن اليقين، عن الإيمان.. عن نور الله المفارق الذى لا يدركه إلا العارفون.. المخلصون..

الذين تخلصوا من أدران الدنيا وجواذب الأرض.. لكنه حديث الوجع.. هكذا تستشعره دون أن تُمسك عليه الدليل.. وهكذا يُحدثها قلبها وإن أرسل إليها الدليل على جمال المنطق وحلاوة الحديث، لكنها أرادت أن تمحو من الحزن ما استطاعت إلى محوه من سبيل، سألته ولسانها يتعثر أمام منطق أبيها، وربما أمام عذوبة كلامه.. وربما أمام حلاوة حديثه وعباراته: "وما الذى ينقصك يا أبي.. ما الذى تريده وأنا أفعله ولو كلفني الأمر حياتي".

لقد فرضت فرح الصمت العميق دون أن تدري.. ليتكِ يا بُنيتى ما سألتى عمَّا ينقصني.. هكذا كانت تلك الحروف تتردد في صدره.. ينقصني ما لا تعرفينه، وما لا تدركينه، وما لا يدركه أحد إلا من مرَّ بذات التجربة.. تنقصني نفسي يا بُنيتي.. نعم.. نفسي دون مبالغة..

ذهبت مع أمك السكينة والمودة والرحمة التى جعلها الله خاصة بين الزوجين، ولم يجعل لهذه المعانى بديلاً غير الزوجية.. هكذا طافت رأس الرجل، وراح من جديد يُقلب في الذكريات، تلك التى ما فترت تطوف برأسه كل لحظة..

ولكن فرح تقطع هذا الصمت إذ لم تجد جوابًا: "ألم تقل يا أبي أنها إرادة الله.. الله هو من يدبر.. هو من يقضي.. هو من يريد".. انفطرت شفتاه عن ابتسامة يملؤها الرضا، ويُشبعها اليقين: "نعم يا بُنيتي.. الله هو من يدبر كل شيء وما لأحدٍ من خلقه رأيٌ ولا تدبير.. الله من قذف بي في طريق العلم.. الله من انتشلني من الوجودية وأعاد إلىَّ إيمانى ويقيني من جديد.. الله من أخرجني من القرية إذ لا أملك شيئًا.. وأتاني من لدنه حكمًا وعلمًا.. الله من أخرجني من بيت بالطوب اللبن، يتساقط عرشه فوق رأسي، إلى قصرٍ منيف ذي سعةٍ وجمال تصميم.. الله يا فرح هو من يسكنني، يسكن قلبي، يسكن بيتي، يسكن فؤادي.. الله وحده من أرجوه، من أسأله السكينة لقلبي المنخلع، والسلوى لفؤادي المكلوم..

الله من قدَّر كل شيء، وما حياتنا إلا قد قبسٌ من فيوضات الإرادة، وحروف قلم التدبير.. جرى القلم، وحفظ اللوح المحفوظ، وسرت أسرار الله في كونه لتثبت عجز البشر، وضآلة علم البشر، وجزع البشر، وعدم إدراكهم لأدنى شيء، وصدق الله العزيز العليم {وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا} (الإسراء٨٥)

أرأيتِ يا بُنيتي كم بلغت بنا رحمات الرحمن الرحيم.. في العطاء رحمة.. وفي المنع رحمة.. وفي السعة رحمة.. وفي الضيق فيوضات من الرحمات.. رحمات بعضها فوق بعض، يعجز الإنسان عن إدراكها، ولا يملك إلا الصبر والشكر والتسليم، ففي الرضا تسكن السعادة.. وما دخلت قلوبًا غير تلك التى سكنها الرضا ومالت عن قناعةٍ ويقين إلى التسليم.

وأين مُصابي من نبي الله أيوب إذ فقد العافية والأولاد والأموال.. ما نقم على إرادة السماء، وما تعجَّل الفرج.. سنوات من الرضا والتسليم طالت لياليها ولسانه لا يزيد عن التضرع إلى الله القادر {وأيوب إذ نادى رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ} (الأنبياء٨٣)..

الله قريب.. ودود.. أسرع برحمته إلى إجابته {فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ} (الأنبياء ٨٤) ..

الله يذكر هذا المثال للتأسي.. لتتخذه الإنسانية الراشدة قدوة.. لأجل ألا يفقد أحدٌ الأمل.. هكذا نطق القرآن {وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ} نسأل الله أن يجعلنا من العابدين.. ومن الذاكرين، ومن الصابرين.. فوعد الله دائمٌ لا ينقطع {إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ} (الزمر ١٠)..

هزت فرح رأسها، علتها ابتسامة لطيفة، نظرت إلى أبيها بحنان الأرض كله ثم قالت: "أحسب هذه اللغة جديدة عليك يا أبى.. أخشى من محمد ممدوح عليك لأنه مهووس تصوف"..

ابتسم الفيلسوف وابتسمت.. واستلهم القول: "الله حقيقة الكون السرمدية.. هذا ما ينبغى أن يعرفه الجميع، وأن يُسلِم به الجميع.. أقدارُ الله نافذة لحكمة يعلمها سبحانه ونجهلها..

وليس أمامنا سوى الرضا.. الصبر.. اليقين، ويشهد الله أنى ما قابلت قضاءه بغير هذه الثلاث.. وما امتلأ قلبي بيقين أشد مما امتلأ بعقيدة أن الله يسكن بيتنا.. الله يسكن كل مكان.. وهو معكم أينما كنتم، إنه بصيرٌ بالخلق أجمعين".

(٢١)

هذه وصيتي

مرت حياة صاحبنا كلها وهو يُعد لحلمه الكبير، ذاك الذى تلخصه كلمات محددة "الوطن العربي الكبير" .. كان هذا هو الحلم منذ أن عاين آثار النكسة في ١٩٦٧م في شوبر وهو بالمرحلة الإعدادية لم يجاوزها إلى ما بعدها.. كان يُصور الهزيمة في مخيلته، تلك المخيلة التى ما فتُرت عن جمع الهزائم والنكسات والهموم العربية، وما كفت عن وضع التصورات لردم هوة تلك الهزائم وتغيير واقع هذه النكسات.. كانت النكسة مصدر همِه الأول.. وهمه الأكبر.. وهمه الذى كبُر مع كبره، ونضُج مع عقله، وساقته الأيام قرينًا له.

وما نسيت ذاكرته نصر أكتوبر العظيم.. حين كان يقف فوق هضاب شوبر وأعالي مرتفعاتها ليصور في تلك المخيلة أيضًا مشاهد العز والفخر التى كانت السبب الرئيس في يقينه بأن النهضة العربية قادمة، وامتلاء وعيه بأن التفوق العربى إرادة شعب أبىَّ، لن يثنيها أو يوقفها عن غايتها أحد..

كان النصر مصدرًا للإلهام في وضع خارطة طريق للمستقبل العربي، فأفكار الشيخوخة هي محض ثمار الصبا.. ذاك الذى عاين الجيش السوري وهو يؤازر الجيش المصري.. وذاك الذى سمع بأذنيه صوت الملك فيصل بن عبد العزيز وهو يصيح: "لابد من الوقف الفوري لتصدير البترول للكيان المحتل وأمريكا من ورائه".. لقد رأى الدمع العربى.. رأى المرأة العجوز في جنوب اليمن التى تصعدُ إلى الصحراء، تركع وتسجد، تُناجى ربها "انصر جندك المصريين" أمدهم بمددك يا الله.. اصنعهم على عينك يا رب.. أهلك عدوهم.. انصرهم نصرًا قريبًا، وافتح لهم فتحًا مبينًا" .. لقد سمع و سمع جيله معه ورأوا بأعينهم دعوات الأرامل والثكالى والعجزة و الشيوخ.. منابر الوطن العربي كلها ترتجف بالدعاء من أقصاه إلى أقصاه.. الحناجر لا تتوقف عن الصياح.. الله أكبر .. الله أكبر.. الله أكبر..

أيام باكيات على ما فيها من فرح.. نتذكر المشاهد فنبكى على تلك الأيام التى جمعتنا.. جمعت شتاتنا.. وحدت صفوفنا، وحدّت غاياتنا وأهدافنا بمثل ما اتحدت مساعينا وخطواتنا.

ما الذى حدث حتى تذهب تلك المشاعر سُدى.. حتى تلملم تلك الأيام أوراقها.. هل انعدام قضية توحدنا من جديد هو السبب؟

لا أظن، فالقضية الفلسطينية بأحداثها ومظالمها وأحزانها المتصلة كفيلة بجمع الأمم كلها حولها وليس الأمة العربية وحدها..

احتلال هضبة الجولان حدث شبيه باحتلال سيناء.. هذه أرض عربية، وتلك أرض عربية.. لا فارق قط بين الأرضين.. كما لا فارق ألبته بين الشعبين"..

ما الفارق إذن؟ ما العامل الحاسم الذى فرَّق بين احتلال سيناء واحتلال فلسطين.. أحسبه، ويحسبه معي المخلصون أنها أيادي الخارج الخبيثة، تلك التى استطاعت بخبثٍ ودهاءٍ أن تُمزق وحدة الوطن العربي الكبير.. أن تزرع بين دوله وأقطاره الشتات وتؤجج الخلاف وتنفخ في نار الصراع.. فأصبح كل قطر منعكفًا على ذاته.. يغلق عليه بابه.. تمتد يده إلى إخوانه في اللسان والدين بالشر والوقيعة بعد أن كانت ممتدة بالبترول وبالعون وبالسلاح..

تلك هي المفارقة الكبرى التى حدثت فوق جثة الأيام.. وذاك هو السبب الرئيس الذى غيرَّ الوحدة من نبضٍ وروحٍ في ١٩٧٣م إلى حرب دامية بين الأشقاء في مطلع العقد الثانى من القرن الحادى والعشرين.

إنه التاريخ الذى يقتل المخلصين ويُسبب لهم الأمراض المزمنة.

كان المواطن العربى في ١٩٧٣م يموت ولسانه يلهج بالدعاء لمصر.. وعيناه أغرورقتا بالدمع طلبًا للنصر.. واليوم يموت وهو يقتل أخاه دفاعًا عن سلطة أو أيديولوجية أو طائفية.

كان أصحاب الأمراض المزمنة يموتون حزنًا على مصر إذ ألمّت بها آلام النكسة وبشاعتها ولكن أقرانهم اليوم يموتون في مدرجات الكرة حزنًا على فريقهم الذي يشجعونه إذا ألمت به الخسارة.

كان الهم الأكبر لكل مواطن عربي من جيل الستينيات والسبعينيات وأوائل الثمانينيات أن يرى اتحادًا عربيًا قويًا.. في حين صار أكبر همَّ للجيل الحالى أن يرى منتخبًا قويًا لكرة القدم.

يا للقدر.. يا للمفارقات.. يا لإعياء النفس وإجهادها في مفارقات لا يُغنى ذكرها غير المرض والحزن والكمد.

أحسب أن تلك القضايا هي المؤرقات الكبرى التى تصب العذاب على صاحبنا صبًا.. أحسبها هي المهمة القومية التى نذر نفسه لها منذ بكائه صغيرًا حين النكسة.. منذ رأى والده يبكي على خسائر مصر الكبرى في الجند والسلاح.. منذ رأى عبد الناصر يخرج بصوتٍ ملأه حزن الأرض ليعلن المسئولية والتنحي.. إنه تاريخ ما يتذكره صاحبنا إلا ويحضره الهم، ويُداهمه الألم، وتغزوه الشجون.

لقد كان يُعد خطابًا منذ فترة ليست بالوجيزة، لعله أراد أن ينشره في أحد مؤلفاته التى تجاوزت السبعين.. ولعله كتبه لإلقائه في احتفالية عامة لست أعلم عن تفاصيلها شيئًا.. وربما كتبه لأحد الرؤساء العرب.. كلها مجرد تكهنات لا أصل لها من الصحة ولا رصيد لها من اليقين.. كل ما أدركه أنه هو كاتب هذا الخطاب.. وأنه وحده من صاغ عباراته، حتى لتستشعر أن روحًا من أولياء الله قد حلَّت ضيفًا على عقله حين قرر الكتابة.

"الإخوة والأخوات: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. السلام من أسماء الله العليّ.. السلام من أسماء الجنة ذات الثمر الجنيّ.. السلام رسالة السماء للأرض.. ورسالة الإنسانيين من بنى البشر.. رسالة العقل.. رسالة الضمير.. بل لعله رسالة الوحي حين صدع بالأمر {وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ} (الأنفال ٨١)

السلام على أمتي حين اتحدت ضد الكيان المغتصب في أكتوبر العام ١٩٧٣م.. السلام على أمتي حين اتحدت قبل ذاك التاريخ ضد المحتل الغاشم في ١٩٤٨م.. السلام على أولئك الرجال الذين نادوا بأعلى أصواتهم.. يا قومنا أجيبوا داعي الله.. فنحن أبناء أمة واحدة.. أبناء لسانٍ واحد.. أبناء دين واحد..

دين نادى عليكم جميعًا ليأمركم ويحذركم {واعتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا} (آل عمران١٠٢).. السلام على تلك الروح النقية التى حلُمت بالوحدة فسعت إليها ووطئت الصعاب بأقدامها حتى حدثت على الأرض واقعًا لا حلمًا بين الشعبين المصرى والسورى..

ثم امتددت أيادي العابثين من جديد لتمزق ما شيدَّه المخلصون والصادقون.. السلام على أولئك الركب الطاهر من الذين خلوا من قبل.. أولئك الذين رفضوا بيع الأرض العربية أمام مساومات المحتلين.. السلام عليهم جميعًا.. في قبورهم أحياءٌ عند ربهم يُرزقون.

في هذه اللحظة الفارقة من تاريخ أمتنا أقف حاملاً الأحلام القديمة من جديد، أبعث فيها من روحي.. فلعل غوث السماء يمتد ويهبنا الحياة تارة أخرى.. لعله مدد الله الذى لا ينقطع أبدًا عن أرضنا الطيبة، أرضنا المباركة، تلك التى أقسم بها الله غير مرة {وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ} (التين ١-٣)

تلك التى باركها الله أمام العالمين {سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ} (الإسراء ١) {وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ} (سبأ١٨)

تلك التى نزل القرآن على أرضها.. ثلثا أحداثه فوق أرضنا، نجاة موسى وهلاك فرعون من معالم أرضنا.. سير العائلة المقدسة من مفاخر أرضنا.. رحلة الخليل إبراهيم إلى البيت الحرام؛ خطواتها فوق أرضنا.. البيت الحرام ذاته الذى تهفو إليه قلوب العالمين فوق أرضنا.. النبي الخاتم من مفاخر أرضنا، ومن نبت شعبنا.. القرآن ذاته، دستور السماء للأرض، قانون السماء الخالد، نزل بلسانٍ عربيٍ مبين {إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الزخرف٣) {وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَاْعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ} (فصلت٤٤) {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} (الشعراء١٩٥)..

هذا كتابنا ينطق عليكم.. الوحى الذى نزل على نبيكم، لا أحيلكم إلى شيء غيره، فقط امنحوه لحظات من وقتكم، دقّقوا فيه النظر، اتركوا لقلوبكم السير لتلتقط المشاهد.. تذكروا مشهد الخليل إذ كان بالأرض الحرام..

تـذكروا دعواتـه لكـم ولأرضـكم، تلـك الـدعوات التـى يرددهـا مسـلمو الأرض من أقصاها إلى أقصاها، في كتابٍ خالدٍ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد {رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ} (إبراهيم ٣٧-٣٨).. تـذكروا دعـاء نبـي الله يوسف لأرضنا الطيبة، أرض مصر تلك التـى أتـاه الله ملكهـا، وربـاه فوقها، ونصره على مكائد أهلها {وآوى إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ} (يوسف٩٩) تـذكروا إذ كانـت مصـر خـزائن الأرض، كـل الأرض.. فـي ذاك الحـين؛ وكفـى بـالله شـاهدًا.. وكفـى بـالقرآن شـهيدًا {قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيم} (يوسف٥٥)..

تذكروا ماضينا التليد في الحضـارات العريقة التـى قصَّ علينـا القرآن طرفًا من أنبائها {لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَة} (سبأ١٥)

تذكروا عرش بلقيس {إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيءٍ ولها عرشٌ عظيم وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ} (النمل ٢٤) تذكروا إيمانها حين اتضح لها الحق {قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} النمل (٤٤)

لعلنا لو تقصينا القرآن وهو يشهد لأرضنا العربية، ويصف شعبنا العربي، تارات بالرجولة، وتارات بالكرم، وثالثة بالحياء.. لو تقصينا تلك الأحداث التى جرت على أرضنا وكيف بارك الله فيها وحولها.. لو تتبعنا وصف القرآن للحضارات العريقة التى أُقيمت على أرضنا لفاتت السنون تترى وما انتهينا.. لأننا لم نعرف قدر أرضنا، ولا إمكانات شعبنا.. نحن قوم بارك الله أرضهم وشعبهم.. بارك أرضنا بمواردها وثمارها وطبيعتها التى تجلب حسد العالمين.. وبارك شعبها في عقولهم وفى رجولتهم وفى مبادئهم، وفوق ذلك كله، باركه بالوحي الذى تنزَّل على أرضهم ونطق أحكامه وسراجه المنير إلى الأرض قاطبةً بلسانهم.

تلك كلها مقومات البناء، بناء النهضة التى عارٌ علينا تضييعها.. عارٌ علينا أن نتخاذل أو نتكاسل عن طلبها.. عارٌ علينا أن نتشرذم وقد خُلقنا أمة واحدة، بلسانٍ واحد، بمصيرٍ واحدٍ، بمستقبلٍ واحدٍ.

آن الآوان يا أبناء وطنى وقد نزل القرآن بلسانكم وفوق أرضكم ليجعل منكم أمة واحدة، متعاونة، متعاضدة.. الأخوة رابط يجمع شتاتها {إنما المؤمنون إخوة} والدين واحد يضمن وحدتها {إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ} (الأنبياء ٩٢).. والنصر من الله وعدٌ أعطانيه الله حين ننصره على أهوائنا ومصالحنا الضيقة {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ} (محمد٧) الله مولانا وكفى بولايته ولاية {ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ} (البقرة٢٥٧)..

الله ينتظر منا الصيحة.. صيحة النهضة، صيحة العزيمة.. صيحة البناء.. بناء أمة هى خير أمةٍ أخرجت للناس.. استعادة حضارة كانت منارة للعالمين، كانت هداية للحائرين.. كانت دلالة للمبعثرين المشتتين.

آن الآوان أن تتحـد أقطـار أوطاننـا، إن لـم يكـن تحقيقًـا لرغبـة المخلصـين مـن أبنـاء الشـعب العربـي، فلـيكن تحقيقًـا لطمـوح القـرآن الكـريم الـذى نـزل علـى سـيد المرسـلين.. لـيكن اسـتجابة للفطـرة الإنسانية.. للقيم العربية الأصيلة.. للمبادئ التى ما أشرقت الشمس علـى مثيـلٍ لهـا.. آن آوان التسـامي فـوق الـذات، فـوق المصـالح الضـيقة، فـوق أطمـاع الـنفس وأهوائهـا.. التجـرد حسـبة لله.. حسـبة للوطن.. حسبة للمبادئ العليا والقيم الرفيعة.. التجرد حسبة للشعب العربي، فالوحدة لم تغِب لحظة عن الشعوب لكنها غابت لعقود عن السياسيين، الوحدة قادمة، لا مرية في ذلك، يمتلئ بها يقيني بمثل ما يمتلـئ بـالله الواحـد الأحـد.. هـي قدرنا المحتوم الـذى لا منـاص منـه، هكـذا تحـدث القـرآن.. وهكـذا تحـدث نبـي الإسـلام (ﷺ)، وهكـذا دل التاريخ، وهكذا تحدثت الشعوب.. وهذا ما خشاه بنو الغرب والصهاينة فعملوا على عرقلة المسيرة، وابتكروا العراقيل الخبيثة والخطط الدنيئة وخشوا هذا اليوم أشد مما خافوا يوم المعاد..

الوحدة قدر يا سادة.. وأقدار الله حتمًا تنفذ، تنفذ فوق تآمر المتآمرين.. وفوق كيد الكائدين.. وحقد الحاقدين.. ومكر الماكرين.. تنفذ فوق رغبات الإنس والجن، فوق رغبات الشرق والغرب.. فوق كل تخطيط، وفوق كل معالم البشرية وصنائعها.. تبدأ النهضة العربية حين تبدأ أولى خطوات الوحدة.. ولا سبيل لبناء نهضة واستعادة حضارة تليدة إلا ببناء وحدة حقيقية تبدأ عند تخطي الإقليمية.. تجاوز الخلافات الضيقة.. التعالي على سفاسف الأمور وصغائرها.. نسيان المشكلات البنذاتية وتجاوزها.. وضع حلول سياسية لكافة الأزمات في أرجاء وطننا المترامية..وضع حل يتجاوزها، وصنع حلول سياسية لكافة الأزمات في أرجاء وطننا المترامية.. وضع حل يتجاوز الطائفية والأيدلوجية والعصبية لأزمة أمتنا الناخرة في جسدها والطاعنة في قلبها.. أزمة وطننا العربي في سوريا.. آن الأوان لوقف نزيف الدماء، أن تضع الجيوش الحرة أسلحتها.. أن يعتزل الساسة كلهم المشهد.. أن نُطهر المسرح من كافة مشاهده القديمة، ورموزه القديمة، وشخصياته القديمة..

أن نبدأ عهدًا جديدًا باسم السلام.. والله السلام.. والدين السلام.. باسم القرآن الذى نزل على أرضكم وبلسانكم.. وباسم النبي الذى بُعث للعالمين من بينكم وسارت نبوته فخرًا لكم.. باسم الدين الرحمة للإنسانية، والنبي الرحمة للعالمين.. جففوا منابع الدماء في كل أقطارنا.. ليبيا، مصر، اليمن، سوريا.. أوقفوها لأجل الله وحده.. لأجل السماء.. فلن أجد من أنشدكم به- إذ هانت عليكم العروبة، وإذ هان عليكم الإنسان، وإذ هان عليكم الوجود، وإذ عبثتم بالحياة، كل الحياة- لن أجد سوى الله.. هو وحده من يسمع.. هو وحده من يرى.. هو وحده من يُصرف الأمر ويدبره ويُفصل الآيات بحكمة بالغة.

أوقفوا الدماء.. ضعوا الأسلحة.. ولنبدأ البناء من حيث وضعنا السلاح.. تذكروا دائمًا أن الله سلام.. أن الوجود سلام.. أن الأنبياء ما أُرسلوا إلا لأجل السلام.. أن العقيدة سلام.. أن النهضة لن تبدأ إلا حيث بدأ السلام، فكل نقطة دم تسيل تُبعدنا عن السلام ألف ميل.. فهل يعقل بنو وطنى.. هل يوقفوا النزيف.

باسم الأجيال القادمة أنشدكم الله.. باسم الصغار الذين شيبتهم الأهوال وكستهم أشكالاً غير أشكالهم.. جعلت من الولدان شيبًا، لأنها أهوال تشبه يوم القيامة.. باسم أجيال البراميل المتفجرة، أجيال الرصاص الحي.. أجيال الانقسامات والشقاقات والصراعات.. أجيال الأحزان المتصلة والهموم المقيمة.. أولئك الذيم كبروا وهم صغار، أولئك الذين عاينوا أهوال القيامة ألوف المرات..

باسم صرخاتهم التى لم يعرفوا أسبابها.. باسم بكائهم الذي لم يجف ولم يذُق طعم الراحة.. باسم أحزانهم السرمدية.. باسم اليُتم الذى لم يعرفوا له سببًا، والقتل الذى عاينوه دون أن يجنوا جريرة.. باسم ما تبقى في جوف الرجال من رجولة.. من قيم.. من مبادئ.. من دين.. من بقايا الإله.. من بقيات الآيات والذكر الحكيم.. باسم الصرعى ودماء الشهداء التى روت شقوق الأرض اليابسات فوق كل شبر من أرضنا.. باسم الثكالى والأرامل والعجائز.. باسم أمهات الشهداء وآباء الضحايا.. باسم أطفال الضحايا وعيال الشهداء.. باسم ما تبقى من إنسانية مهدرة الكرامة، مهدرة الضمير.. مهدرة الوجود..

باسم بقايا الضمير الإنسانى.. بقايا الحنان الراسي في عمق النفس.. باسم الله وأنبيائـه، ضـعوا الأسلحة، كـل الأسلحة.. أسلحة القتـال.. أسـلحة الصـراع.. أسـلحة المصـالح الشخصـية.. أسـلحة الأحقـاد.. أسلحة حب الذات.. وعبودية الذات..

ضعوا هذه الأسلحة جميعًا لنبدأ الاصطفاف من جديد، لأجل انتشال صغارنا.. لأجل المستقبل الدامى الذى تنبعث من كل جوانبه رائحة الدماء.. لأجل الحاضر البئيس وإنسانه التعيس.. لأجل الغد الذى نرجوه، ويرجوه من ورائنا أولئك الصغار.. لأجل ذلك كله آن أوان الاصطفاف.. أوان الوحدة .. ومنهما إلى البناء.. بناء الإنسان.. ثم الوطن"..

تتصور نفسي ذاك الحفل المهيب الذى تُلقى فيه هذه الكلمات، لست أدري لماذا يُداهمني الإحساس بارتجاج القاعة بالبكاء بدلاً من التصفيق.. بالحزن بدلاً من الفرح إذ يسمعون هذا الكلام.. ولست أدري أيضًا متى يئن أوان هذا الخطاب وما هي تداعياته، وأين سيُلقى، وفي أي مناسبة، ومن الجمهور الذين سيسمعون؟

وكيف يقع على نفوس الساسة، لعل اليقين الوحيد الذى أعرفه وسط كل هذه التساؤلات أن الشعوب ستستقبل هذا الخطاب بالدموع.. دموع الفرح.. دموع العودة إلى الأصل.. دموع استعادة الماضي ذى القيم المجيدة والمبادئ التليدة.. أظن أن الشعوب لن تترك ميلاد تلك اللحظة يمر دون تخليدها في ذاكرتها الأبدية.. دون إحسان استغلالها من كل وجه، ومن كل سبيلٍ أمكن..

أما عن التوقيت فلعله في علم الله علام الغيوب.. لعله لم يئن بعد.. ولعله بزغ نجمه في السماء وما يدركه إلا العارفون، ويسألونك متى هو قل عسى أن يكون قريبًا والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

مع فيلسوف الشرق في منزله
ومراحل من حياته

صوره جماعيه لاجتماع مجلس عمداء كليات التربية في

جامعة قطر ٢٠٠٤م



سعدني السلامونى مع فيلسوف الشرق في منزله



والد د. مصطفى النشار يحضر مناقشة رسالته للماجستير

مع بعض الأصدقاء والزملاء



د. مصطفى النشار مع خطيبته سعديه شعيب

في حفل خطوبتهما بقاعة نادى وادى النيل على نيل القاهرة

في ١٤ ديسمبر ١٩٨٨م.





مع زملاء الدراسة أحمد زايد وعبد الله لؤلؤ من قسم الاجتماع ومدحت عمر من قسم علم النفس



مع د. صلاح رسلان ود. زينب الخضيري وأحد تلاميذه بعد انتهاء مناقشة رسالته للماجستير ١٩٨٠م



بعض الزملاء والتلاميذ الذين حضروا مناقشة رسالته

للدكتوراه عام ١٩٨٥م



مع بعض زملاء الدراسة في الفرقة الثانية قسم الفلسفة

عام ١٩٧٢م



مع زملاء الدراسة في الفرقة الثالثة قسم الفلسفة عام ١٩٧٣م.



جائزة أحسن كتاب في معرض الكتاب الدولي من مؤسسة الأهرام عن كتاب ثقافة التقدم وتحديث مصر



شهادة تقدير

١٣٧٠

ثقافة التقدم وتحديث مصر

في مصر و الوطن العربي

المدير العام

رئيس مجلس الإدارة

شهادة تقدير من جامعة القاهرة في الاحتفال بعيد العلم



عيد العلم

شهادة تقدير

تتقدم جامعة القاهرة في احتفالها بعيد العلم لعام ٢٠٠٤ / ٢٠٠٥ بأسمى معاني التقدير

السيد الأستاذ / الدكتور مصطفى النشار

عميد كلية [illegible] جامعة بني سويف السابق

رئيس الجامعة

أ.د / علي عبد الرحمن يوسف

مع د. يحي هويدي الذي كرم في الاحتفال الأول لقسم الفلسفة باليوم العالمي للفلسفة عام ٢٠٠٣

د. مصطفى النشار رئيسا للقسم بحضور د. على عبد الرحمن رئيس الجامعة ونوابه د. حامد طاهر ود. معتز خورشيد



مع د. أنس جعفر محافظ بنى سويف في افتتاح المؤتمر العلمي لكلية تربية بني سويف



شهادة إتمام دورة الاعتماد والجودة لعمداء كليات رياض الأطفال من جامعة نورث كارولينا بالولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠٨م



USAID
FROM THE AMERICAN PEOPLE

Certificate of Achievement

This certifies that, under the program of the United States Agency for International Development (USAID) of the Government of the United States of America in cooperation with other governments,

Mostafa Hassan Mohamed El Nashar

Has successfully completed participation in a technical cooperation program

in the field of: Special Education and Faculties of Kindergarten for Accreditation

for the period: July 25 - August 4, 2008

Issued this 4th day of January, [illegible]

Mark P. Ketchum
Project Manager

USAID's Egypt training programs are administered under contract by the Academy for Educational Development



الفلسفة وقضايا العصر

الصف الثالث الثانوى

كتاب الطالب والأنشطة

٢٠١٥ / ٢٠١٦م

تأليف

أ.د/ كمال نجيب البشلق
أستاذ المناهج وطرق تدريس الفلسفة
كلية التربية - جامعة الإسكندرية

أ.د/ مصطفى حسن النشار
أستاذ الفلسفة
كلية الآداب - جامعة القاهرة

أ.د/ محمد أحمد السيد
أستاذ المنطق وفلسفة العلوم
كلية الآداب - جامعة المنوفية

أ.د/ محمد سعيد أحمد زيدان
أستاذ المناهج وطرق تدريس الفلسفة
كلية التربية - جامعة حلوان

د/ حسنى هاشم محمد الهاشمى
خبير المناهج وطرق تدريس الفلسفة

أ/ مسعد أحمد عبد المقصود
موجه أول الفلسفة
إدارة بنها التعليمية

إشراف علمى
مستشار المواد الفلسفية
وزارة التربية والتعليم

إشراف تربوى
مركز تطوير المناهج والمواد التعليمية

أول حوار صحفي مع السيدة جيهان السادات في منزلها بعد التحاقها بالدراسة في كلية الآداب عام ١٩٧٤م







المبدع زكريا صبح وسعدني السلاموني مع فيلسوف الشرق



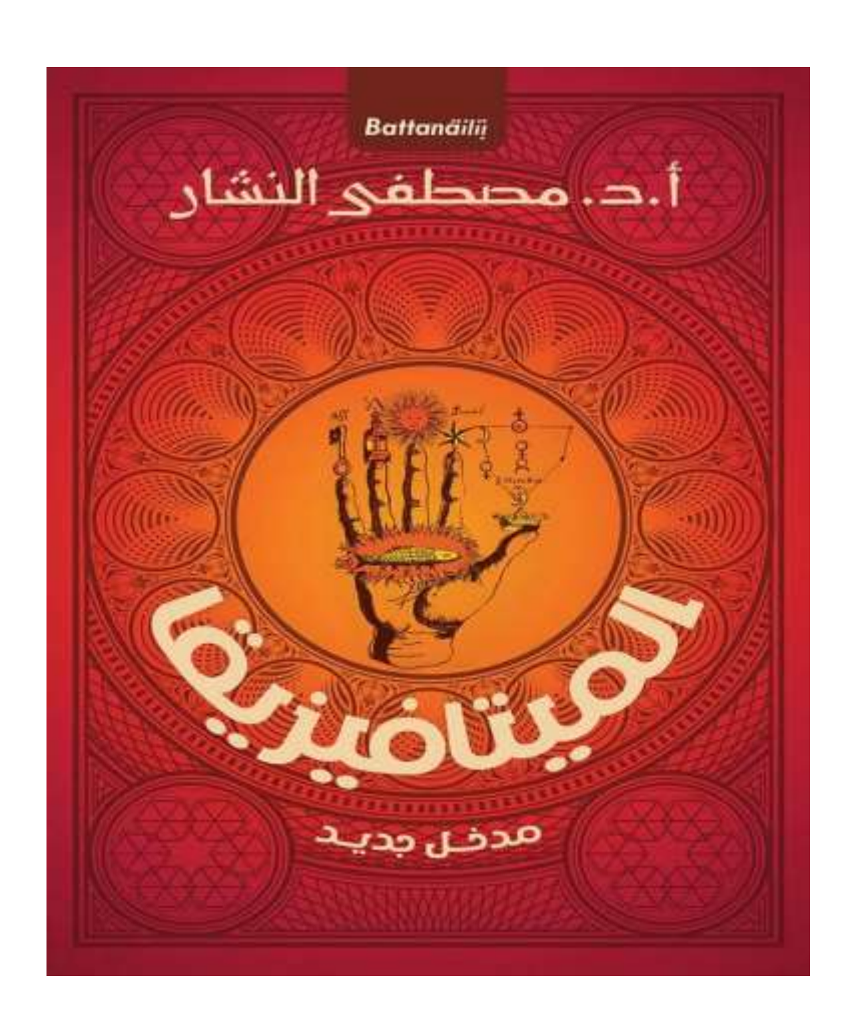
مع د. صفي الدين خربوش وزير الشباب وعمداء وطلاب جامعة ٦ أكتوبر في الموسم الثقافي للجامعة الذي كنت أنظمه و د. مصطفى عميداً لكلية العلوم الاجتماعية بالجامعة

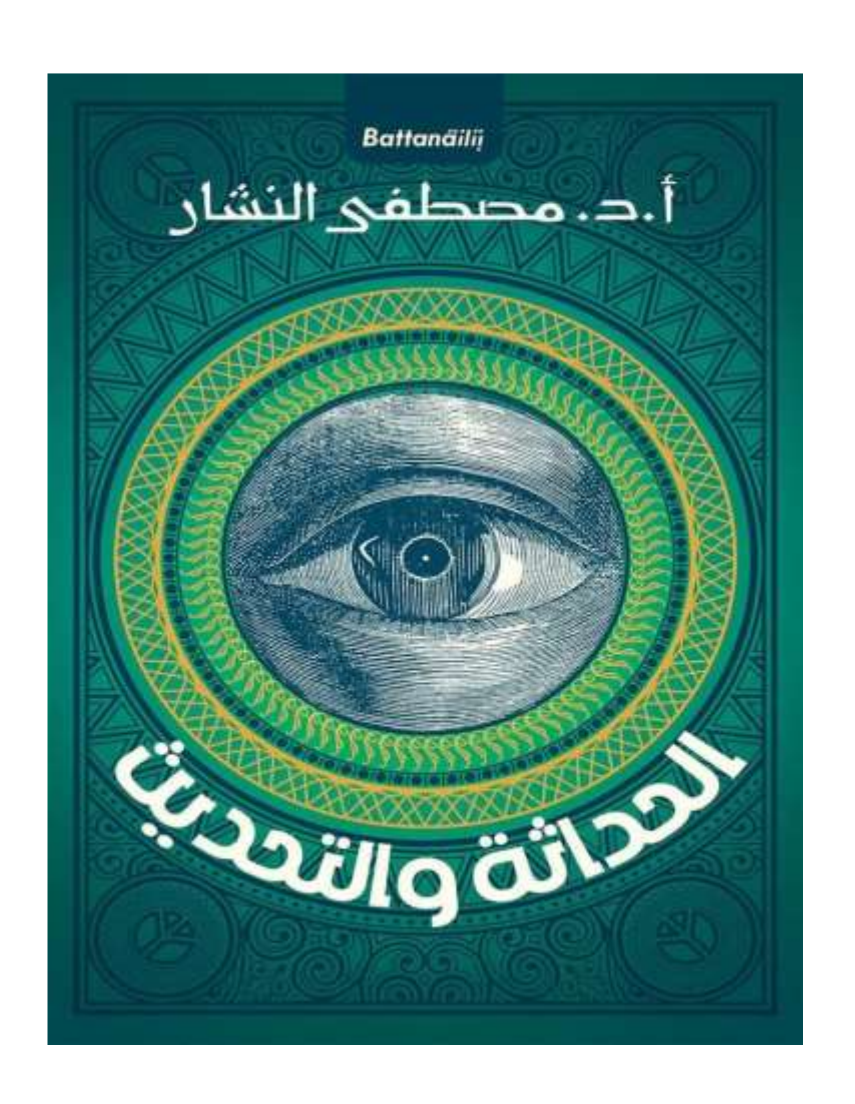


أخر مؤلفات فيلسوف الشرق




Battanaïliï
أ.د. مصطفى النشار
حياة القرن
الحادي والعشرين


Battanaiii
أ.د. مصطفى النشار
الميتافيزيقا
مدخل جديد


Battanāilīį
أ.د. مصطفى النشار
الحداثة والتحديث


Battanäilii
أ.د. مصطفى النشار
الفكر الفلسفي
في مصر القديمة

الفهرس



د. محمد ممدوح مع فيلسوف الشرق

د. محمد ممدوح على عبد المجيد فى سطور

الحاصل على درجة دكتوراه الفلسفة اليونانية جامعة القاهرة

ودكتوراه الفلسفة الإسلامية والتصوف – جامعة المنصورة

وعضو الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة

الاسم / محمد ممدوح على عبد المجيد

تاريخ الميلاد / ١٩٨٢/٨/١

جهة ومحل الميلاد / اللوزي – شربين – دقهلية

الجنسية / مصري

رقم التليفون / ٠١٠٦٦٧٢٨٣٩٠ وخارجي ٠٠٢٠١٠٦٦٧٢٨٣٩٠

الحالة الاجتماعية/ متزوج + طفلين

Email: dr_mamdoh1982@yahoo.com

المؤهلات العلمية

١. حاصل على ليسانس آداب – قسم الفلسفة ٢٠٠٣ بتقدير عام جيد من جامعة المنصورة.

٢. حاصل على تمهيدي ماجستير – جامعة الزقازيق ٢٠٠٥ بتقدير جيد جدا .

٣. حاصل على درجة الماجستير في الفلسفة (الفلسفة اليونانية والسياسية) من جامعة المنصورة ٢٠٠٩ بتقدير ممتاز – (المقاومة في الفكر السياسي عند فلاسفة اليونان من سقراط حتى الرواقيين).

٤. حاصل على الدبلومة العامة في التربية – كلية التربية – جامعة المنصورة ٢٠١٣ بنسبة ٧٨ %.

٥. حاصل على درجة الدكتوراه في الآداب – قسم الفلسفة – جامعة القاهرة – تخصص "فلسفة يونانية "– بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى– (فلسفة القانون بين الاتجاه الطبيعي و الاتجاه الوضعي أفلاطون وشيشرون نموذجاً).

٦. حاصل على درجة الدكتوراه بكلية الآداب– جامعة المنصورة– وهى الدكتوراه الثانية– تخصص الفلسفة الإسلامية والتصوف– موضوع الرسالة "مقاصد الشريعة عند ابن تيميه وآليات تحقيقها"– في فبراير ٢٠١٧م. بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى.

٧. حاصل على الرخصة الدولية لقيادة الحاسب الآلي(I.C.D.L) عام ٢٠٠٩.

٨. حاصل على شهادة التويفل من جامعة المنصورة بمجموع درجات ٥٠٣ وأخرى من جامعة بنها عام ٢٠١٧م.

٩. حاصل على الدورة التدريبية لمدربي التنمية البشرية من ثقافة المنصورة.

١٠. حامل للقرآن الكريم كاملاً ولله الحمد.

أبحاث منشورة

١. فلسفة المستقبل عند أفلاطون – مجلة ديوجين ويصدرها قسم الفلسفة – كلية الآداب – جامعة القاهرة٢٠١٤.

٢. المرأة بين الآلية والفطرة (بحث فقهي) منشور بالكتاب التذكاري للدكتور الخشت.

٣. سر السؤال السقراطي – مجلة مقاربات فلسفية – جامعة مستغانم– الجزائر العدد الثاني ٢٠١٤.

٤. أعماق محاكمة سقراط– ضمن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، منشور بتاريخ ٢٠يناير ٢٠١٥.

٥. الطغيان وانهيار الإنسان – بحث فلسفي منشور ضمن الكتاب التذكاري للدكتور إمام عبد الفتاح إمام.

٦. كتب التصدير والتقديم لكتب عديدة لمؤلفين وباحثين مصريين وعرب.

7. الثيوقراطية الدينية عند إخوان الصفا وأثرها على الفكر السياسي المسيحي، بحث ضمن كتاب عن الفلسفة الإسلامية منشور بكلية الآداب- جامعة بغداد٢٠١٤.

8. "القانون بين السوفسطائيين وسقراط" ضمن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، منشور بتاريخ٢٠١٥/١٠/٢٨

9. تجديد الخطاب الديني وفقه الأولويات.... مقال منشور بمجلة الثقافة الجديدة، عدد أبريل ٢٠١٦م.

10. المعضلات الكبرى في فلسفة الدين- قراءة في كتاب مدخل إلى فلسفة الدين للدكتور مصطفى النشار، ضمن مؤسسة مؤمنون بلا حدود، مارس ٢٠١٦م.

11. الألوهية فلسفة أم اعتقاد، بحث منشور بمجلة الثقافة الجديدة، عدد أغسطس ٢٠١٦.

12. بين الفلسفة والعلم في واقعنا العربي المعاصر- ضمن مؤسسة مؤمنون بلا حدود- يناير ٢٠١٦م.

١٣. المنهج المعرفي عند ابن تيميه، بحث منشور بمجلة كلية الآداب، عدد ٥٩، جامعة المنصورة.

١٤. المعضلات الكبرى في التصوف، مجلة الثقافة الجديدة، عدد يونيه ٢٠١٦م.

١٥. النفس والجسد والروح، دراسة منشورة بمجلة الوعى الإسلامي الكويتية.

١٦. العقل والقلب والفؤاد- دراسة منشورة بمجلة الوعى الإسلامي الكويتية.

١٧. الإسلام وحدائق الشيطان، مجلة الثقافة الجديدة، عدد ديسمبر ٢٠١٦م.

١٨. أكثر من عشرين دراسة ومقالة لمجلة الثقافة الجديدة القاهرية.

١٩. الفساد والتنمية ودراكولا التخلف- دراسة منشورة بمؤسسة مؤمنون بلا حدود عام ٢٠١٨م.

٢٠. أكثر من سبعين مقالاً بجريدة الوفد المصرية حيث كنت أكتب لها صباح كل سبت على مدار عام كامل.

المؤتمرات والندوات

١. شارك ببحث في مؤتمر الفلسفة التطبيقية بكلية الآداب جامعة القاهرة في يناير ٢٠١٤م.

٢. شارك ببحث في مؤتمر "تطوير الدرس الفلسفي المصري" بالمجلس الأعلى للثقافة بتاريخ ٢٦يوليو ٢٠١٥م.

٣. شارك في ندوة بساقية الصاوي عن كيفية النهضة العربية ومناقشة كتاب "الأورجانون العربي للمستقبل" للمفكر الدكتور مصطفى النشار، بتاريخ ٢٠١٨/١/٨م.

٤. شارك بالعديد من المحاضرات والندوات في الجامعات المصرية الخاصة بدعوات من وزارة التعليم العالي.

كتب منشورة

١. المقاومة من النظرية إلى التطبيق، تصدير أ.د. مصطفى النشار، دار روافد وابن النديم، لبنان ٢٠١٥م.

٢. تنمية القدرات وقهر الصعوبات (تنمية بشرية) – دار الوراق للطباعة والنشر – الأردن ٢٠١٤.

٣. العدالة من المفهوم إلى الإجراء، دراسة في المنجز الفلسفي من السوفسطائيين حتى شيشرون، دار روافد وابن النديم للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠١٥ وبتصدير الأستاذ الدكتور على عبود المحمداوى أستاذ الفلسفة السياسية بجامعة بغداد...

٤. فلسفة القانون بين أفلاطون وشيشرون ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع،المنصورة، ٢٠١٤.

٥. مدخل جديد إلى فلسفة القانون وإشكالياتها، بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور مصطفى النشار، المصرية اللبنانية للنشر، القاهرة، ٢٠١٦م.

٦. سقراط "اغتيال العقل" المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع،المنصورة، ٢٠١٤. وصدرت الطبعة الثانية منه في دار نيو بوك للنشر عام ٢٠١٧م.

٧. ترجم محاورتي" القوانين" و"الجمهورية" لشيشرون أثناء بحثه للدكتوراه وهما الآن قيد النشر.

٨. من النقد إلى فلسفة النقد "قراءة في فكر مصطفى النشار "إشراف وتقديم الأستاذ الدكتور عصمت نصار وتصدير الأستاذ الدكتور حسن حنفي وإعداد وتحرير دكتور محمد ممدوح عبد المجيد- دار روافد وابن النديم، بيروت، لبنان٢٠١٦م.

٩. العرب من الفناء إلى البقاء- الحلم العربي واقعياً عند مصطفى النشار، نيو بوك، القاهرة، ٢٠١٦م.

١٠. المواطنة في الإسلام، المعضلات والإشكالات في واقعنا المعاصر، تصدير أ.د. مصطفى النشار، تقديم أ.د. محمد سعيد زيدان، روابط للنشر والتوزيع، القاهرة٢٠١٦م.

١١. ابن تيمية ظالمًا أو مظلومًا، تصدير أ.د. السيد عبد الرحمن، تقديم أ.د. محمد عمارة، روابط للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٦م.

١٢. التصوف خلاص الإنسانية، روابط للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٧م.

١٣. مقاصد الشريعة الإسلامية عند ابن تيميه، روابط للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٧م.

١٤. الحسين سيد الأحرار– روابط للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٧م.

١٥. معراج السالكين ومنهاج الواصلين، دراسات محققة في التصوف، تحقيق سعيد عبد الفتاح، مراجعة ودراسة د. محمد ممدوح عبد المجيد، نيو بوك، القاهرة ٢٠١٦م.

١٦. ضد الإنسانية– نيو بوك للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٧م.

١٧. فلاسفة ملائكيون– نيو بوك للطباعة والنشر، القاهرة ٢٠١٧م.

١٨. فلسفة الأدب عند اليونان، قراءة في الإلياذة والأوديسة، دار الفرعونية للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٨م.

١٩. الثائرون ضد الله– روابط للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٨م.

٢٠. المجترئان على القرآن– دراسة نقدية لإجتراءات نصر أبو زيد ومحمد أركون– روابط للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٨م.

٢١. أغاليط جمهورية الله– روابط للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠١٨م.

٢٢. أكذوبة الخلافة– روابط للنشر والتوزيع، ٢٠١٨م.

٢٣. دستور الإسلام، روابط للنشر والتوزيع٢٠١٨م.

٢٤. الإسلام خلاصًا للإنسانية، روابط للنشر والتوزيع ٢٠١٨م.

٢٥. فشل المفكرين العرب، روابط للنشر والتوزيع ٢٠١٨م.

٢٦. كاتب عمود فكرى بالعديد من الجرائد والمجلات مثل جريدة الأهرام المصرية وجريدة مصر اليوم واليوم السابع وجريدة الرؤية الإماراتية والوفد والمصريون ومجلة بلدنا ومجلة منبر الحرية والثقافة الجديدة والرافد الإماراتية والوعى الإسلامي الكويتية.

٢٧. كاتب مقال فكرى أسبوعي بجريدة الرؤية الإماراتية صباح كل اثنين.

٢٨. عضو الرابطة العربية الأكاديمية للفلسفة.

٢٩. الوظيفة الحالية – مدرس مواد الفلسفة والمنطق والتفكير العلمي والمواطنة وحقوق الإنسان بالمرحلة الثانوية بوزارة التربية والتعليم – مصر.

٣٠. محاضر في التنمية البشرية وله أعمال مصورة.

خبرة تدريسية بالجامعة

١. قـام بتـدريس مـواد الفلسـفة اليونـانيـة- والفلسـفة اليونـانيـة- أرسـطو والمدارس المتـأخرة- لطـلاب الفرقتين الأولـى والثانيـة بقسم الفلسفة بكليـة الآداب جامعـة القـاهرة فـرع الخرطـوم منـذ بـدايات ٢٠١٦م وحتى الآن.

٢. يقوم بتدريس مـواد- الفلسفة اليونانيـة- الفلسفة اليونانيـة- أرسطو والمدارس المتأخرة- فلسفة الأخلاق- الفكر الشرقي القديم- بكليتي الآداب والتربية بجامعة العريش ندبًا من التربية والتعليم منذ بدايات العام الجامعي ٢٠١٧/٢٠١٨م.



صدر من هذه السلسلة


ماجدة الشرقاوى
من البصر الى عالم البصيرة
مقتطفات من حياة الفنانة ماجدة الشرقاوى
الفنانة التشكيلية
ماجدة الشرقاوى
أحب الحياه ـ
وأعشق الفن
فهو المنحة الإلهية
التى حبانى بها الله
لاعبر عن الجمال الذى
خلقه وأبدع صوره
وهو الملاذ فى الشدة
والمحراب فى التعبد
وبه أتقرب إلى الله
خالق هذا الجمال

الأمية البصرية في عيونهم



دارسات ومقالات حول المشروع من كبار علماء ومبدعي

مصر والوطن العرب

يصدر قريبا


ملك الكاريكاتير
تاج
فى حضرة أم العواجز
تناغم وتحليل الشاعر
سعدنى السلاموني

يصدر كتاب أسطورة النحت المصري

السيد عبده سليم



أستاذ ورئيس قسم التربية الفنية

وعميد كلية التربية الفنية بكفر الشيخ السابق



تصميم الغلاف للفنان القدير

أستاذ دكتور/ أشرف فتحي عبد العزيز

عميد كلية التربية قناة السويس السابق

تنسيق فنى

إنچي مطاوع

عضو مؤسس في محو الأمية البصرية

مع تحيات

محو الأمية البصرية

سعدني السلامونى